قامت الطالبة بعمل التصويبات حسبما رأت اللجنة

المملكة العربية السعودية

جامعة أم القرى

مكة المكرمة

كلية الدعوة وأصول الدين

الدراسات العليا - الكتاب والسنة

المجتمع الإسلامي

كما تصوره سورة المائدة

رسالة دكتوراه

إعداد الطالبة

عفاف محمد سعيد بن محمود عيد

إشراف الدكتور

عبد الباسط إبراهيم بلبول

١٤١١هـ

الجزء الأول

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٢١٠٢

UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة الدكتوراه : « المجتمع الإسلامي كما تصوره سورة المائدة »

تشتمل الرسالة على مقدمة ، وتمهيد ، وخمسة أبواب ، وخاتمة .

المقدمة : وفيها بيان سبب اختيارى لهذا الموضوع واهميته .

التمهيد وفيه : ١ ـ وجه التسمية بسورة المائدة .

٢ ـ المناسبة بينها وبين سورة النساء .

٣ ـ بيان أن هذه السورة من آخر سور القرآن نزولاً .

٤ ـ المقاصد التى اشتملت عليها السورة .

البـاب الأول : تكلمت فيه ، عن اسباب استقرار المجتمع الإسلامى ، ومنها :
الوفاء بالعهود ، والتعاون على البر والتقوى دون الإثم والعدوان ، وكمال الدين الإسلامى وما يستوجب ذلك ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الباب الثانى : عن السمع والطاعة والحذر من أهل الكتاب ، وفيه :
طاعه الله ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم واجبتان ، وطاعة أولى الأمر واجبة في غير معصية ، والحذر من غدر اليهود والنصارى ، وصور من ذلك الغدر .

الباب الثالث : عن الحكم بما أنزل الله تعالى ، تناولت فيه ، مصادر التشريع الإسلامى ، والفرق بين الأحكام التشريعية والقوانين الوضعية ، ثم فصلان بينت في الأول : وجوب الحكم بما أنزل الله ، وفي الثانى : قلت ، الحكم بما أنزل الله مقرر في شريعتى موسى وعيسى عليهما السلام .

الباب الرابع : عن من له حق الولاية ، وفيه ، الله ورسوله والمؤمنون هم الأولياء ، وما يترتب على ولاية اعداء الإسلام من آثار سيئة .

الباب الخامس : عن الأحكام الفقهية في سورة المائدة ، وهى من أهم أسباب استقرار المجتمع الإسلامى ، ولا يستقيم افراده وجماعاته إلا بالالتزام بها .

وقد فصلت الكلام عنها في مباحث ، ومنها النهى عن تحليل شعائر الله ، وتحريم القتال في الشهر الحرام ، وتحريم صد القاصدين بيت الله الحرام ، وحرمة العدوان على الآخرين ، كما تناولت ، معنى الحرابة ، وحكمها ، وحكم من تاب من المحاربين ، ومن هذه المباحث ، معنى الردة ، وحكمها ، وحكم من تاب من المرتدين ، ومنها شهادة غير المسلمين من اليهود والنصارى في الوصية في السفر ، وهل تقبل أو لا .

وأما الخاتمة فضمنتها خلاصة مركزة للبحث ، والنتائج التى تم الوصول إليها ومنها أن في الالتزام بشريعة الإسلام قوة للفرد والجماعة ، وتحقيقا للأمن والاستقرار . ومنها أن سائر أمم العالم مطالبون بالإيمان بالله ورسوله ، وكل أمر متنازع فيه إنما أمره إلى الله ورسوله ، وقلت : إن الأحكام الشرعية تتسم بالسمو والشمول والكمال ، وأنها كفيلة بحفظ الدماء والأموال والأعراض بخلاف القوانين الوضعية التابعة للهوى والغرض ، ومنها وجوب الحذر من غدر اليهود والنصارى الذين جبلوا على نقض العهود والمواثيق فيما بينهم وبين الله ، وفيما بينهم وبين الناس ، وبينت أن التعاون على البر والتقوى دون الأثم والعدوان هو لب الإيمان واساس الاستقرار .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الطالبه : عفاف محمد سعيد بن محمود عيد

المشرف : د . عبد الباسط ابراهيم بلبول

يعتمد ، عميد كلية الدعوة وأصول الدين

د . علي بن نفيع العليانى

الحمد لله رب العالمين ، القائل فى كتابه العزيز :

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ‹١›

والقائل : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ‹٢›

والقائل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ‹٣›

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، أشرف الأنبياء ، وخاتم الرسل .

وعلى آله الطيبين ، وأصحابه الغر الميامين ، وبعد :

فإن القرآن الكريم كلام اللّٰه تعالى ، ووحيه إلى نبيه الأمين ، محمد صلى اللّٰه عليه وسلم ، وخطابه إلى خلقه ، من ملائكة وإنس وجن .

أوضح فيه الإسلام ، وهو توحيده سبحانه وتعالى ، وإفراده بالعبادة دون سواه ، ونَبْذ الشرك وعبادة الأوثان ، ثم طاعته سبحانه فيما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه ، والإقرار برسالة رسوله صلى اللّٰه عليه وسلم ، وتصديق كل ما جاء به من عند اللّٰه ، واتباع كل ما أمر به ، واجتناب كل نهى عنه .

---

١ ــ سورة الفرقان : ١ .

٢ ــ سورة الإسراء : ٩ .

٣ ــ سورة ص : ٢٩ .

إن القرآن الكريم هو دستور المسلمين ، وحجة الله تعالى على العالمين ، وهو المعجزة الخالدة ، التى سبقت علم العلماء ، وتفوقت على فصاحة الفصحاء ، وفاقت بلاغة البلغاء ، فقد كان العرب أمة فصاحة وبلاغة ، وبيان وحكمة ، فشاءت إرادة الله عز وجل أن تكون معجزة رسوله صلى الله عليه وسلم من جنس ما برع فيه العرب ، من الفصاحة والبيان ، فأنزل الله عليه هذا القرآن المبين الحكيم ، الذى هو فى قمة الفصاحة ، وذروة البلاغة ، وتحداهم أن يأتوا بمثل أقل سورة منه فعجزوا وانقطعوا ، وراحوا يهذون ويقولون عنه : هذا سحر مبين ، هذا أساطير الأولين ، لكن الله ـ تبارك وتعالى ـ رَد عليهم كل الأقوال بقوله مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (١)

وقد شرع سبحانه وتعالى فى هذا القرآن العظيم القوانين والأحكام ، التى يجب على كل مسلم ومسلمة مراعاتها والالتزام بها ، كما شرع فيه النواهى التي يجب عليهم تركها واجتنابها .

وبتلك القوانين والأحكام ، والأوامر والنواهى ، كان القرآن ، ولم يزل ، دستوراً لحياة الإنسان ، تنتظم به شئونه الاجتماعية والقضائية ، كما تنتظم به العلاقات التي بين أفراد الأسرة ، من آداب وسلوك وأخلاق ، والعلاقات التي بين الأفراد والمجتمعات في الأمة الواحدة ، وبين الأمم المختلفة في سلمها وحربها .

وبتلك القوانين والأحكام ، والأوامر والنواهي أرسى القرآن العظيم قواعد العدالة والمساواة بين الناس ، وقضى على العقائد الزائفة ، والأخلاق الفاسدة ، التي كانت تسود المجتمع العربى في الجاهلية .

أسأل الله العلى الكبير أن يرزقنا التدبُّر في كتابه ، والعمل بما فيه .

---

١ ـ سورة الفرقان : ٦ .

وبعد ، فهذا البحث الذي أقدمه عن " المجتمع الإسلامى كما تصوره سورة المائدة ، هو دراسة بذلت فيها أقصى الجهد ، أملاً في ثواب الله تعالى ، وتطلعاً إلى مرضاته وبيان الأحكام والنظم التي شملتها هذه السورة الكريمة لتنظيم المجتمع الإسلامى .

وإنى أرى من الواجب علىّ – في هذه المقدمة – بيان اختيار هذا الموضوع على النحو التالى :

أولاً : بيان مدى التزام الناس ، في الواقع الإسلامى بهذه القضايا .

ثانياً : تفصيل القضايا التى تتناول تقويم المجتمع الإسلامى وتوجيهه إلى الأكمل والأفضل ، والتى منها :

أ – الوفاء بالعهود .

ب – التحذير من أعداء الإسلام .

جـ – وجوب الحكم بما أنزل الله .

د – من له حق الولاية على المسلمين .

ثالثاً : الإسهام في شرف خدمة جانب مما اشتمل عليه كتاب الله عزوجل .

خطة الدراسة :

موضوع هذه الرسالة هو " **المجتمع الإسلامي كما تصوره سورة المائدة** " .

أما **خطتها** فهى : **مقدمة ، وتمهيد ، وخمسة أبواب ، وخاتمة** .

أما **المقدمة** :

فقد خصصتها لبيان جوانب من عظمة القرآن العظيم ، والأهداف التي رجوتها من وراء هذه الدراسة .

وأما **التمهيد** :

فقد تناولت فيه الأمور التالية :

أولاً : وجه التسمية بسورة المائدة .

ثانياً : المناسبة بينها وبين السورة السابقة " النساء" .

ثالثاً : بيان أن هذه السورة من آخر سور القرآن الكريم نزولاً .

رابعاً : المقاصد التي اشتملت عليها السورة .

وأما **الباب الأول** : فعنوانه : " من أسباب استقرار المجتمع الإسلامي " .

وقد قسمته إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : الوفاء بالعهود .

الفصل الثاني : التعاون على البر والتقوى دون الإثم والعدوان .

الفصل الثالث : كمال الدين الإسلامي وما يستوجب ذلك .

الفصل الرابع : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأما **الباب الثاني** :فعنوانه" السمع والطاعة والحذر من أهل الكتاب " .

وقد قسمته إلى ثلاثة فصول :

الفصـل الأول :طاعة الله وطاعة رسوله واجبة الاتباع .

الفصل الثانى :طاعة أولى الأمر واجبة فى غير معصية .

الفصل الثالث :الحذر من غدر اليهود والنصارى وبيان صور من ذلك.

وأما **الباب الثالث** : فعنوانه " **الحكم بما أنزل الله** " .

وقسمته إلى : تمهيد ، وفصلين ، والتمهيد وفيه :

الأول : مصادر التشريع الإسلامى .

الثاني : الفرق بين الأحكام التشريعية والقوانين الوضعية .

الفصل الأول : وجوب الحكم بما أنزل الله .

الفـصل الثـانى : الحكم بما أنزل الله مـقـرر فى شـريعـتى مـوسى وعيسى عليهما السلام .

وأما **الباب الرابع** : فعنوانه " **من له حق الولاية** " .

وقسمته إلى فصلين هما :

الفصل الأول : الله ورسوله والمؤمنون هم الأولياء .

الفصل الثانى : ما يترتب على ولاية أعداء الإسلام من آثار سيئة .

وأما **الباب الخامس** : " **الأحكام الفقهية في سورة المائدة** " .

فقد تحدثت فيه عن ست **عشرة** مبحث :

المبحث الأول ،وفيه :

١ ـ تحليل بهيمة الأنعام .

٢ ـ استثناء ما استثنى من الحل .

المبحث الثاني ، وفيه :

١ ـ النهى عن تحليل شعائر الله تعالى .

٢ ـ تحريم القتال فى الشهر الحرام .

٣ ـ الهدى والقلائد .

٤ ـ تحريم صد القاصدين بيت الله الحرام .

٥ ـ إباحة الصيد بعد التحلّل من الإحرام .

٦ ـ حرمة العدوان على الآخرين .

المبحث الثالث ، وفيه :

١ ـ تحريم الميتة .

٢ ـ تحريم الدم .

٣ ـ تحريم لحم الخنزير .

٤ ـ تحريم ما أهل لغير الله به .

٥ ـ تحريم المنخنقة .

٦ ـ تحريم الموقوذة .

٧ ـ تحريم المتردية .

٨ ـ تحريم النطيحة .

٩ ـ تحريم ما أكل السبع إلا ما أدرك ذكاته .

١٠ ـ تحريم ما ذبح على النصب .

١١ ـ تحريم الاستقسام بالأزلام .

١٢ ـ حكم المضطر إلى أكل الميتة .

المبحث الرابع ، وفيه :

١ ـ معنى الطيبات .

٢ ـ تعليم الجوارح .

٣ ـ حكم الأكل مما أمسكت الجوارح .

٤ ـ وجوب ذكر اسم الله عند إرسال الجوارح .

المبحث الخامس ، وفيه :

١ ـ حكم طعام أهل الكتاب .

٢ ـ حكم التزوج من المحصنات من أهل الكتاب ، وشرط إعطاء المهر .

المبحث السادس ، وفيه :

١ ـ معنى القيام إلى الصلاة .

٢ ـ فرائض الوضوء .

٣ ـ وجوب الغسل .

٤ ـ حكم المسح على الخفين .

٥ ـ وجوب التيمم عند عدم وجود الماء .

وحكم المريض والمسافر فى التيمم .

٦ ـ معنى ملامسة النساء .

٧ ـ المراد بالصعيد الطيب .

المبحث السابع ، وفيه :

١ ـ من هو المحارب ؟ .

٢ ـ حكمه .

٣ ـ هل قتال المحارب كفارة له أو لا ؟ .

٤ ـ حكم من تاب من المحاربين .

المبحث الثامن ، وفيه :

١ ـ متى تقطع اليد فى السرقة ؟ .

٢ ـ هل يكون غرم مع القطع أو لا ؟ .

٣ ـ معنى القطع ، والموضع الذى تقطع فيه اليد .

٤ ـ حكم من تاب من السرقه وأصلح .

المبحث التاسع ، وفيه :

١ ـ النفس بالنفس .

٢ ـ والعين بالعين .

٣ ـ والأنف بالأنف .

٤ ـ والأذن بالأذن .

٥ ـ والسن بالسن .

٦ ـ حكم الجروح .

المبحث العاشر ، وفيه :

١ ـ معنى الردة .

٢ ـ حكم الردة .

٣ ـ حكم من تاب من المرتدين .

المبحث الحادي عشر، وفيه :

١ ـ معنى اليمين .

٢ ـ معنى اللغو في اليمين وحكمه .

٣ ـ كفارة اليمين .

المبحث الثاني عشر، وفيه :

١ ـ تعريف الخمر .

٢ ـ حكم شارب الخمر .

٣ ـ تعريف الميسر .

٤ ـ تعريف الأنصاب .

٥ ـ تعريف الأزلام .

٦ ـ حكم الميسر، والأنصاب، والأزلام .

المبحث الثالث عشر، وفيه :

١ ـ حرمة الصيد حال الإحرام .

٢ ـ جزاء من قتل الصيد وهو محرم .

٣ ـ كفارة من قتل الصيد وهو محرم .

المبحث الرابع عشر، وفيه :

١ ـ المقصود بالبحر .

٢ ـ المراد بصيد البحر عموماً .

٣ ـ المراد بطعام البحر .

٤ ـ المقصود بالسيارة .

٥ ـ حكم صيد البحر للمحرم وغيره .

المبحث الخامس عشر ، وفيه :

١ ـ معنى البحيرة .

٢ ـ معنى السائبة .

٣ ـ معنى الوصيلة .

٤ ـ معنى الحامى .

٥ ـ حكم البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامى .

المبحث السادس عشر ، وفيه :

١ ـ شهادة غير المسلمين من اليهود والنصارى ، وهل تقبل أو لا تقبل ؟ .

وقد تضمنت هذه الدراسة ما يلى :

١ ـ الآيات الكريمة التى عالجت هذه الأبواب والفصول من سورة المائدة ، ومن غيرها من سور القرآن الكريم .

وعزوت الآيات إلى السور القرآنية ، مع بيان رقم كل آية .

٢ ـ الأحاديث النبوية التى لابد منها لتوضيح المراد من كلام الله ، رب العالمين ، وتخريج هذه الأحاديث من مصادرها ، وبيان درجة كل منها حديثاً حديثاً .

٣ ـ كما تضمنت تحليلاً للنصوص ، وأسباب نزول الآيات ، وآراء العلماء فيها والترجيح بينها .

٤ ـ وضعت فى الاعتبار المجتمع الإسلامى كما تصوره السورة الكريمة ، ونبهت على ذلك فى نهاية كل فصل من فصول الرسالة .

٥ ـ أضفت لهذه الدراسة تراجم الأعلام ، وأثبتها فى نهاية الرسالة بعد الخاتمة .

٦ ـ اعتمدت على المصادر والمراجع العلمية المعتمدة ، مع بيان الجزء والصفحة .

٧ ـ تناولت الأحكام فى السورة الكريمة بشىء من التفصيل مع ترجيح ما يراه العلماء راجحاً بالدليل ، وذلك لضرورة هذه الأحكام فى إصلاح المجتمع المسلم .

٨ ـ فسرت الكلمات الغريبة من كتب الغريب والمعاجم المعتمدة .

٩ ـ أما النصوص التى تصرفت فيها فقد أثبت مصادرها بالهامش ، يسبقها كلمة " **انظر** " أو أقول بعد ذكر المصدر: " **بتصرف** " أو " **بتصرف واختصار** ".

١٠ـ وإذا رجعت فى المسألة لأكثر من مرجع أثبت المراجع التى رجعت إليها ، مع ذكر الجزء والصفحة .

وأما **الخاتمة** : فقد ضمنتها **خلاصة** مركزة للبحث ، **والنتائج** التى أمكن التوصل إليها .

وقد ذيلت البحث **بالفهارس** التفصيلية المتنوعة اللازمة له .

التمهيد

التمهيد

سورة " المائدة " من السور المدنية ، وآياتها مائة وعشرون آية . أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديبية ، فى السنة السادسة من الهجرة.<١>

وسوف أتحدث ـ **إن شاء الله تعالى** ـ فى هذا التمهيد عن :

أ ـ سر التسمية بسورة المائدة .

ب ـ المناسبة بينها وبين السورة السابقة " النساء " .

جـ ـ بيان أن هذه السورة من أواخر سور القرآن نزولاً .

د ـ المقاصد التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة .

أولاً : السر فى تسمية سورة " المائدة " بهذا الاسم :

تسمية سور القرآن الكريم توقيفى من النبى صلى الله عليه وسلم من الأحاديث والآثار .

والسورة قرآن ، وتشمل على آى ذى فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات وهى المسماة باسم خاص بتوقيف منه صلى الله عليه وسلم <٢> .

وسورة المائدة سميت بهذا الاسم في كتب التفسير وكتب السنة ، لأن فيها قصة المائدة التى سألها الحواريون عيسى عليه السلام .

وذلك فى قوله : إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ <٣>

وتسمى ايضاً بالعقود ، والمنقذة ، لأنها تنقذ صاحبها من ملائكة العذاب <٤> .

---

١ ـ تاريخ الطبرى : ٨٦/٢ " طبعة بيروت " .

٢ ـ انظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطى : ٦٩/١ دار المعرفة بيروت ـ لبنان .

٣ ـ سورة المائدة : ١١٢ ـ ١١٥ .

٤ ـ روح المعانى للآلوسى : ٤٧/٧ ، والاتقان في علوم القرآن للسيوطى ٧١/١ .

ثانياً :المناسبة بين سورة المائدة والسورة السابقة وهى سورة النساء :

تعد سورة " النساء" من أطول السور المدنية فى القرآن ـ بعد سورة البقرة ـ <١> . واسمها توقيفى من النبى صلى الله عليه وسلم بالأحاديث والآثار <٢> .

ووجه تسميتها بسورة النساء ، أنها افتتحت بأحكام صلة الرحم ، ثم بأحكام تخص النساء ، وأن فيها أحكاماً كثيرة من أحكام النساء ، كما أنها ختمت بأحكام تخصهن أيضا <٣> .

وقد اشتملت على أغراض كثيرة ، أكثرها تشريع معاملات الأقرباء وحقوقهم ، فكانت فاتحتها مناسبة لذلك ، بالتذكير بنعمة خلق الله ، وأنهم جديرون بأن يشكروا ربهم على ذلك ، وأن يرعوا حقوق النوع الذى خلقوا منه ، بأن يصلوا أرحامهم القريبة والبعيدة ، بالرفق بالضعفاء واليتامى ، وأن يراعوا حقوق النساء من نوعهم ، بإقامة العدل فى معاملاتهن ، وفيها الإشارة إلى عقود النكاح والصداق ، وقوانين المعاملة مع النساء فى حالتى الاستقامة والانحراف من كلا الزوجين ، ومعاشرتهن بالمعروف وبيان ما يحلّ الزواج منهنّ ، والمحرمات بالقرابة أو الصهر ، وأحكام الجوارى بملك اليمين ، وكذلك حقوق مصير المال إلى القرابة وتقسيم ذلك ، وحقوق حفظ اليتامى والوصاية عليهم .

ثم أحكام المعاملات بين جماعة المسلمين فى الأموال والدماء ، وأحكام القتل عمداً وخطأ ، وتأصيل الحكم الشرعى بين المسلمين فى الحقوق ، والدفاع عن المعتدى عليه ، والأمر بإقامة العدل بدون مصانعة ، والتحذير من اتباع

---

١ ـ فى ظلال القرآن/ سيد قطب / ١/٥٥٥ / دار الشروق / الطبعة الشرعية الثامنة / ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩م .

٢ ـ الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٦٩ .

٣ ـ تفسير التحرير والتنوير / الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : ٣/٢١١ / الدار التونسية للنشر / تونس ١٩٨٤م .

الهوى ، والأمر بالبر والمواساة ، وأداء الأمانات ، والتمهيد لتحريم شرب الخمر ، وطائفة من أحكام الصلاة ، والطهارة ، وصلاة الخوف .

ثم تحدثت السورة الكريمة عن أحوال اليهود لكثرتهم بالمدينة ، وأحوال المنافقين وفضائحهم ، وأحكام الجهاد لكسر شوكة المشركين ، وأحكام معاملة المشركين وبيان مساوئهم ، ووجوب هجرة المؤمنين من مكة ، وإبطال مآثر الجاهلية .

وقد تخللّ ذلك كله مواعظ ، وترغيب ، ونهى عن الحسد ، وعن تمنى ما للغير من المزايا التى حرم منها ما حُرم بحكم الشرع ، أو بحكم الفطرة ، والترغيب فى التوسط بالخير والإصلاح بين الزوجين عند حدوث شقاق بينهما ، وبث المحبة بين المسلمين .

وختمت ببيان سعة علم الله الشامل الكامل <١> .

---

١ ــ انظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢١٣/٤ ، ٢١٤ .

أما سورة المائدة فقد تناولت ما يلي :

١ ـ العقيدة الإسلامية .

٢ ـ جوانب من التشريعات والأحكام .

٣ ـ بعض القصص .

أما جانب العقيدة :

فالسورة الكريمة تؤكد كل ما يتعلق بها ، وهو أن الله سبحانة وتعالى هو الإله الحق الواحد المعبود دون سواه ، وهو الخالق المالك المتصرف ، لا شريك له ، وهو المهيمن فى تقرير المنهج الذى يرتضيه لملكه وخلقه ، وهو المشرّع فيما يملك ، وهو الذى يجب أن يطاع فيما يشرع ويأمر ، وعلى الجميع طاعته والالتزام بأوامره ، واجتناب نواهيه ، وعليهم اتباع ما شرع لهم ، وما ارتضاه من الدين ، وعليهم الإقرار به ، والإيمان بما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، والالتزام بما جاء به من الحكم بما أنزل الله عز وجل ، لأن الحكم بما شرع الله تعالى هو الدين الذى جاء به جميع الرسل والأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، ويؤكد قوله عز وجل :

شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ
يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١)

---

١ ـ سورة الشورى : ١٣ .

وقوله تعالى :

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ‹١›

وأما جوانب الأحكام والتشريعات :

فإن السورة الكريمة تناولت أحكام العهود ، وقد افتتحت بالأمر بالوفاء بالعقود ، حيث يقول عز وجل :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ‹٢›

ثم بينت المواثيق التى أخذت على بنى إسرائيل ، وكيف كان نقضهم إياها كما يشير إليه قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ
إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ
وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا
نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً
يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا
ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾
وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ
فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ‹٣›

---

١ ـ سورة الجاثية : ١٨ .

٢ ـ سورة المائدة : ١ .

٣ ـ سورة المائدة : ١٢ ـ ١٤ .

وفسر الطبرى الآية بقوله : « إنما كان الله تعالى أمر موسى عليه السلام ببعثة النقباء الأثنى عشر من قومه من بنى إسرائيل إلى أرض الجبابرة بالشام ليتحسوا له أخبار إذا ارادا هلاكم، وأن يورث أرضهم لموسى عليه السلام وقومه ، ويجعلها مساكن لهم ، بعد ما انجاهم من فرعون وقومه ، واخرجهم من مصر ، فبعث موسى عليه السلام الذين أمره الله تعالى ببعثهم إليها من النقباء » ‹١› .

وقال سبحانه لهم إنى كتبتها لكم داراً فاخرجوا إليها ، وجاهدوا فيها ، فإنى ناصركم ، ثم أمر الله تعالى موسى عليه السلام ، أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم بالوفاء فيما امروا به ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق ، وسار بهم ، فلما دنوا من أرض الجبابرة بعث النقباء ليتعرفوا له أخبارهم ، ونهاهم أن يحدثوا قومهم بما يشاهدون ، لكنهم رأوهم قوماً أشداء ، ثم رجعوا وحدثوا قومهم بما شاهدوه من قوتهم وبطشهم .

وعند ذلك قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام ‹٢› كما اخبر القرآن الكريم :

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ‹٣›

وتفسر الآية السابقة من قوله : وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ‹٤›

---

١ ـ جامع البيان للطبرى : ١٠/١١٠ ـ ١١١ « المحقق » .

٢ ـ روح المعانى للآلوسى : ٦ / ٨٦ .

٣ ـ سورة المائدة : ٢٤ .

٤ ـ سورة المائدة : ١٢ .

أى أخبرهم جل شأنه على لسان موسى عليه السلام إنه ناصرهم على عدوه وعدوهم ، إن قاتلوهم ، وأمرهم بالوفاء بالعهود والمواثيق .

وأقسم لهم سبحانه وتعالي لئن أقاموا الصلاة بشروطها وواجباتها ، واعطوا ما امرهم به من الزكاة من اموالهم ، وصدقوا بكل ما أمرهم به رسل الله عليهم السلام من شرائع الله ، ونصروهم واطاعوهم بما أمروهم به ، وانفقوا في سبيل الله من أموالهم المشروعة في مجاهدة اعداء الله واعدائهم .

وأن اصابوا الحق في انفاقهم في سبيل الله ، ولم يعتدوا فيه على حدود الله وساروا بما ندبهم إليه ، وحثهم عليه ليمحوا ذنوبهم ويسترها ، ولا يأخذهم بها ، ويدفعم عنهم المحذور ، ويحصل لهم المقصود ، ويدخلهم البساتين التى تجرى من بينها الأنهار في جنات النعيم يوم القيامة .

وقوله : (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) أى فمن جحد منكم يامعشر بنى إسرائيل شيئاً مما أمرتكم به ، وتركه أو ارتكب ما نهيتكم عنه ، بعد أخذ الميثاق عليه بالوفاء به فقد بعد عن الطريق المستقيم .

وقوله : (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به) أى بسبب نقضهم الميثاق الذى واثقوا به ونكثوا العهود ، وكذبوا الرسل الذين جاءوا بعد موسى عليه السلام ، وقتلوا الانبياء الذين ارسلوا إليهم ، ونبذوا كتاب الله وضيعوا فرائضه ، جعل الله قلوبهم يابسة غليظه لا تقبل الحق ولا تلين له ، يحرفون كلام ربهم الذى أنزل على نبيهم موسى عليه السلام ، في التوراة ، ويبدلونه ، ويغيرونه وتركوا نصيب أنفسهم من التوراه وما أمروا به فيها من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان صفاته .

وقوله : (ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين) أى لا تزال يا محمد تطلع من اليهود على الخيانة والغدر ونقض العهود والمواثيق ، وأمر الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالعفو عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا ايديهم إليه بالقتل ، ويصفح عن جرمهم ويترك التعرض لمكرهم . (١)

---

١ ـ جامع البيان : ١٠/١٣٤ باختصار .

وعلى هذا أنه عليه الصلاة والسلام لم يومر يومئذٍ بقتالهم ، ثم أمره تعالى بقتالهم بقوله :

قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ‹١›

وقوله : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) .

يبين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قبائح النصارى وجناياتهم أثر بيان قبائح اليهود وخيانتهم ونقضهم العهود والمواثيق .

وعقب أخذ الميثاق على النصارى من الإيمان بالله ، ومتابعه رسوله المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام ، وادعائهم أنهم متابعون له عليه السلام ولكنهم ليسوا كذلك ، وأخذ الله تعالى عليهم العهود والمواثيق على متابعة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ومناصرته ، واقتفاء آثاره ، لكنهم خالفوه ونقضوا المواثيق والعهود .

ولهذا قال عنهم (فنسوا حظاً مما ذكروا به) أى تركوا ما كتب عليهم في الانجيل من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واتبعوا أهواءهم فاختلفوا وتفرقوا ، ولا يزالون متعادين يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ولا يزالون على ذلك إلى يوم القيامة .

وقوله (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) وفى هذا تهديد ووعيد للنصارى على ما ارتكبوا من الكذب على الله وعلى رسله ، وما نسبوا إلى الرب من الصاحبة والولد ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . ‹٢›

---

١ ـ سورة التوبه : ٢٩ .

٢ ـ انظر : ابن كثير : ٢ / ٥٣٧ ، وتفسير ابى السعود ٣ / ١٧ .

ومن الأحكام التي ذكرتها السورة :

الذبائح والصيد ، وقتل الصيد فى حال الإحرام ، والحلال والحرام من الأطعمة ، والطهارة (من **غسل ، ووضوء ، وتيمم**) والتحذير من قتل النفس التى حرم اللَّه قتلها ، وحد الحرابة ، وحد السرقة ، والحكم بما أنزلَ اللَّهُ تعالى ، وبيان أن من لم يحكم بما أنزلَ اللَّهُ فهو كافر ، وفاسق ، وظالم . وكفارة اليمين ، وتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، وغير ذلك من الأحكام والتشريعات ، التى هى من أسباب سعادة المجتمع الإسلامى وتماسكه وقوته .

وأما القصص فى هذه السورة الكريمة :

ففيها ثلاث قصص :

الأولى : قصة تمرد بنى إسرائيل على موسى عليه السلام حين أمرهم بدخول الأرض المقدسة على أهلها .

وملخص هذه القصة :

أن موسى عليه السلام لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة ، مستعدين لقتال من يقاتلهم من أهلها ، أَبَوْا وتمردوا ، واعتذروا بضعفهم وقوة أهل تلك البلاد ، وحاولوا الرجوع إلى مصر ، وقالوا لموسى عليه السلام :

إنا لن ندخل هذه الأرض مادام هؤلاء الجبارون فيها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون .

فقال لهما رجلان من الذين يخافون اللَّه عز وجل ، وهما يوشع بن نون وكالب بن يَفُنَّه ، وكانا من أهل المدينة ، أسلما واتبعا موسى وهارون عليهما السلام : ادخلوا على هؤلاء الجبارين باب المدينة ، لأنكم إذا دخلتموه أيدكم اللَّه بنصره ، وأنكم إذا دخلتم عليهم الباب غلبتموهم .

٢٠١٢

وعليكـم ان تعملوا قدر طاقتكم من طاعة ربكم ، ثم بعد ذلك كِلوا أمركم إليه ، وثقوا فيه فيما لا تستطيعونه .

ولكن **بنى إسرائيل** لم ينفعـهم موعظه الرجلين ، بل أصروا على التمرد والعصيان و العناد ، وأكدوا لموسى عليه السلام ، أنـهم لن يدخلوا تلك الأرض التى فيها الجبارون أبدا ماداموا فيها ، لأن دخولها يستلزم القتال والحرب ، وليسوا لذلك بمستطيعين ، وقالوا له : اذهب أنت يا موسى وليعنك ربك الذى أمرك بذلك فقاتلا الجبارين ، وإنا هـهنا قاعدون منتظرون .

وعندئذ حزن **موسى ، عليه السلام** ، أشد الحزن ، وبث شكواه إلى اللّه تعالى ، معتذراً إليه ، متنصّلا من فسق قومه ، قائلاً له : يارب ، إنى لا أملك أن أحمل أحداً على طاعتك ، لا أملك إلا أمر نفسى وأمر أخى ، ولا أقدر على أحد أن أحمله على ما أحب وأريد من طاعتك واتباع أمرك ونهيك ، فافصل بيننا وبين القوم الفاسقين بقضاء منك تقضيه فينا وفيهم فتبعدهم عنا .

فقال **اللّه عز وجل لموسى عليه السلام** مجيباً لدعائه :

إن الأرض المقدسة محرمة على بنى إسرائيل مدة أربعين سنة ، يسيرون فى بَرّيّة من الأرض تائهين متحيرين ضالين ، لا يدرون أين ينتهون فى سيرهم ويصبحون حيث أمسوا ، ويمسون حيث أصبحوا فى تيههم ، فلا تحزن عليهم لأنهم فاسقون مستحقون لهذا التأديب والتعذيب ‹١› .

أما الهدف من ذكر هذه القصة فهو تقريع اليهود ، وبيان فضائحهم ومخالفتهم للّه ولرسوله ، وخروجهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد .

---

١ ــ انظر : تفسير الطبرى " المحقق " : ١٠/ ١٧٦ ــ ٢٠٠ ، وتفسير المنار : ٦/ ٣٢٣ .

كما أن فيها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، ليعلم أن مكابرة الحق ، ومعاندة الرسل عليهم السلام ، خلق من أخلاق اليهود ورثوه عن أسلافهم <١> .

والثانية : قصة ابنى آدم عليه السلام ، وقد ذكرت اجمالاً وقائعها فى موضع آخر <٢> .

والحكمة فى إيراد هذه القصة أن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلوها على اليهود الذين هموا أن يبسطوا إليه وإلى أصحابه ، رضوان الله عليهم اجمعين ، أيديهم ، حتى يعرفوا عاقبة الظلم والمكر ، وسوء مغبة الجور ونقض العهد ، وجزاء الناكث للعهود والمواثيق ، وجزاء الموفى بها ، وما آل إليه أمر المطيع من ولدى آدم عليه السلام الوفى بعهده ، وما صار إليه أمر العاصى منهما ، الجائر الناقض لعهده ، حتى يعرف اليهود وخامة عاقبة غدرهم ، ونقضهم لميثاقهم الذى كان بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما هموا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك ، فإن لك يامحمد حسن الثواب وعظيم الجزاء على الوفاء بالعهد ، وفى ذلك عزاء جميل للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم <٣> .

---

١ ــ انظر : ابن كثير : ٢/ ٤٠ ، وتفسير المنار : ٦/ ٣٢٢ .

٢ ــ انظر : الباب الأول ــ الفصل الثانى : " التعاون عل البر والتقوى دون الأثم والعدوان " . ص ١١٧ .

٣ ــ انظر : تفسير الطبرى " المحقق " : ١٠/ ٢٠١ .

والثالثة : قصة المائدة ، وهى التى تنسب إليها السورة الكريمة .

وخلاصتها :

أن " الحواريين " أتباع عيسى عليه السلام قالوا له : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ‹١› ، سألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ، ويَتَقَوَّوْن بها على العبادة ، لأنهم كانوا فقراء ، فأجابهم عيسى عليه السلام قائلاً لهم : اتقوا الله ، ولا تسألوا هذا ، فربما كانت فتنة لكم ، وتوكلوا على الله عز وجل فى طلب الرزق إن كنتم مؤمنين . فقالوا له : إننا محتاجون إلى الأكل منها ، وكذلك حتى تطمئن قلوبنا إذا شاهدنا نزولها من السماء ، وحتى نزداد إيماناً بك ، وعلماً برسالتك ، ونشهد أنها آية من عند الله تعالى ، ودلالة على نبوتك وصدق ما جئت به .

فدعا عيسى عليه السلام ربه قائلاً :

ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ‹٢›

فأجاب الله تعالى عيسى عليه السلام إلى ما سأله ، من إنزال المائدة فقال عز وجل :

إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ‹٣›

---

١ ـ المراد بالمائدة هنا : الخوان ـ بضم الخاء وكسرها ـ الذى يؤكل عليه الطعام (القاموس ـ خون) .

٢ ـ سورة المائدة : ١١٤ .

٣ ـ سورة المائدة : ١١٥ .

أى فمن كذب بها من أمتك ياعيسى ، وجحد بها بعد إنزالها ، فإنى أعذبه عذاباً شديداً <١> .

وهذا وعد من اللّه تعالى محقق بإنزالها ، واللّه لا يخلف الميعاد . يقول ابن كثير رحمه اللّه :

" إن المائدة نزلت على بنى إسرائيل أيام عيسى بن مريم عليهما السلام ، إجابة من اللّه لدعوته ، كما دل على ذلك ظاهر السياق من القرآن العظيم <٢> (قال اللّه إنى منزلها عليكم) الآية .

ونزول المائدة مما امتنّ اللّه تعالى به على عبده ورسوله عيسى عليه السلام لما دعاه بإنزالها ، فأنزلها اللّه عز وجل آية باهرة ، وحجة قاطعة ، وهذا هو القول الصحيح الذى عليه جمهور العلماء .

ويجب العلم بأن سؤال الحواريين نزول المائدة ليس شكاً فى رسولهم ، ولا فى قدرة اللّه عز وجل ، ولكن إنما سألوها زيادة فى اطمئنان قلوبهم بالأيمان ، وذلك بأن ينتقلوا من الدليل العقلى إلى الدليل الحسى ، لأن النفوس بالمحسوس آنس .

وأما قول الحق ـ تبارك وتعالى :

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ <٣>

---

١ ـ انظر : تفسير الطبرى « المحقق » : ١١/٢١٨ ـ ٢٣٢ ، وابن كثير ٢ / ١١٦ ـ ١١٩ .

٢ ـ تفسير القرآن العظيم / الحافظ عماد الدين ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى / المتوفى ٧٧٤هـ / ٢ / ١١٩ / الطبعة الثالثة / مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

٣ ـ سورة المائدة : ١١٢ .

ففيه أمر بملازمة التقوى ، ومراقبة الله عز وجل فى السر والعلانية ، وعدم تزلزل الإيمان ، وكل ما فى الأمر أنهم تمنوا كرم الله وفضله بهذه المائدة ، والتشرف بأكل شىء من السماء ، كما قال تعالى حكاية عنهم :

قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ‹١›

وهناك رأى آخر ذكره **ابن كثير** ، وهو أن المائدة لم تنزل من السماء . ‹٢›

ولكن الذى عليه جماهير العلماء ، وهو الصحيح ، أنها نزلت فعلاً ، لأن الله تعالى قد وعد بذلك فى قوله (إنى منزلها عليكم) الآية ، وهو وعد محقق ، ولا يخلف الله وعده . ‹٣›

وتضمنت السورة ما أخبر الله به أنه سبحانه وتعالى يقول لعيسى عليه السلام فى ذلك اليوم العظيم ، وبحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ، وتهديداً للنصارى ، وتوبيخاً لهم على رءوس الأشهاد ، وتعظيماً لأمر هذه المقالة ، يقول تعالى له :

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ‹٤›

---

١ ـ سورة المائدة : ١١٣ .

٢ ـ انظر : ابن كثير : ١١٩/٢ ، وتحفه الأحوذى بشرح جامع الترمذى : ٤٣٤/٨ ، ٤٣٥ .

٣ ـ انظر : جامع البيان عن تأويل آى القرآن / لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى " المحقق " ٢٣١/١١ ـ ٢٣٤ ، وابن كثير : ٢ ـ ١١٩ ، وتفسير الخازن وبهامشه البغوى : ١١١/١ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٣٦٩/٦ ، وتحفه الأحوذى بشرح الترمذى : ٤٢٤/٨ .

٤ ـ سورة المائدة : ١١٦ ـ ١١٧ .

فيقول عيسى عليه السلام مجيباً لله عز وجل : " سُبْحَانَكَ " أى تنزيها لك وتعظيماً لحقك ، لا ينبغى ولا يليق بى أن قول قولاً لا يحق لى قوله أصلاً فى أى وقت من الأوقات .

وان كان صدر منى هذا فقد علمته يارب ، فإنه لا يخفى عليك شىء ، فما قلتُه ولا أردته فى نفسى ، ولا أضمرته ، فأنت تعلم سرى ، ولا أعلم سرك ، وتعلم ما كان منى ، ولا أعلم ما يكون منك . (إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ) .

فيثبت أنه عليه السلام لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله وحده دون سواه ، وأنه كان يدعوهم إلى عبادته عز وجل .

(وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّادُمْتُ فِيهِمْ) يقول : وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهداً عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم .

(فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أى فلما قبضتنى إليك كنت أنت الحفيظ عليهم دونى ، لأنى إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم ، (وَأَنْتَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أى : وأنت تشهد على كل شىء ، لأنه لا يخفى عليك شىء ، وأما أنا فإنما شهدت بعض الأشياء ، وذلك ما عاينت وأنا مقيم بين أظهر القوم ، فأنا أشهد على ذلك الذى عاينت ورأيت .

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ (١)

أى : وإن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة فإنك المالك المطلق لهم ، ولا يعترض على المالك المطلق فيما يفعله بملكه ، ولأنهم مستسلمون لك ، لا يمتنعــون مما أردت بهم ، ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً ولا نفعاً تنالهم به ، وإن تغفر لهم ما كان منهم بهدايتك إياهم إلى التوبة منها ، فتستر عليهم (فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

---

١ ـ سورة المائدة : ١١٨ .

أى فإنك أنت القوى القادر على الانتقام ممن أردت الانتقام منه ، ولا يقدر أحد أن يدفعه عنه ، " الْحَكِيمُ " فى هدايته مَنْ هدى من خلقه إلى التوبة ، وتوفيقه من وفق منهم لسبيل النجاة من العقاب <١> .

وبعد أن سردت أهم ما اشتملت عليه السورتان : النساء ، والمائدة ، أذكر هنا ما قاله المفسرون في المناسبة بينهما : يذكر البِقَاعى (٨٨٥هـ) : أن الحق سبحانه وتعالى ذكر في سورة " النساء " أن اليهود نقضوا المواثيق التى أخذها عليهم ، وأنه حرم عليهم الطيبات التى أحلت لهم ، والمشار إليها بقوله عز وجل :

فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ
وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا <٢>

فناسب افتتاح سورة " المائدة " بأمر المؤمنين بالوفاء بالعقود ، وهي العهود الموثقة ، التي تعم جميع أحكامه ، جل جلاله ، فيما أمر ونهى<٣> حيث قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ <٤>

ويذكر جلال الدين السيوطى (٨٤٩ ــ ٩١١هـ) أن وجه مناسبتها لسورة النساء « أن سورة النساء قد اشتملت على عدة عقود صريحاً وضمنا ، فالصريح عقود الأنكحة ، وعقد الصداق ، وعقد الحلف ، وعقد المعاهدة والأمان ، والضمنى عقد الوصية ، والوديعة ، والوكالة ، والعارية ، والإجارة ، وغير ذلك ، الداخل في عموم » قوله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا <٥>

---

١ ــ انظر : تفسير الطبرى " المحقق " : ١٠/٢٢٣ ــ ٢٤١ ، وابن كثير : ٢/١٢٠ ، ومعالم التنزيل للبغوى : ٢/٨٠ ــ ٨٢ ، وروح المعانى للألوسى ٧/٦٤ ــ ٧١ .

٢ ــ سورة النساء : ١٦٠ .

٣ ــ انظر : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى : ٦/٢ ، ٣ .

٤ ــ سورة المائدة : ١ .

٥ ــ سورة النساء : ٥٨ .

« فناسب أن تعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود ، فكأنه قيل : ياأيها الناس أوفوا بالعقود التي فرغ من ذكرها في السورة التي تمت ، وإن كان في هذه السورة أيضاً عقود"، ووَجَّه أيضاً "تقديم النساء وتأخير المائدة بأن أول تلك (يَاأَيُّهاَ النَّاسُ) وفيها الخطاب بذلك في مواضع ، وهو أشبه بتنزيل المكى وأول هذه السورة " المائدة " (يَاأَيُّهاَ الَّذِينَ آمَنواُ) ، وفيها الخطاب بذلك في مواضع ، وهو أشبه بخطاب المدنى » .

« ثم إن هاتين السورتين في التلازم والاتحاد نظير البقرة وآل عمران فتلكما اتحدتا في تقرير الأصول ، من الوحدانية والنبوة ونحوهما ، وهاتان في تقرير الفروع الحكمية » .

وقد ختمت " المائدة " في صفة القدرة ، كما افتتحت النساء بذلك ، وافتتحت النساء ببدء الخلق ، وختمت المائدة بالمنتهى من المبعث والجزاء ، فكأنهما سورة واحدة ، اشتملت على الأحكام من المبدأ إلى المنتهى " ‹١›

أما **الإمام الصاوى** (ت ١٣٤١هـ) فقد ذكر وجه المناسبة بين السورتين بقوله :"حيث وعدنا الله سبحانه وتعالى بالبيان ‹٢› ، كراهية وقوع الضلالة منا ، تَمَّم ذلك الوعد بذكر هذه السورة الكريمة " المائدة " فإن فيها أحكاماً كثيرة لم تكن في غيرها ". ‹٣›

أما الشيخ رشيد رضا ، رحمه الله ، فقد قال في التناسب بين السورتين ، نقلاً عن الكواشى : " إنه لما ختم سورة النساء آمراً بالتوحيد والعدل بين العباد أكَّد ذلك بالأمر بالوفاء بالعقود "

---

١ ـ تناسق الدرر في تناسب السور/ جلال الدين السيوطى تحقيق / عبد الله محمد الدرويش : ٦١ / ٦٣/ عالم الكتب ، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م .

٢ ـ يعنى بذلك قوله تعالى فى سورة النساء (يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم) " النساء " ١٧٦ .

٣ ـ حاشية الصاوى على الجلالين ١/٢٦٣ / مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى ـ القاهرة .

ثم قال : " وأتى معظم سورة المائدة في محاجة اليهود والنصارى مع شيء من ذكر المنافقين والمشركين ، وهو ما تكرر في سورة النساء وأطيل به في آخرها ، فهو أقوى المناسبات بين السورتين ، وأظهر وجوه الاتصال ، كأن ما جاء في هذه السورة متمم ومكمل لما جاء فيما قبلها .

وفي كل من السورتين طائفة من الأحكام العملية في العبادات والحلال والحرام ...

ومن المشترك فيها في السورتين آيتا التيمم والوضوء ، وحكم حل المحصنات من المؤمنات ، وزاد في المائدة حل المحصنات من أهل الكتاب ، فكان متمماً لأحكام النكاح في النساء .

ومن المشترك الوصايا العامة ، والأمر بالقيام بالقسط ، والشهادة بالعدل من غير محاباة لأحد ، وكذا الوصية بالتقوى .

ومن لطائف التناسب فيهما أن سورة النساء مهدت السبيل لتحريم الخمر ، وسورة المائدة حرمتها ألبتة ، فكانت متممة لشيء فيما قبلها .

وانفردت سورة المائدة بأحكام في الحلال والحرام ، وحكم البغاة المفسدين ، وحد السارق ، وكفارة اليمين ، وأمثال هذه الأحكام من كماليات الشريعة المؤذنة بتمامها ، كما انفردت النساء بأحكامهن وأحكام الإرث ، والقتال ، وهي مما كان يحتاج إليه عند نزولها . ‹١›

ومن هذه الأقوال التي نقلتها عن طائفة من المفسرين قديما وحديثا تبيّن لنا أن ثمة علاقة وثيقة بين سورتي النساء والمائدة ، وتشابها في كثير من الأحكام الشرعية .

---

١ ـ انظر: تفسير القرآن الحكيم/ الشهير بتفسير المنار : ١١٦/٦ ، ١١٧/ دار المعرفة " بيروت ـ لبنان " .
وتفسير المراغي : ٤١/٦ / الطبعة الثالثة / دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١٠٢٤/٨ ، ودراسات في التفسير الموضوعي للقرآن / ٤ زاهر الألمعي .

ثالثاً : بيان أن سورة المائدة من أواخر سور القرآن نزولاً :

والآخرية مقيدة لأن ما نزل في المائدة من الحلال والحرام ولم ينسخ منها شيء وأنزلت سورة " المائدة " على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية ، في السنة السادسة من الهجرة ، وهي من أواخر السور التي نزلت ، ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم بسنده : عن جُبَيْر بن نُفَيْر قال : " حججت فدخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت لي : ياجبير ، تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم ، قالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم من حرام فحرموه " . ‹١›

كما أخرج بسنده أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو " أن آخر سورة نزلت سورة المائدة " . ‹٢›

وسورة المائدة أجمع سورة في القرآن الكريم لفروع الشرائع من التحليل والتحريم والأمر والنهى . ‹٣›

فكانت بمنزلة البشارة العظيمة ، وبمنزلة البيان والتعليل ليأس المشركين وخذلانهم ، وانتصار الإسلام والمسلمين ، ويقول عز وجل :

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ‹٤›

---

١ ـ المستدرك على الصحيحن : ٣١١/٢ ، كتاب التفسير وقال : " حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " ووافقه الذهبى .

٢ ـ المستدرك على الصحيحين : ٣١١/٢ ، كتاب التفسير ، وقال " حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " .

٣ ـ مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية : ١٤ / ٤٤٨ .

٤ ـ سورة المائدة : ٣ .

وقد يئس المشركون أن يرجعوا المسلمين عن دينهم كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم بسنده ، عن جابر قال : " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم " . (١) ، (٢)

فالحق سبحانه وتعالى أمر عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ، وأن لا يخافوا أحدا إلا الله تعالى ، فقال عزوجل : (فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ) أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم ، واخشوني أنصركم عليهم ، وأبدهم وأظفركم بهم ، وأشف صدوركم منهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة .

ثم ذكرهم سبحانه وتعالى بأعظم وأكبر نعمة على الأمة الإسلامية ، حيث إنه تعالى أكمل لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى غير نبيهم عليه الصلاة والسلام ، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعثه إلى الإنس والجن كافة وعامة ، بشيراً ونذيراً ، فلا حلال إلا ما أحلّه ، ولا حرام إلا ما حرّمه ، ولا دين إلا ما شرعه ، وكل شيء أخبربه فهو حق وصدق ، ولا كذب فيه ولا خلف ، كما قال تعالى :

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣)

---

١ ـ قوله " ولكن في التحريش بينهم " أي لكنه في التحريش بينهم بالخصومة والشحناء والحروب والفتن ونحوها / انظر : شرح النووي على صحيح مسلم : ١٥٦/١٧ .

٢ ـ صحيح مسلم : ٢١٦٦/٤ / كتاب صفة المنافقين وأحكامهم / باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وكل إنسان له قرين .

٣ ـ سورة الأنعام : ١١٥ .

أى صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي ، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة . <١>

قال سيد قطب :

" استقرّ هذا الدين بكل جزئياته الاعتقادية ، والتعبدية ، والتشريعية ، فلا تعديل فيها ، ولا تغيير ، فقد أكمل هذا الدين ، وتم وانتهى أمره " . <٢>

رابعاً :المقاصد التي اشتملت عليها سورة المائدة :

سورة " المائدة " سورة مدنية ، وتتعاون آياتها الكريمة على تحقيق الهدف الذي جاء القرآن العظيم لتحقيقه ، وهو إنشاء أمة ، وإقامة دولة ، وتنظيم مجتمع ، على أساس من عقيدة وبناء جديد ، الأصل فيه إفراد اللّه سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية ، والقوامة والسلطان .

وفي هذه السورة تبدو بوضوح عقيدة التوحيد الخالصة من أساطير الوثنية ، وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم ، إلى جانب تبصير المسلمين بحقيقة ذاتهم ، وحقيقة دوْرهم ، إلى جانب أحكام الشعائر التعبّدية ، التي تطهّر روح المسلم ، وروح الجماعة المسلمة ، وتربطها بخالقها وموجدها ، إلى جانب التشريعات الاجتماعية ، التي تنظم روابط المجتمع المسلم ، والتشريعات الدولية التي تنظم علاقات المسلمين بغيرهم ، وغيرها من التشريعات التي تحلل وتحرم ألواناً من المآكل والمشارب والمناكح والأعمال وغيرها .

---

١ ـ انظر : تفسير ابن كثير : ١٢/٢ .

٢ ـ فى ظلال القرآن : ٨٣٢/٢ .

وتؤكد السورة أن هذا كله هو " الدين " والإقرار به كله هو " الإيمان " وأن الحكم به كله هو " الإسلام " وأن الذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى هم الكافرون ، وهم الظالمون ، وهم الفاسقون .

ولأن الله تعالى وحده هو الإله ، وهو وحده الخالق ، وهو وحده المالك ، فهو وحده الذى يشرّع ، وهو وحده الذى يحلل ويحرم ، وهو وحده الذى يجب أن يطاع فيما يشرع ، وفيما يحلل أو يحرم كما أنه هو وحده الذى يعبد دون سواه .

وقد أخذ الله تعالى الميثاق على عباده بهذا كله ، فهو يطالب الذين آمنوا أن يوفوا بميثاقهم وتعاقدهم معه ، ويحذرهم عواقب نقض الميثاق ، وخلف العقود ، كما وقع من بنى إسرائيل قبلهم .

ويتضمن سياق السورة أحكاماً شرعية منوعة ، منها ما يتعلق بالحلال والحرام من الذبائح ، ومن الصيد ، ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام في فترة الإحرام ، وفي المسجد الحرام ، ومنها مايتعلق بالحلال والحرام من النكاح ، ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة ، ومنها ما يتعلق بالقضاء وإقامة العدل فيه ، ومنها ما يتعلق بحد السرقة ، والخروج على الجماعة ، ومنها ما يتعلق بالخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، ومنها ما يتعلق بالكفارات في قتل الصيد مع الإحرام ، أو الأيمان ، ومنها ما يتعلق بالوصية عند الموت ، ومنها ما يتعلق بما حَرّمه أهل الجاهلية : من بحيرة ، وسائبة ، ووصيلة ، وحام ، ومنها ما يتعلق بعقوبة القصاص في التوراة ، مما جعله سبحانه وتعالى شريعة للمسلمين .

وإلى جانب هذه الأحكام الشرعية يجيء الأمر بطاعة الله تعالى ، والتقيد والالتزام بما شرعه وما أمر به والنهى عن التحريم والتحليل إلا بإذنه .

وتؤكد هذه السورة الكريمة أن القرآن العظيم هو كتاب الله الأخير للبشر ، وأنه مصدق لما بين يديه من الكتب في أصل الاعتقاد ، ولكنه – لكونه أخيراً – يهيمن على كل ما سبقه ، وإليه تنتهي شريعة الله التي ارتضاها لعباده إلى يوم الدين .

ومن ثَمّ فإن دَوْر هذه الأمة هو أن تكون الوصية على البشرية ، تقيم العدل في الأرض ، غيَر متأثرة بمودة أو كراهية ، وغير متأثرة بانحرافات الآخرين وشهواتهم .

ومن مقتضيات أن هذه الأمة الإسلامية هي وارثة الرسالات ، وصاحبة الرسالة الأخيرة ، والدين الأخير ، ألا تتولىً من يكفرون بهذا الدين ، ومن يتخذون فرائضه وشعائره هزواً ولعباً ، وإنما تتولى الله ورسوله والمؤمنين .

ولقد حَمل القرآن العظيم ، في هذه السورة الكريمة ، حملة قوية على أعداء الإسلام والمسلمين ، وفي مقدمتهم اليهود والمشركون والمنافقون .

وبهذه الحملة ، إلى جانب بناء العقيدة الصحيحة في نفوس المسلمين ، إلى جانب تنظيم المجتمع الإسلامي بالتوجيهات والتشريعات ، قام بناء الدولة الجديدة ، وكان أهم قواعد هذا البناء ما يلي :

* تخليص عقيدة التوحيد من كل شائبة .

* بيان معنى الدين ، وأنه منهج الحياة .

* لا حكم إلا بما أنزل الله وحده .

* التلقي في شئون الحياة كلها من الله وحده هو الإيمان ، وهو الإسلام .

ثم إن في السورة الكريمة حقيقة مهمة ، تتضمنها الآية الثالثة ، وهي قوله عز وجل :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ‹١›

فهذه الآية تقرر استقرار هذا الدين بكل جزئياته الاعتقادية ، والتعبدية ، والتشريعيـــة ، فلا تعديل فيها ولا تغيير ، لأن هذا الدين قد اكتمل وتَمَّ وانتهى أمره .

إن هذه الآية تقرر ، بما لا يدع مجالاً للجدال ، أنه دين خالد ، وشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، ولا يقبل غير هذا الدين ، مصداقاً لقوله :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ‹٢›

وبعد هذا العرض المجمل لمقاصد سورة " المائدة " ‹٣› أذكر بالتفصيل هذه المقاصد فيما يلي ، مستعينه بالله العلي القدير .

---

١ ـ سورة المائدة : ٣ .

٢ ـ سورة آل عمران : ٨٥ .

٣ ـ انظر : في ظلال القرآن : ٢/٨٢٥ ـ ٨٣٣ .

ويمكن أن نقسم هذه المقاصد إلى قسمين :

القسم الأول : مـــا هـــو من قبيل الأصول والقواعد الاعتقادية أو العملية ، ويشتمل على :

١ ـ بيان إكمال الله تعالى للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم بالقرآن الكريم ، وإتمام نعمته عليهم بالإسلام . ‹١›

٢ ـ النهى عن سؤال النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عن أشياء ، من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أبديت لهم ، لما فيها من زيادة التكاليف مثلاً . ‹٢›

٣ ـ بيان أن هذا الدين كامل مبنى على العلم اليقينى في الإعتقاد ، والهداية في الأخلاق والأعمال ، وأن التقليد باطل لا يقبله الله تعالى .‹٣›

٤ ـ بيان أن أصول الدين الإلهى ، على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم ، هى : الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، فمن أقامها كما أمرت بها الرسل ، من أية ملة من ملل الرسل ، كاليهود والنصاري والصابئين ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم في الآخرة ، ولا يحزنون . ‹٤›

٥ ـ وحدة الدين ، واختلاف شرائع الأنبياء ومناهجهم فيه . ‹٥›

---

١ ـ الآية : ٣ .

٢ ـ الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ .

٣ ـ الآية : ١٠٧ .

٤ ـ الآية : ٦٩ .

٥ ـ الآية : ٤٨ .

٦ - هيمنة القرآن العظيم على الكتب الإلهية . ‹١›

٧ - بيان عموم بعثة النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ، وأمره بالتبليغ العام ، وكونه لا يكلف من حيث كونه رسولاً إلا بالتبليغ . ‹٢›

٨ - تقرير عصمة الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم من أن يضره الناس ، أو يقدروا على صده عن تبليغ رسالة ربه ، وأن هذا من دلائل نبوته أيضاً ، فكم حاول الكفار قتله فأعياهم اللّٰه تعالى وأعجزهم . ‹٣›

٩ - بيان أن اللّٰه تعالى أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم ، أفراداً وجماعات ، وأنهم لا يضرهم من ضل من الناس إذا هم استقاموا على طريق الحق والهداية . ‹٤›

١٠- تأكيد وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بما بيّنه اللّٰه تعالى من لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، وتعليل ذلك بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . ‹٥›

١١- نفى الحرج عن الدين الإسلامى . ‹٦›

---

١ ـ الآية : ٤٨ .

٢ ـ الآية : ٩٩ .

٣ ـ الآية : ٦٧ .

٤ ـ الآية : ١٠٥ .

٥ ـ الآيتان : ٧٨ ، ٧٩ .

٦ ـ الآية : ٦ .

١٢ـ تحريم الغلو في الدين والتشدّد فيه ، ولو بتحريم الطيبات وترك التمتع بها ، وتحريم الخبائث والاعتداء والإسراف في الطيبات . ‹١›

١٣ـ إباحة الاضطرار للمحرَّم لذاته فيما يضطر الإنسان إليه كالطعام ، ومنه أخذ العلماء قاعدة " الضرورات تبيح المحظورات " . ‹٢›

١٤ـ التفاوت بين الخبيث والطيب ، وكونهما لا يستويان في الحكم ، كما لا يستويان في أنفسهما ، وفيما يترتب عليهما . ‹٣›

١٥ـ تحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم ، لأنه يجب على المؤمنين أن يلتزموا الحق والعدل ، ولا يكونوا كأهل السياسة المدنية .‹٤›

١٦ـ وجوب الشهادة بالقسط ، والحكم بالعدل ، والمساواة فيهما بين غير المسلمين والمسلمين ، ولو للأعداء على الأصدقاء . ‹٥›

١٧ـ الأمر المطلق العام – في أول السورة – بالوفاء بالعقود التي يتعاقد الناس عليها ، في جميع معاملاتهم الدنيوية ، من شخصية ومدينة . ‹٦›

---

١ ـ الآيتان : ٨٧ ، ٨٨ .

٢ ـ الآية : ٣ .

٣ ـ الآية : ١٠٠ .

٤ ـ الآيتان : ٢ ، ٨ .

٥ ـ الآية : ٨ .

٦ ـ الآية : ١ .

١٨ـ إيجاب التعاون على البر والتقوى ، ومنه تأليف الجماعات الخيرية والعلمية ، وتحريم التعاون على الإثم والعدوان . ‹١›

١٩ـ بيان أن الله تعالى جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس في أمر دينهم ودنياهم . ‹٢›

٢٠ـ النهي عن موالاة المؤمنين للكافرين ، وبيان أن من علامات النفاق ومرض القلب المسارعة في موالاتهم من دون المؤمنين . ‹٣›

٢١ـ تفصيل أحكام الوضوء والغسل والتيمم ، مع بيان أن الله تعالى يريد أن يطهر الناس ويزكيهم ، بما شرعه لهم من أحكام الطهارة وغيرها ، وشمول الطهارة في آية الوضوء لطهارة الظاهر والباطن . ‹٤›

٢٢ـ تفصيل أحكام حلال الطعام وحرامه ، وبيان ماحرم منه لكونه خبيثاً فى ذاته كالميتة وما في معناها كالخنزير ، وما حرم لسبب دينى كالذى يذبح للأصنام . ‹٥›

٢٣ـ تحريم الخمر ، والميسر ، وهو القمار . ‹٦›

٢٤ـ أحكام محرمات الإحرام . ‹٧›

---

١ ـ الآية : ١ .

٢ ـ الآية : الآية : ٩٧ .

٣ ـ الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

٤ ـ الآيتان : ٦ ، ٧ .

٥ ـ الآيتان : ٣ ، ٤ .

٦ ـ الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .

٧ ـ الآيتان : ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

٢٥ـ تفصيل أحكام الصيد للحُرُم وغيرهم ، في أوائل السورة وأواخرها . <١>

٢٦ـ حدود المحاربين الذين يفسدون في الأرض ، ويخرجون على أئمة العدل . <٢>

٢٧ـ حد السرقة ، وما يتعلق به ، كسقوطه بالتوبة بشرطه . <٣>

٢٨ـ أحكام الأيمان وكفارتها . <٤>

٢٩ـ تأكيد الوصية قبل الموت ، وأحكام الشهادة على الوصية وفي قضاياها ، وشهادة غير المسلم على المسلم . <٥>

٣٠ـ الأمر بالتقوى في عدة آيات من هذه السورة ، لأن صلاح أمور الدنيا والدين يتوقف على الالتزام بها . <٦>

٣١ـ بيان تفويض أمر الجزاء في الآخرة إلى الله وحده ، كما حكاه سبحانه وتعالى من قول المسيح ، عيسى ابن مريم عليه السلام ، في ذلك اليوم العظيم . <٧>

٣٢ـ سعة ملك الله عزوجل ، وبيان عظيم قدرته ، وختم السورة الكريمة بهما . <٨>

---

١ ـ الآيات : ٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

٢ ـ الآيات : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .

٣ ـ الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .

٤ ـ الآية : ٧٩ .

٥ ـ الآيات : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

٦ ـ الآيات : ٤ ، ٧ ، ١١ ، ٣٥ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١١٢ .

٧ ـ الآيات : ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ .

٨ ـ الآية : ١٢٠ .

القسم الثاني : ما ورد في الأخبار والأحكام في شأن أهل الكتاب :

ويمكن تقسيم ما ورد في هذا القسم إلى ثلاثة أنواع :

* ما ورد في شأن أهل الكتاب عامة .

* ما ورد في شأن اليهود خاصة .

* ما ورد في شأن النصارى خاصة .

أما ما ورد في شأن أهل الكتاب عامة فهو :

١ ـ وصفهم بالغلوّ في دينهم ، المستلزم للتعصب الضار . <١>

٢ ـ وصفهم باتباع أهواء من ضل قبلهم من الوثنيين وغيرهم . <٢>

٣ ـ وصفهم بالغرور في دينهم ، وزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه . <٣>

٤ ـ وصفهم بأنهم نقضوا ميثاق ربهم . <٤>

٥ ـ وصفهم بأنهم نسوا حظاً مماً ذكرهم الله تعالى به على ألسنة أنبيائهم . <٥>

٦ ـ وصفهم بأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل كما أوجب الله عليهم . <٦>

---

١ ـ الآية : ٧٧ .

٢ ـ الآية : ٧٧ .

٣ ـ الآية : ١٨ .

٤ ـ الآية : ١٣ .

٥ ـ الآية : ١٤ .

٦ ـ الآية : ٦٦ .

٧ - بيان أنه من جزائهم على سوء أعمالهم في الدنيا إلقاء العداوة والبغضاء بينهم . ‹١›

٨ - دعوتهم جميعاً إلى الإسلام ، والإيمان بخاتم الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام ، الذي بيَن لهم حقيقة دينهم الذي كان عليه سلفهم . ‹٢›

٩ - وصف التوراة والإنجيل بأنهما أنزلا نورا وهدى للناس .

وذكر خبر من أخبار التوراة ، وهو قصة ابنى آدم عليه السلام ، ومــن أخبار الإنجيل والمسيح ماهو حجة على الفريقين . ‹٣›

١٠- بيان أن أهل الكتاب لو كانوا أقاموا التوراة والإنجيل لكانوا في أحسن حال ، ولسارعوا إلى الإيمان بما أنزل الله على خاتم رسله عليه الصلاة والسلام مصدقاً لأصلهما ، ومبيناً لماطرأ عليهما ، ومكملاً لدين الأنبياء جميعاً . ‹٤›

١١- ذكر بعض أحكام التوراة ، كعقوبات القتل وإتلاف الأعضاء والجروح . ‹٥›

١٢- نهى المؤمنين عن موالاة أهل الكتاب لموالاتهم للمشركين. ‹٦›

---

١ ـ الآية : ٦٤ .

٢ ـ الآية : ١٩ .

٣ ـ الآيات : ٤٤ ، ٢٧ ـ ٣١ ، ٤٦ .

٤ ـ الآية : ٦٦ .

٥ ـ الآية : ٤٥ .

٦ ـ الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

وأما ما ورد في شأن اليهود خاصة فمنه :

١ - أنهم نقضوا ميثاق اللّه تعالى الذي أخذه عليهم في كتابهم . <١>

٢ - أنهم نسو حظاً مما ذكروا به . <٢>

٣ - أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه . <٣>

٤ - أنهم تركوا الحكم بالتوراة ، وأخفوا بعض أحكامها . <٤>

٥ - أنهم حكّموا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يرضوا بحكمه الموافق لما في التوراة . <٥>

٦ - أن من صفاتهم الغالبة عليهم : قساوة القلب ، والخيانة ، والمكر ، والكذب ، وقول الإثم ، والمبالغة في سماع الكذب ، وأكل السحت ، والسعى بالفساد في الأرض ، والسعى في إيقاد نار الحرب والفتن . <٦>

٧ - أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق . <٧>

٨ - أنهم تمردوا على موسى عليه السلام ، إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة لقتال الجبارين فيها . <٨>

١ـ الآيتان : ١٢ ، ١٣ .

٢ـ الآية : ١٤ .

٣ـ الآيتان : ١٣ ، ٤١ .

٤ ـ الآية : ٤٣ .

٥ـ الآية : ٤٣ .

٦ـ الآيات : ١٢ ، ١٣ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٦٤ .

٧ـ الآية : ٧٠ .

٨ـ الآيات : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

٩ ـ أن الله سبحانه وتعالى عاقبهم على ذلك بالتيه في الأرض . ‹١›

١٠ـ أنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين ، حتى إنهم كانوا يوالون عليهم المشركين . ‹٢›

١١ـ أن الله تعالى عاقبهم على ذلك كله باللعن والطرد على ألسنة الرسل عليهم السلام ، وكذلك بالغضب والمسخ . ‹٣›

١٢ـ أن هذه الصفات لم تكن عامة فيهم ، ولا شاملة لجميع أفرادهم ، ولذلك أنصفهم الله تعالى في هذه السورة وغيرها بالحكم على كثير منهم بأنهم أمة مقتصدة . ‹٤›

---

١ ـ الآية : ٢٦ .

٢ ـ الآية : ٨٢ .

٣ ـ الآيتان : ٦١ ، ٧٨ .

٤ ـ الآية : ٦٦ .

وأما ما ورد في شأن النصارى خاصة فمنه :

١ ـ أنهم – كاليهود – نسوا حظاً مما ذكروا به . <١>

٢ ـ أنهم قالوا : إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام . <٢>

٣ ـ أنهم قالوا : إن الله تعالى ثالث ثلاثة – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . <٣>

٤ ـ أنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين . <٤> ، <٥> .

---

١ ـ الآية : ١٤ .

٢ ـ الآية : ١٧ .

٣ ـ الآية : ٧٣ .

٤ ـ الآية : ٨٢ .

٥ ـ انظر : تفسير القرآن الحكيم / الشهير بتفسير المنار : ٧/٢٧٦ ـ ٢٨٣ .

الباب الأول

من أسباب استقرار المجتمع الإسلامي

الفصل الأول : الوفاء بالعهود .

الفصل الثاني : التعاون على البر والتقوى دون الإثم والعدوان .

الفصل الثالث : كمال الدين الإسلامي ، وما يستوجب ذلك .

الفصل الرابع : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الفصل الأول

الوفاء بالعهود

الوفاء بالعهد خلق كريم نبيل ، عرفه العرب فى الجاهلية ، فكانوا يمدحون ويفتخـرون ، ويشيـدون بـه فـى أشعـارهم وأمثالهـم ، وفـى مَثَل لهم " أَنْجَزَ حُرٌّ ما وَعَد " <١> .

وفي مثل آخر " الوفاءُ من اللّه بمكان " <٢> . أى بمكان مَرْضِيٍّ كريم .

وجاء الإسلام فأقر هذا الخلق الكريم ، وحَثَّ عليه بصورة واسعة ، وذلك فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، كما سيتبين فـى هـذا الفصـل إن شاء اللّه تعالى .

وقبل أن أتحدث عن الوفاء بالعهود كسَبَبٍ من أسباب استقرار المجتمع الإسلامى ، يحسن أن أبدأ بتعريف كل من الكلمات التالية :

الوفاء ـ العَهْد ـ العَقْد ـ الميثاق ، لغوياً واصطلاحياً .

أما الوفاء :

فى اللغة : فيقال فيه : وَفَى بعَهْده ، يَفِى ، وَفَاء ، إذا تَمَّمه ، ولم ينقض حفظه ، وضِدُّه الغَدْر ، ومثله : أَوْفَى بعهده .

ويقال أيضاً : أَوْفَى الرجلَ حقَّه ، ووَفَّاه إياه : بمعنى .

ووَفَّى بالشىء تَوْفِيَةً : بَذل المجهودَ فى جميع ما طُولب به .

ووَفَّى الكيلَ وأَوْفَاه : أتمه .

وتَوْفِيَةُ الشىء : بَذْلُه وافياً . واسْتِيفَاء الشّيء : تناولُه وافياً .

---

١ ـ كتاب الأمثال / لأبى عبيد القاسم بن سلام / ٧١ / الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ / جامعة ام القرى .

٢ ـ المصدر السابق / ٧٢ .

ومن معانى الوفاء فى اللغه أيضاً : الخلق الشريف العالى الرفيع ، من قولهم : وَفَى الشَّعْرُ ، فهو وافٍ ، إذا زاد .

والوَفِىُّ : الوافى ، وهو الذى يُعطى الحقَّ ويَأخذ الحقَّ ، وجمعُه : أوفياء <١> .

وأما معناه اصطلاحاً :

فهو ملازمة طريق المواساة ، ومحافظة عهود الخلطاء <٢> .

وأما العَهْد :

فى اللغة : فهو يطلق على الوفاء ، والضَّمان ، والأمان ، والذمة ، والمودَّة ، والوَصيَّة ، والميثَاق ، واليمين ، وجمعه عهود .

ويقال : عَهِدَ فلان إلى فلان ، إذا ألقى إليه العَهْدَ وأوصاه بحِفْظه .

وعَهِدَ الشيءَ : عَرفَه .

وعَاهَد الذِّمِّيَّ ، أعطاه عَهْداً .

والمُعَاهَد : الذِّمِّيُّ ، وأهلُ العَهْد : أهلُ الذِّمَّة ، وسُمِّيَ اليهودُ والنصارى أهلَ العَهْد ، للذمَّةِ التى أُعْطُوها ، والعُهْدَةِ المُشْتَرطةِ عليهم ولهم .

وعَهْدُ اللَّهِ تعالى يكون بما ركَزه فى عقولنا ، وتارة يكون بما أمَرَنَا به بالكتاب ، وبالسنة رُسُله عليهم الصلاة والسلام ، وتارة بما يلتزمه الإنسانُ ، أو تَلتزم به الأمَّة .

---

١ ــ اللسان (وفى) ١٥/٣٩٨ ومفردات الراغب (وفى) ٥٦٥ تحقيق : نديم مرعَشلي/ دار الفكر . بيروت / لبنان .

٢ ــ التعريفات للجرجانى : ٢٥٢ / دار الكتب العلمية / بيروت .

والتَعَهُّدُ : التحفُّظُ بالشيء وتجديدُ العَهْد به <١> .

والعهود ثلاثة أنواع :

١ ـ عهد عام : وهو عهد الله تعالى فى الأزَل لجميع الخلق على التوحيد واتِّباع المرسلين .

٢ ـ عهد خاص بالأنبياء : وهو تبليغ الشرائع والأحكام التى أمرهم الله بها .

٣ ـ عهد خاص بالعلماء : وهو تبليغ كل ما تَلَقَّوه عن الأنبياء من العلم <٢> .

وأما العَقْد :

فى اللغة : فهو الجمع بين أطراف الشيء ، ويُستعمل ذلك فى الأجرام الصُلْبة ، كعَقْد الحَبْل ، وعَقْد البناء ، ثم يُستعار للمعانى ، نحو عَقْد البيع والنكاح وغيرهما ، وهو نقيض الحل . وجمعه : عقود .

ويقال : عَقَد الشيءَ يَعْقِدُه عَقْداً .

وعَقَد العهدَ واليمينَ ، يَعْقِدُهما عَقْداً ، وعَقَّدَها : أكَّدَهما .

والمُعَاقَده : المُعَاهدة والميثاق . وعاقَده : عَاهَده .

وتَعَاقد القومُ : تَعَاهدوا .

---

١ ـ اللسان (عهد) ٣ / ٢٩٦ ومفردات الراغب (عهد) ٣٦٣ .

٢ ـ حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ١ : ١٨ ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى ـ القاهرة .

والعَقِيد : الحَلِيف .

والعُقْدة : اسم لما يُعْقد ، من نكاح أو يمين أو غيرهما . ومنه (عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ) ‹١› .

وعُقِد لسانُه : احْتَبَس ، وبلسانه عُقْدَةٌ : أى فى كلامه حُبسْة ‹٢› .

وأما فى الاصطلاح :

فهو ربط أجزاء التصرف بالإيجاب والقبول شرعاً ‹٣› .

والخلاصة :

أن العَقْد هو العَهْد الموثَّق المؤكَّد المُحْكَم والمُلْزِم .

وأما الميثاق فى اللغة :

فهو مأخوذ من : وَثِق به يَثِق (بالكسر فيهما) ثِقَةً ، ووَثَاقة ، إذا ائْتَمنه .

ويقال : وَثِقت به أثِق ثقةً : سكنت إليه واعتمدت عليه .

والمَوْثِق ، بالميم المفتوحة والثاء المكسورة ، بزنه (مَسْجِد) : مصدر ميمى من (وَثِق) بفتح الواو وكسر الثاء ، وهو العهد الذى تلزم مراعاته .

ويقال : فلان ثِقَةٌ ، وهى ثِقَةٌ ، وهم ثِقَةٌ .

ويقال أيضاً : وَثَّقت فلاناً ، إذا قلت : إنه ثِقَة .

والوَثَاق ــ بفتح الواو وكسرها ــ الحبل أو الشىء الذى يُوثَّق به .

ويقال : أخذ بالوَثِيقة فى أمره ، أى بالثقة .

---

١ ــ سورة البقرة : ٢٣٧ .

٢ ــ اللسان : (عقد) ٣ / ٣١١ والمفردات : (عقد) ٣٥٢ .

٣ ــ التعريفات للجرجانى : ١٥٢ .

والوثيقة : الإحكام فى الأمر . والمواثقة : المعاهدة .

ويقال : استوثقت فلاناً ، أخذت منه الوثيقة ‹١› .

وأما الميثاق فى **الاصطلاح** : فهو عقد مؤكد بيمين وعهد ‹٢› .

ولا فرق بين العهود والمواثيق .

وذكر الخازن رحمه الله :

" أن العقود خمسة فقال : " والعقود خمسة : **عقد اليمين** ، **وعقد النكاح** ، **وعقد العهد** ، **وعقد البيع** ، **وعقد الشركة** ، **وعقد الحلف** " ‹٣› .

وجعلها الألوسى رحمه الله ثلاثة ، فقال :

١ ـ عقد بين الله تعالى وبين العبد .

٢ ـ عقد بين العبد ونفسه .

٣ ـ عقد بينه وبين غيره من البشر ‹٤› .

والمجتمع الإسلامى لا يستقر أمره ويصلح شأنه إلا بالالتزام بالوفاء بالعقود ، ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى بها ، وأكدها فى الكثير من آيات القرآن الكريم حيث قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ‹٥›

---

١ ـ اللسان : (وثق) ١٠ / ٣٧١ والمفردات (وثق) ٥٤٨ .

٢ ـ التعريفات للجرجانى ١٥٩ ، ومفردات الراغب (وثق) ٥٤٨ .

٣ ـ الخازن وبهامشه البغوى : ٢ / ٣ / دار الفكر بيروت / لبنان .

٤ ـ روح المعانى : ٦ / ٤٩ / دار إحياء التراث العربى / بيروت .

٥ ـ سورة المائدة : ١ .

يخاطب الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يلتزموا بالوفاء بالعقود والمواثيق التى عقدها عليهم ، والعقود والمواثيق التى عقدها بعضهم مع بعض على ما يوجب الدين ، بما فرضه عليهم ، وأحلَّه لهم ، وحرمه عليهم ، وما حَدَّده في القرآن كله . ‹١›

وكذلك نص في القرآن العظيم بقوله:" فَنَبَذُوهُ "‹٢› ، و" لَا تَنقُضُوا "‹٣› ، و" نَكَثُوا " ‹٤› و " تُقَطِّعُوا " ‹٥› .

ثم شَدَّد سبحانه وتعالى على الالتزام بالوفاء بالعهود بقوله :

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ‹٦›

وقوله عز وجل :

وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ‹٧›

---

١ ـ انظر : جامع البيان للطبرى : ٩ / ٤٥٢ ، وابن كثير : ٢ / ٣ .

٢ ـ سورة آل عمران : ١٨٧ .

٣ ـ سورة النحل : ٩١ .

٤ ـ سورة التوبة : ١٢ ، ١٣ .

٥ ـ سورة محمد : ٢٢ .

٦ ـ سورة البقرة : ١٠٠ ، ١٠١ .

٧ ـ سورة التوبة : ١٢ .

وقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ‹١›

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ ‹٢›

ويرى سيد قطب أن أول هذه العهود : عَقْد الإيمان بالله ، وقد أخذه ابتداء على سيدنا آدم عليه السلام ، ثم تكرر هذا العقد مع ذرية آدم عليه السلام ‹٣› حيث يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ ‹٤›

---

١ ـ سورة النساء : ١٥٥ .

٢ ـ سورة الرعد : ٢٥ .

٣ ـ في ظلال القرآن ٢ / ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، دار الشروق ـ الطبعة الثامنة ١٣٩٩ هـ .

٤ ـ سورة الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣ .

فمن ذلك نستنتج أن هذا الإقرار يُلزمهم بالحجة ، وإذا لم يوفوا بما عاهدوا الله عليه فهم غير أوفياء بعقد الإيمان والعبودية له سبحانه وتعالى ، لأن سائر العقود والمواثيق تلزم العبد بالإيمان بالله الواحد العظيم ، دون سواه ، ثم الالتزام بالأوامر والنواهى التى جاءت فى شريعة الله تعالى ، أو فى معاملات الناس بعضهم مع بعض ، بما شرعه الله تعالى لهم ، وأوجبه عليهم .

ويرى بعض علماء التفسير أن " العقود " فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ ‹١›

المراد بها أمرٌ من الله تعالى لأهل الكتاب بالوفاء بما أخذه من عهد وميثاق بأن يعملوا بما جاءهم فى التوراة والإنجيل ، من التصديق والإيمان بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى .

أو أنها العقود التى كانت بين أهل الجاهلية على النصرة والمؤازرة ، والمظاهرة على من حاول ظلمهم أو بغى عليهم .

أو أنه العقد الذى أخذه الله على عباده بالإيمان به وطاعته فيما أحل لهم وحرم عليهم ‹٢› .

ثم فسر ابن عباس رضى الله عنهما قوله : (أوفوا بالعقود) .

يعنى : ما أحل ، وما حرّم ، وما فرض ، وما حدّ فى القرآن كله ، فلا تغدروا ولا تنكثوا .

---

١ ـ سورة المائدة : ١ .

٢ ـ جامع البيان ٩ / ٤٥٣ " المحقق " .

أو أنهـــا العقود التى يتعاقدها الناس فيما بينهم ، أو يعقدها المرء على نفسه ، كعقد النكاح ، وعقد البيع ، وعقد الشركة وعقد اليمين ، وعقد العهد ، وعقد الحلف .

ورجح الطبرى رحمه الله أن المراد من الآية الكريمة هو ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما بقوله : " وإن معناه أوفوا ياأيها الذين آمنوا بعقود الله التى أوجبها عليكم ، وعقدها فيما أحل لكم ، وحرم عليكم ، وألزمكم فرضه ، وبين لكم حدوده " .

ثم قال : ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال ، " لأن الله تعالى أتبع ذلك البيانَ بما أحله لعباده ، وما حرمه عليهم ، وما أوجب عليهم من الفرائض ، وأمرهم بالوفاء بكل عقدٍ التزموا به " <١> .

فالعقد الذى يجب الوفاء به كل ما وافق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن خالفهما فهو رَدٌّ .

ونجد فى كتاب الله العزيز ، وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام كلمة " العهد " كثيراً ما وردت فيهما ، وقد أُمِرْنا بالوفاء به ، لأن الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين ، والمجتمع الإسلامى لا يتحقق له الأمن والاستقرار بدون الوفاء بالعهود والمواثيق وقد أثنى الله تعالى على الموفين بعهودهم بقوله :

﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ﴾ <٢>

---

١ ـ جامع البيان عن تأويل آى القرآن/ للطبرى :٩ / ٤٥٢ " المحقق "، والخازن وبهامشه البغوى ٢ / ٣ .

٢ ـ سورة البقرة : ١٧٧ .

وقوله عز وجل :

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ‹١›

ومن السنة ما جاء فى فضل الاستغفار ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عَبْدك ، وأنا على عهدِكَ ، ووعدِكَ ما استطعت .... " ‹٢› .

والعهد : الطاعة والبعد عن المعصية ، قال تعالى :

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ‹٣›

وقال :

وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ‹٤›

وقال عز وجل :

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا
تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ‹٥›

أى ألم آمركم وأوصيكم يابنى آدم أن لا تطيعوا الشيطان فيما يوسوس ويزين لكم من معصية الله تعالى لأنه ظاهر العداوة لكم ‹٦› .

---

١ ـ سورة المؤمنون : ٨ ، والمعارج : ٣٢ .

٢ ـ صحيح البخارى : ٨ : ٨٣ / كتاب الدعوات / باب " فضل الاستغفار " .

٣ ـ سورة المائدة : ٩٢ .

٤ ـ سورة الأحزاب : ٧١ .

٥ ـ سورة يس : ٦٠ .

٦ ـ الخازن وبهامشه البغوى : ٦ : ١٠ ، ١١ .

وقال عز من قائل :

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ
إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ

<١>

يقول الرازي رحمه الله :

" وإنما سمى الله تعالى هذه التكاليف عقوداً كما فى الآية الكريمة ، لأنه تعالي ربطها بعباده كما يربط الشىء بالشىء بالحبل الموثق " <٢> .

فالتكاليـف التى أمرنا الله تعالى بها ، وكلفنا بالقيام بموجبها ، تسمى عقوداً ، لأنه عز وجل ألزم عباده المؤمنين بها ، ولأنهم مكلفون بمقتضى الإيمان بالقيام بها ، وكذلك كل ما يُلزم به الإنسان نفسَه يسمى عقوداً ، مثل : النذر ، والوصية ، والوقف .

والمولى القدير يُنبه رسوله ونبيه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين إلى أن نقض العهود والمواثيق من أخص صفات الكافرين والمنافقين الخادعين ، ليكونوا على حذر منهم ، فيقول عز وجل :

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ. ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ
ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ <٣>

---

١ ـ سورة الأعراف : ٢٧ .

٢ ـ التفسير الكبير : الفخر الرازى : ١١ : ١٢٣ ، دار الكتب العلمية / طهران / الطبعة الثانية .

٣ ـ سورة الأنفال : ٥٥ ، ٥٦ .

أى الذين كفروا حينما أَخَذْتَ عهودَهم ومواثيقهم يا محمد ألاَّ يحاربوك ولا يظاهروا عليك محارباً لك ، كقُرَيْظة ونظرائهم ، ممن كان بينك وبينهم عهد ، ينقضون عهودهم ومواثيقهم فى كل مرة ويقولون : نسينا وأخطأنا ، ولا يخافون اللّٰه فى نقضهم هذه العهود أن يوقع بهم وقعةً تهلكهم . (١)

ومن ذلك يتضح أن اليهود لا يخافون اللّٰه فى نقض العهود والمواثيق ، وما يترتب عليها من التهلكة ، وكذلك كان يفعل مشركو مكة المكرمة ، وغيرهم .

وقد أعلن اللّٰه تعالى براءتَه وبراءة رسوله صلى اللّٰه عليه وسلم من المشركين فى صدر سورة " التوبة " فقال عز وجل :

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (٢)

فالآية الكريمة تبين انقطاع الصلة بين اللّٰه ورسوله من جهة ، وبين المشركين من جهة أخرى ، وتفيد التنبيه للمسلمين على أن اللّٰه سبحانه وتعالى ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم قد برئا من هذه العهود والمواثيق التى كانت بين المشركين والمسلمين بسبب غدرهم وخيانتهم ، أو بسبب تأجيل العهود وانقضاء المدة المحددة للعهد .

---

١ ـ انظر : جامع البيان : ١٤ / ٢١ ـ ٢٢ .

٢ ـ سورة التوبه : ١ .

ومعلوم أن نقض العهد غدر ، فكيف يتم ذلك من الله ورسوله ؟ والجواب : أن أعداء الله هم الذين نقضوا العهود والمواثيق أولاً ، فوجب أن يعاملوا بما يستوجب النقض الذى بدءوا به ‹١› .

وفى هذا يقول سيد قطب : " يفيد صدر سورة التوبة براءة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، من عهود المشركين ، وإمهالَ ذوى العهود الموقوتة منهم ، ممِّن لم ينقضوا مع المسلمين عهداً ، ولم يظاهروا عليهم أحداً إلى مُدَّتهم ، وإمهالَ ذوى العهود غير الموقوتة ممِّن لم ينقضوا مع المسلمين عهداً ولم يظاهروا عليهم أحداً ، إلى أربعة أشهر ومثلهم من لم يكن لهم مع المسلمين عهدٌ " ، أصلاً من المشركين ، ونبذ عهود الناقضين لعهودهم ، مع إمهالهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض آمنين ، فإذا انسلخت هذه الأشهر أُخِذوا وقُتِّلوا حيث وُجِدوا ، وحُوصروا ومُنِعوا من التنقل وهم آمنون ‹٢› .

واختلف فى تفسير هذه العهود ، فقال بعضهم : هذه الآية لذوى العهود المطلقه غير المؤقتة ، أو من له عهد دون أربعة أشهر ، فيكمَّل له أربعة أشهر ، وأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كانت ، لقوله تعالى :

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ‹٣›

ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها ‹٤› .

---

١ ـ انظر : التفسير الكبير للفخر الرازى ١٥ : ٢١٧ .

٢ ـ فى ظلال القرآن ٣ / ١٥٨٠ .

٣ ـ سورة التوبة : ٤ .

٤ ـ انظر : ابن كثير ٢ / ٣٣١ .

والخلاصة :

١ ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين قد اتفقوا على إقرار العهد والمدة التى اتفقوا عليها ، إلى أن يأذن الله تعالى بنقض هذه المعاهدة ، ويجوز للنبى صلى الله عليه وسلم نقض العهد ، كما حصل فى غزوة تَبُوك ، حيث أشاع وأرجف المنافقون واليهود أن النصر لا يتحقق للمسلمين .

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقطع العهد تنفيذاً للشرط .

٢ ـ أن العهد المؤجَّل ينقضى بنهاية الأجل ، ويجوز له صلى الله عليه وسلم ألاَّ يُجَدِّده ، إذا عزم على المحاربة والمقاتلة ، لئلا يُتَّهم بالخيانة والغدر ، وهو معصوم عن ذلك .

٣ ـ وللنبى صلى الله عليه وسلم نقض العهد عند الخوف من خيانة أعدائه <١> .

أما فى غير هذه الأحوال الثلاثة فلا يجوز نقض العهد ، فإن أكثر المشركين نقضوا العهد والميثاق إلا بنى ضَمْرة وبنى كنانة ، فقد استثناهم الله سبحانه وتعالى من الذين تبرأ من عهودهم ومواثيقهم ، حيث يقول عز وجل :

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ <٢>

ومعاهدة النبى صلى الله عليه وسلم المشركين فى الحُدَيْبِية على السلْم لمدة عشر سنوات لم تكن عن ضعف ، ولكن حباً فى السلم ، ولنشر الدين الإسلامى بالحجة البالغة .

---

١ ـ انظر : التفسير الكبير للفخر الرازى : ١٥ : ٢١٨ ، بتصرف .

٢ ـ سورة التوبة : ٤ .

وقد دخلت خُزَاعة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وبنو بكر فى عهد قريش ، ولكن بنى بكر أغاروا على خزاعة ، وأعانتهم قريش سراً بالعتاد والسلاح ، فكان ذلك سبباً فى نقض العهد ، ونشوب الحرب وفتح مكة المكرمة <١> .

لذا نستنتج أنه لا يمكن للمجتمع الإسلامى أن يتعامل مع الكافرين بحكم المعاهدات التى كانت بينهم حيث إن الغدر من طبيعتهم ، وإن الشرك ليس له شرع يدين به .

ويتضح كذلك أن أهل الكتاب كانوا كثيراً ما ينقضون المواثيق والعهود ، وكان الأجدر بهم الوفاء بها ، لأنهم كانوا يلتزمون بشرع سماوى .

وقد أكد سبحانه وتعالى الأمر بالوفاء بالعهود فى نهاية الآية ، وأنه من صفات المتقين ، فقال : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ) أى الموفين بعهودهم ومواثيقهم ، وهذا من تأكيدا الوجوب للتنبيه على أن مراعاة العهد من باب التقوى ، وأن التسوية بين الغادر والموفى منافية لذلك <٢> .

وأنكر سبحانه وتعالى أن يكون للمشركين عهد ، ونص على ذلك بصيغة الاستفهام التعجبى المتضمن للإنكار ، فقال عز وجل :

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ
رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا
ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ <٣>

---

١ ـ انظر : تفسير المنار ١٠ : ١٥٠ ، وفى ظلال القرآن ١٠ : ١٥٨٨ ، بتصرف .

٢ ـ انظر : روح المعانى ١٠ : ٤٩ .

٣ ـ سورة التوبة : ٧ .

أى محال أن يثبت لهؤلاء عَهْدُهم غادرون ناكثون للمواثيق والعهود ، لما هم عليه من الكفر بالله ورسوله فلا يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله ، وهم لا يؤمنون ، وهم لكم أعداء يضمرون لكم الخيانة والغدر ، ثم استثنى الله تعالى طائفة منهم فقال : (إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ) أى إن الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المسجد الحرام ، ولم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، ولم ينكثوا ، فلا تقاتلوهم ماداموا مستقيمين لكم على العهد <١> .

وهذا الأمر قد اتضح عندما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى أهل الموسم ليقرأ عليهم سورة " براءة " فقام يوم النحر العاشر من ذى الحجة عند جَمْرة العقبة ، وقال : ياأيها الناس ، إنى رسولُ رسولِ الله إليكم ، وقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية من سورة براءة <٢> .

ثم قال علي رضى الله عنه : " بعثت بأربع : لا يَطُوفَنَّ بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عَهْدٌ ، فهو إلى مُدَّته ، ومَنْ لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا " <٣> .

---

١ ـ انظر : جامع البيان للطبرى : ١٠/٥٥ ، وابن كثير : ٢ : ٣٦٣ ، وفتح القدير : ٢ : ٣٣٩ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٨ : ٧٨ / بتصرف .

٢ ـ انظر : فتح البارى ، شرح صحيح البخارى : ٨ : ٣١٩ / كتاب التفسير ـ باب (وأذان من الله ورسوله إلى الناس ...) .

٣ ـ رواه الإمام أحمد فى مسنده ١ : ٧٩ ، وفى ٢ : ٢٩٩ ، والترمذى فى سننه ٤ / ٣٤٠ ـ أبواب تفسير ـ وقال : حديث حسن صحيح .

ثم قال المشركون :

ياعلي ، أبلغ ابن عمك أننا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا ، وليس بيننا وبينه إلا طعنٌ بالرمح وضرب بالسيف <١> .

قال الإمام الترمذى :

استـدل بقولـة " ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلـى مدتـه ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر " على أن قوله تعالى :

فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ <٢>

يختص بمن لم يكن له عهد مؤقت ، أو لم يكن له عهد أصلاً ، وأما من له عهد مؤقت فهو إلى مدته <٣> .

قال الطبرى : هما صنفان من المشركين :

١ ـ صنـف كـان لـه عهـد دون أربعـة أشهـر ، فأمهـل إلى تمام أربعة أشهر .

٢ ـ وصنف كانت له مدة عهده بغير أجل ، فقصرت على أربعة أشهر <٤> .

---

١ ـ انظر : التفسير الكبير للفخر الرازى ١٥ : ٢١٨ .

٢ ـ سورة التوبة : ٢ .

٣ ـ تحفه الأحوذى / بشرح الترمذى ٨ : ٤٨٨ .

٤ ـ انظر : الطبرى ١٤ : ٩٦ .

وقال آخرون :

بل كان إمهال الله عز وجل بسياحة أربعة أشهر ، مَنْ كان من المشركين بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، وأما من لم يكن له عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن انقضاءه إلى انسلاخ الأشهر الحرم ، كما قال تعالى :

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ ‹١›

قال ابن عباس رضي الله عنهما :

« حدَّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر ، يسيحون فيها حيثما شاءوا ، وحدّ أجل من ليس له عهد ، انسلاخَ الأشهر الحرم ، من يوم النحر إلى انسلاخ المحرَّم ، فذلك خمسون ليلة . فإذا انسلخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد » ‹٢› .

بيَّن الله سبحانه وتعالى حكم قتال المنافقين الذين يظهرون الإسلام خداعاً ونفاقاً ، ويساعدون المشركين على قتال المؤمنين ، وقد سبق لهم أن تعاهدوا مع المسلمين على السلم والولاء والنصرة و وأن يكونوا حرباً على أعدائهم ، ثم غدروا بهم بعد ذلك ، فقال عنهم :

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ
أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا .
وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ‹٣›

---

١ ــ سورة التوبة : ٥ .

٢ ــ جامع البيان : ١٤ : ٩٧ ، ٩٨ / " المحقق " .

٣ ــ سورة النساء : ٨٨ ، ٨٩ .

وسبب نزول الآية كما جاء في صحيح البخارى :

« عن زيد بن ثابت رضي الله عنه : (فما لكم في المنافقين فئتين) رجع ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من أحد وكان الناس فيهم فرقتين : فريق يقول اقتلهم ، وفريق يقول لا ، فنزلت (فما لكم في المنافقين فئتين) .

وقا ل : « إنها طيبة تنفى الخبث كما تنفى النار حبث الفضة » ‹١› .

وقاله ابن كثير ‹٢› .

وقوله (إلا الذين يصلون) استثناء من الذين نهوا عن اتخاذهم أولياء ـ وهم الذين تركوا الهجرة وأظهرو الكفر ـ .

قال السدى وابن جرير وابن زيد : هم الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم .

وقال ابن أبي حاتم عن الحسن : إن سراقة بن مالك المدلجى حدثهم قال : لما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم على أهل بدر وأحد واسلم من حولهم ، قال سراقة بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى بنى مدلج ، فأتيتة فقلت أنشدك النعمة ، فقالوا : مه فقال النبى صلى الله عليه وسلم دعوه ، ما تريد » ؟ قال : بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومى وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك ودخلوا في الإسلام ، وإن لم يسلموا لم تخشن قلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد خالد بن الوليد فقال : « اذهب معه فافعل ما يريد » فصالحم خالد على ألا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم .

فأنزل الله (ودوا لو تكفرون كما كفروا) ... وأنزل (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) .

---

١ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى : ٨ / ٢٥٦ كتاب التفسير / باب (فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم) .

٢ ـ انظر ابن كثير : ١ / ٥٣٢ ، ٥٣٣ .

فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم ـ وهذا أنسب لسياق الكلام ـ ‹١› .

وفي فتح البارى في قصة صلح الحديبية ‹٢› .

« فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم ، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعهدهم » ... ألخ .

وقوله (أو جاءوكم حصرت صدورهم ..) هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين لا يقاتلونكم ولا يقاتلوا قومهم لا لكم ولا عليهم ... الخ . ‹٣› .

حذَّر سبحانه وتعالى المؤمنين منهم ، وأمرهم بقتالهم أينما وجدوا ، سواء فى الحِلِّ أو الحرَم ، ثم نهاهم عن أن يتخذوا منهم ولياً أو نصيراً ، واستثنى سبحانه وتعالى من الحكم السابق فريقين ، تؤمن غائلتهم ، كما تحدث به قوله عز وجل :

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ ‹٤›

١ ـ تفسير ابن كثير : ٥٣٢ ـ ٥٣٣ .

٢ ـ فتح البارى : ٥ / ٣٤٤ ، ٧ / ٥١٩ .

٣ ـ ابن كثير : ٥٣٢ ـ ٥٣٣ .

٤ ـ سورة النساء : ٩٠ .

وهذان الفريقان هما :

١ ـ فريق يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين ، فيدخلون فى عهدهم ، ويرضون بحكمهم ، فيمتنع قتالهم مثلهم ، وهم المقصودون بقوله :

(إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ) الآية .

٢ ـ أما الفريق الآخر فقوم جاءوا إلى المسلمين وقد ضاقت صدورهم عن قتالهم ، وقتال قومهم ، وهم المقصودون بقوله :

(أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ) الآية .

وخلاصة ذلك : أنهم لما جاءوا إلى المسلمين مسالمين ، لا يقاتلونهم ولا يقاتلون قومهم معهم ، بل كانوا على الحياد ، لأنهم لم يقاتلوا المسلمين حفظاً للعهد والميثاق ، ولم يقاتلوا قومهم لأنهم منهم ـ وجب على المسلمين قبول معذرتهم موافقة لما بنى عليه الإسلام من التسامح والوفاء ، وعدم الاعتداء (١) لقوله تعالى :

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٢)

فمن مصلحة المسلمين ألا يعتدوا ، وهذه المسالمة لهؤلاء المنافقين ليست عن ضعف أو جبن ، وإنما هى للحكمة حتى يدخل الكثير منهم ومن غيرهم فى الإسلام ، وليكفوا غيرهم عن حرب المسلمين .

وأما تفسير قوله : (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ) . فهو أن الله تعالى رحم المؤمنين بأن كف عنهم بأس هاتين الفئتين ، وصرفهم عن قتالهم ، ثم قذف فى قلوبهم الرعب (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ) بأن يلهمهم القوة والعزم ، ويسوق لهم من الأخبار ما به يرجعون لقتالكم .

---

١ ـ انظر : تفسير المنار ٥ : ٣٢٥ ، وتفسير المراغى ٥ : ١١٧ بتصرف .

٢ ـ سورة البقرة : ١٩٠ .

وتفسير قوله : (فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا) أى فإن اعتزلتكم إحدى الفئتين ولم تقاتلكم ، بل ألقت إليكم السلم والولاء ، وأعطتكم زمام أمرها ، فما جعل الله لكم من طريق تسلكونها للاعتداء عليها ‹١› .

وقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بأن يكونوا على حذر من عدوهم ، فإن استقام الأعداء على العهد فعلى المسلمين أن يستقيموا على عهدهم ، وإن نكثوا فعلى المسلمين قتالهم ويشير إليه قوله تعالى :

وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا
أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ‹٢›

والمقصود بقوله : (أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) صناديدُ قريش ، مثل الحارث بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبى سفيان ، وعتبة بن ربيعة .

وسُمُّوا أئمة الكفر لأنهم قدوة لقومهم ‹٣› .

قال ابن كثير :

" الآية عامة فى مشركى قريش وغيرهم ، وإن كان السبب فى نزولها مشركى قريش » ‹٤› .

---

١ ـ انظر: فتح القدير ١ : ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، وتفسير المنار ٥ : ٣٢٥ ، وتفسير المراغى ٥ : ١١٧ / بتصرف .

٢ ـ سورة التوبة : ١٢ .

٣ ـ انظر : جامع البيان ١٠ : ٦٢ ، وروح المعانى ١٥ : ٥٨ ، ٥٩ ، والتفسير الكبير للفخر الرازى ١٥ : ٢٣٤ ، بتصرف .

٤ ـ ابن كثير : ٢ / ٣٦٩ .

وقد تحدثت سورة التوبة عن صور من غدر المنافقين وخداعهم ، ونقضهم العهود والمواثيق ، وبخلهم بما عاهدوا به ، وكان ذلك لأن النفاق راسخ فى قلوبهم إلى يوم القيامة ، عقاباً لهم من الله تعالى على فعلهم الشنيع . قال تعالى مصوراً حالهم :

وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ‹١›

فهذه العقوبه تلاحقهم إلى يوم القيامة .

والإسلام قد حث على الوفاء بالعهود والمواثيق بجميع أنواعها ، وحذر تحذيراً شديداً الناكثين والغادرين لها ، وتوعد من ينقض العهود والمواثيق بالعذاب والخسران فى الدنيا والآخرة ، فقال عز من قائل :

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ‹٢›

واختلف فى تعيين العهد على عدة أقوال منها :

١ ـ أن العهد هو وصية الله لعباده فيما أمرهم بطاعته ، ونهاهم عنه فى كتبه ، وعلى ألسنته الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومنها قوله عز وجل :

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ ‹٣›

---

١ ـ سورة التوبة : ٧٥ ـ ٧٧ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٧ .

٣ ـ سورة يس : ٦٠ ـ ٦٢ .

ونقضهم إياه تركهم العمل به <١> .

٢ ـ أنه العهد الذى أخذ على أهل الكتاب بالإقرار بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واتباعه وتصديقه . <٢>

ولكنهم نقضوا هذا العهد وجحدوا وجوبه وأنكروا ما عرفوا من الحق ، بل كتموه وأخفوه ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً <٣> .

كما يشير إليه قوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ <٤>

وقوله تعالى :

وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

<٥>

٣ ـ أنه العهد الذى أخذه الله تعالى على بنى آدم حينما أخرجهم من صلب آبائهم كما يشير إليه قوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ
ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلْمُبْطِلُونَ <٦>

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن / للقرطبى ١٥ : ٤٧ .

٢ ـ روح المعانى ٦ : ٤٨ ، والجامع لأحكام القرآن / للقرطبى ١ : ٢٤٦ .

٣ ـ انظر : جامع البيان : ١ / ٤١٢ " المحقق " .

٤ ـ سورة آل عمران : ١٨٧ .

٥ ـ سورة النحل : ٩٥ .

٦ ـ سورة الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣ .

٤ ـ أنه العهد الذى أخذه الله تعالى على النبين ومن اتبعهم ألا يكفروا بنبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ‹١› لقوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ‹٢›

قال الطبرى :

" هم علماء اليهود وأحبارهم ، والمراد كتمانهم أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتركهم اتباعه وهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل " ‹٣› .

٥ ـ أنه العهد الذى يقصد به الأمانة التى حملها الإنسان بعد إباء السموات والأرض والجبال أن يحملنها ‹٤› وفى ذلك يقول سبحانه :

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ‹٥›

---

١ ـ انظر : جامع البيان للطبرى / ٦ : ٥٥٩ .
٢ ـ سورة آل عمران : ٨١ .
٣ ـ جامع البيان : ٣ : ٢٤٩ .
٤ ـ روح المعانى ١ : ٢١٠ .
٥ ـ سورة الأحزاب : ٧٢ .

٦ ـ أنه العهد الذى أخذ على بنى إسرائيل أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم ‹١› مصداق ذلك قوله عز وجل :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ‹٢›

ويرى الطبرى : أن الآية الكريمة من قوله : (ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ) ‹٣› نزلت فى كفار أهل الكتاب ومنافقيهم ، ثم يؤيد ذلك بأن الله خاطبهم بقوله عز وجل : يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ‹٤›

لأن الفاسقين هم الخارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بعدم التزامهم بالعهود والمواثيق ، التى جاءت فى التوراة والإنجيل ونقضها ، وقد أمروا بالوفاء بها ‹٥› .

وأرى من خلال هذه الدراسة عموم الآية السابقة وهى قوله تعالى :

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ‹٦›

فهى عامة فى كل من ضل وكفر ، ولم يلتزم بالعهود والمواثيق التى أمر الله بها ، ثم يدخل فى ذلك ذكر نبينا محمد صلي الله عليه وسلم الموضح فى التوراة والإنجيل المأمور باتباعه وتصديقه .

---

١ ـ انظر : البحر المحيط لأبى حيان ١ : ١٢٧ ، وروح المعانى للالوسى : ١ : ٢١٠ .

٢ ـ سورة البقرة : ٨٤ .

٣ ـ سورة البقرة : ٢٧ .

٤ ـ سورة البقرة : ٤٠ .

٥ ـ انظر : جامع البيان ١ : ١٤٣ .

٦ ـ سورة البقرة : ٢٧ .

ولكن الطبرى رحمه الله يرى أن الآية <١> نزلت فى كفار أحبار اليهود الموجودين زمن البعثة المحمدية ، ومن كان على شاكلتهم ، من المنافقين الذين تنطبق عليهم الأوصاف التالية : الكذب ، خلف الوعد ، الخيانة ، نقض العهود والمواثيق ، قطع ما أمر الله به أن يوصل ، الفساد فى الأرض .

وقول الطبرى : " ومَنْ على شاكلتهم " يفيد أنه يميل إلى عموم الآية <٢> .

واما تفسير قوله :

وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ <٣>

ففيها أقوال للعلماء ، منها :

١ ـ أن المراد قطيعة الرحم ، وعدم صلة القرابة ، أو عدم موالاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين <٤> .

٢ ـ أن المراد بذلك النهى عن التنازع وإثارة الفتن <٥> .

٣ ـ ويرى الألوسى رحمه الله : أنهم أمروا بتصديق جميع الأنبياء والمرسلين ، لكنهم كذبوا بعضهم ، وصدقوا البعض الآخر ، ثم أمروا بحفظ الشرائع والحدود المنزلة فى كتبهم على ألسنة رسلهم ، لكنهم حرفوها وبدلوها <٦> .

٤ ـ ويرى القرطبى:أن المراد ان يصلوا القول بالعمل ، لكنهم قالوا ولم يعملوا <٧> .

---

١ ـ سورة البقرة : ٢٧ .

٢ ـ انظر : جامع البيان / ١ : ١٤٤ .

٣ ـ سورة البقرة : ٢٧ .

٤ ـ انظر : جامع البيان ١ : ١٤٤ ، وفتح القدير ١ : ٥٨ ، بتصرف .

٥ ـ انظر : الفخر الرازى ٢٠ : ١٤٧ ، ١٤٨ ، بتصرف .

٦ ـ انظر : روح المعانى ١ : ٢١٠ ، ٢١١ .

٧ ـ انظر : الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٤٦ ـ ٢٤٨ .

٥ ــ يقول الطبرى إن : ظاهر الآية <١> للعموم ، وبهذا قال الجمهور <٢> .

إلا أن الألوسى يرى أن ظاهر الآية فى المنافقين <٣> ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها : إذا حَدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وَعَدَ أخلف ، وإذا خاصم فجر "<٤> .

وأما تفسير قوله :

وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ <٥>

فالمراد بالإفساد فى الأرض تغيير ما أمر الله بحفظه من الأفعال والأقوال والعبادات ، أو الإضرار بالناس <٦> .

وكذلك الصدّ عن طاعة الله وطاعة رسوله والالتزام بأوامرهما ، لأن إتمام الصلاح فى الأرض الطاعة والالتزام بشرائع الله وحدوده <٧> .

وأما تفسير قوله :

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ <٨>

---

١ ــ سورة البقرة : ٢٧ .

٢ ــ انظر : جامع البيان ١ : ١٤٥ ، وفتح القدير ١ : ٥٨ .

٣ ــ انظر : روح المعانى ١ : ٢١٠ ، ٢١١ .

٤ ــ صحيح مسلم ١ / ٧٨ كتاب الإيمان / باب بيان خصال المنافق .

٥ ــ سورة البقرة : ٢٧ .

٦ ــ انظر : فتح القدير ١ : ٥٨ .

٧ ــ انظر : التفسير الكبير ٢ : ١٤٧ ، بتصرف .

٨ ــ سورة البقرة : ٢٧ .

فمعناه : الذين استبدلوا الطريق المستقيم بطريق الهلاك والضلال والخسران ، لإصراهم على الكفر كما قال تعالى :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ ‹١›

فوصفهم الله تعالى بالخاسرين ، لأنهم حرموا من رحمته التى وسعت كل شىء ، بسبب ضلالهم وكفرهم وتكذيبهم لرسل الله وجحودهم لما آتاهم الله من البينات ‹٢› .

ويحث سبحانه وتعالى بنى إسرائيل على وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق ، ثم يعدهم بالثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة ، فيقول عز وجل :

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ ‹٣›

يقول ابن كثير :

" هذه الآية فيها انتقال من الترغيب إلى الترهيب ، لعلهم يرجعون عن الضلال إلى الحق ، باتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لم يوفوا بما أمروا به ، بل أصروا على نقض المواثيق والعهود ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل والفساد فى الأرض ‹٤› .

---

١ ـ سورة الشورى : ٤٥ .

٢ ـ انظر : جامع البيان ١ : ٤١٧ ، بتصرف .

٣ ـ سورة البقرة : ٤٠ .

٤ ـ انظر : ابن كثير ١ : ١٤٤ ، ١٤٥ .

كما وصفهم بقوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ‹١›

فهذه صفاتهم الذميمة ، وأخلاقهم الدنيئة ، وهى مضادة لصفات المؤمنين الذين وصفهم الله بقوله :

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ‹٢›

ويؤخذ من الآيات السابقة أن للمؤمنين عقبى الدار فى الجنة ونعيمها لوفائهم بالعهود والمواثيق ، وللكافرين سوء الدار فى جهنم لنقضهم العهود والمواثيق ، كما قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ‹٣›

وذلك بسبب الغدر وعدم الوفاء بما عاهدوا الله عليه كما يشير إليه قوله تعالى :

وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ‹٤›

---

١ ـ سورة الرعد : ٢٥ .

٢ ـ سورة الرعد : ٢٠ ـ ٢٢ .

٣ ـ سورة الرعد : ٢٥ .

٤ ـ سورة الأحزاب : ١٥ .

فالموصوفون فى الآية الكريمة كانوا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التخلف عن الجهاد والقتال ونصرة الإسلام بالحجج الواهية حتى يتخلفوا عن الجهاد .

وقيل : نزلت الآية فيمن تخلف عن غزوة بدر ، وقيل : نزلت فيمن تخلف عن غزوة أحد ، وقيل : إنها نزلت فيمن فَرَّ يوم غزوة الخندق ‹١› .

ولا مانع من تعدد الأسباب والمنزل واحد .

والتعبير بالفعل الماضى فى قوله : (وكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً) لتحقق الوقوع ، ووجوب العلم بأن مسئولية الوفاء بالعهد واقعة حتى يوفى به ، لأن صاحبه سيجازى عليه يوم القيامة ، وكأن العهد أشبه بكائن حَىٍّ يقوم فى الناس مقام الرسول المبلِّغ عن الله تعالى ، ولذا يَسأل عن من أَوْفَى ، وعن من نكَث ، يُسأل كما يُسأل الرسل عن مَنْ آمن وعن من كفر ‹٢› .

وأما تفسير قوله تعالى :

وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ‹٣›

ففيها عدة وجوه :

١ ـ أن المراد بالعهد الثانى صاحبه ، مثل قوله تعالى :

وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ‹٤›

فالمراد بالسؤال هنا أهل القرية .

٢ ـ أن المراد بالعهد ما هو مطلوب من المعاهد أن يفى به ولا يضيعه .

---

١ ـ انظر : جامع البيان ٢١ : ٨٧ ، وروح المعانى ٢١ : ١٦٢ .

٢ ـ انظر : التفسير الكبير ٢٠ : ٢٠٦ ، وروح المعانى ١٥ : ٧١ ، ٢١ : ١٦٢ .

٣ ـ سورة الإسراء : ٣٤ .

٤ ـ سورة يوسف : ٨٢ .

٣ ـ أن يكون الكلام على سبيل التخييل والتمثيل ، وكأن العهد يمثل بكائن حي ، يقال له : لم نُكثت ؟ وهلا وُفِّي بك ؟ تبكيتاً للناكث <١> كما يقال للموءودة :

بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ <٢>

وأرى أن المراد بقوله تعالى : إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا <٣>

أي مطلوباً من المعاهد الوفاء به ، لأن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أمرا أن يفي جميع الناس بعهودهم ومواثيقهم التي عاهدوا عليها ، سواء كانت بينهم وبين أنفسهم أو بينهم وبين غيرهم ، حيث إن الوفاء بالعهود والمواثيق من صفات المتقين المحافظين على عهودهم لقوله :

وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ <٤>

فيلزم الوفاء بالعهود والعقود ، كعقود البيع والشراء ، والشركة ، وعقد اليمين والصلح ، وعقد النكاح ، والعهود التي بين أهل السلم وأهل الحرب .

ومن الآيات التي تؤكد وجوب الوفاء بالعهود ، فضلاً عما ذكرت ، قوله عز وجل :

وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ
بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ
غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا
بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ
ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ

<٥>

---

١ ـ انظر : التفسير الكبير ٢٠ : ٢٠٦ ، وروح المعاني ١٥ : ٧١ ، بتصرف .

٢ ـ سورة التكوير : ٩ .

٣ ـ سورة الإسراء : ٣٤ .

٤ ـ سورة المؤمنون : ٨ ، والمعارج : ٣٢ .

٥ ـ سورة النحل : ٩١ ، ٩٢ .

يقول ابن كثير : « الله تعالى يأمر بالوفاء بالعهود والمواثيق ، ويحث على المحافظة على الأيمان المؤكدة » فيقول :

وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ‹١›

ولا تعارض بين هذه الآية السابقة وبين قوله تعالى :

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ‹٢›

وكذلك لا تعارض بينها وبين قوله تعالى :

ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ‹٣›

أى لا تتركوها بلا كفارة ، أو احفظوا أنفسكم من الحنث فيها ، أو لا تبذلوها وأقلوا منها ، أو احفظوها ولا تنسوا كيف حلفتم تهاوناً بها ، قال الألوسى : " وصحح الشهاب الأول " ‹٤› .

والمرادُ بهذه الأيمانُ التي تكون داخلة في العهود والمواثيق ، وليس الأيمان التي تكون واردة على حث أو منع ‹٥› .

ولهذا قال مجاهد وقتادة : نزلت في حلف أهل الجاهلية .

ويشهد لهذا التأويل ما أخرجه مسلم بسنده ، عن جُبَيْر بن مُطْعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لا حِلْفَ في الإسلام ، وأيُّما حِلْفٍ كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلاَّ شدَّة " ‹٦›

---

١ ـ سورة النحل : ٩١ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٢٤ .

٣ ـ سورة المائدة : ٨٩ .

٤ ـ انظر : روح المعانى ٧/ ١٥ .

٥ ـ انظر : ابن كثير ٤ : ٢٢١ .

٦ ـ صحيح مسلم ٤:١٩٦١/كتاب فضائل الصحابة /باب مؤاخاة النبى صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضى الله عنهم .

وقوله :(لا خلف فى الإسلام) المراد به حلف التوارث ، والحلف على منع الشرع منه/صحيح مسلم بشرح النووى ١٦ : ٨٢ /مؤاخاة النبى صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضى الله عنهم .

وقد اختلف فيمن نزلت الآية السابقة <١> على قولين :

١ ـ أن المراد بهم الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام فقال : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ) أى هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام ولا تنقضوها ، ولا يحملنكم قلة المسلمين ، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام <٢>

٢ ـ أن المراد تحالف أهل الشرك في الجاهلية ، وإقرار الإسلام به لقوله صلى الله عليه وسلم : " شهدتُ حِلْف المُطَيبين مع عمومتى وأنا غلام ، فما أحبُّ أن لى حُمرَ النَّعمَ وأنى أنكثه " <٣> لأن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه <٤> .

قال ابن هشام :

تداعت قبائل من قريش إلى حلف ، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لُؤَيّ ، لشرفه وسنهً ، فكان حلفهم عنده : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسَد بن عبد العُزَّى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظَلَمَه حتى تُرد عليه مَظْلمته ، فسمت قريش ذلك الحلفَ حلف الفضول <٥> .

---

١ ـ سورة النحل : ٩١ .

٢ ـ انظر : ابن كثير ٤ : ٢٢١ .

٣ ـ مسند الإمام أحمد ٣ : ١٢٢ ، شرحه وصنع فهارسه / أحمد محمد شاكر / وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

٤ ـ ابن كثير ٤ : ٢٢١ .

٥ ـ سيرة ابن هشام ١ : ١٣٣ ، ١٣٤ / تحقيق مصطفى السقا ، وابراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي ـ القاهرة .

وقريش تعلم أن كل يمين يلتزم به الإنسان باختياره يجب الوفاء به ، ويدخل فيه الوعد ، والعهد .

والظاهر أن العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه مما يلتزم به المرء باختياره ، كالبيوع ، والنذر ، وكل ما أكد بيمين وعوهد عليه .

وينفي الخازن قول القتيبي : إن العهد يمين وكفارته كفارة اليمين ، فعلى هذا يجب الوفاء به إذا كان فيه صلاح ، أما إذا لم يكن فيه صلاح فلا يجب ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " من حلف يميناً ، فرأى غيرها خيراً منها ، فليأت الذي هو خيرٌ ، وليترك يمينَه " <١> أي فليحنث فيهـا ثـم يكفر ، ثم فسَّر الخازن قوله عز وجل :

وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا <٢>

بقوله : أي تشديدها فتحنثوا فيها ، وفيه دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لأنه أعم منها . <٣>

ويضرب سبحانه وتعالى مثلاً في غاية البلاغة والإعجاز للذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم بأن شبَّههم بالمرأة الخرقاء التي كانت بمكة كلما غزلت صوفها وأحكمته نقضته بعد إبرامه وإصلاحه ، يقول عز وجل :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا <٤>

قال مجاهد وغيره : هذا مثل لكل من نقض العهود بعد توكيدها ، وهذا القول أرجح وأظهر ، سواء كانت امرأة تنقض غزلها أم لا <٥> .

---

١ ـ صحيح مسلم ٣: ١٢٧٣ / كتاب الأيمان /باب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها ، أن يأتي الذي هو خير ويكفر يمينه .

٢ ـ سورة النحل : ٩١ .

٣ ـ انظر : الخازن وبهامشه البغوي ٤ : ٩١ .

٤ ـ سورة النحل : ٩٢ .

٥ ـ ابن كثير ٤ : ٢٢٢ .

فإن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن الغدر في هذه الحالة ، فمن باب أولى أن ينهى عن الغدر مع التمكين ، لأنهم كانوا إذا تحالفوا مع الناس ، وكانوا أكثر منهم اطمأنوا إليهم ، وإذا أمكنهم الغدر بهم غدروا .

قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز ، فنهوا عن ذلك . ‹١›

والله تعالى ينهانا بشكل قاطع عن نقض العهود والمواثيق والأيمان ، وأن نطلب بنقضها عوضاً من الدنيا ، وأن ما عند الله باق ، وأن متاع الدنيا زائل ، وفي ذلك يقول تعالى : وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ‹٢›

إن ما عند الله تعالى من حسن الثواب ، وجزيل العطاء في الآخرة دائم للصابرين ، الملتزمين بالوفاء بعهودهم ومواثيقهم في الجنة ونعيمها . ‹٣›

وقيل : النهى عن أخذ الأقوال لترك ما يجب فعله كأخذ الرشوة .

وقد كانت قريش تعد بالأماني من يرتد عن الإيمان وإتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، بعوض يسير في متاع الدنيا ‹٤› .

---

١ ـ انظر : ابن كثير ٤ : ٢٢٢ .

٢ ـ سورة النحل : ٩٥ ، ٩٦ .

٣ ـ انظر : الخازن وبهامشه البغوى ٤ : ٩٢ ، بتصرف .

٤ ـ انظر : جامع البيان ١٤ : ١١٤ ، وروح المعانى ١٥ : ٤٢٤ ، ومحاسن التأويل للقاسى ١٠ : ٣٨٥٥ .

والمؤمنون حَصَّنهم الإيمان من الغدر ، سواء كان العهد على أنفسهم أو مع غيرهم ، لقوله سبحانه وتعالى :

وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ‹١›

يقول سيد قطب : " الميثاق الذي واثق الله به الأمة المسلمة ، القوامة على البشرية بالعدل ، الذي لا يتأثر بالقرابة أو المصلحة أو الهوى في حال من الأحوال .

والعدل المنبثق من القيام لله وحده ، والشعور برقابته وعلمه الذي وسع كل شيء .

وذكر الله المسلمين بميثاقهم الذي واثقهم به ، وذكرهم نعمته التي أنعم بها عليهم في هذا الميثاق ، وذلك كي يؤدوا من جانبهم ما استحفظوا عليه ، ويتقوا أن ينقضوا ميثاقهم معه ‹٢› .

ويرد سؤال ما هو المراد بالميثاق الذي واثق الله تعالى به عباده ؟ والجواب من عدة أوجه :

١ ـ أن المراد به الميثاق الذي أخذ عليهم وهم في ظهور آبائهم ، حيث يقول عز من قائل :

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ‹٣›

---

١ ـ سورة المائدة : ٧ .

٢ ـ انظر : في ظلال القرآن ٢ : ٨٥٢ ، ٨٥٦ .

٣ ـ سورة الأعراف : ١٧٢ .

وهذا إقرار من جميع الخلق ، قبل أن يخلقهم الله ، بالولاء والطاعة والانقياد لله خاضعين ، والاعتراف بربوبيته مقرين بواحد انيته .

٢ ـ أن المراد بالميثاق الذي واثق الله به المؤمنين هو العهد الذي بايعوا عليه النبي صلى الله عليه وسلم عند إسلامهم « على السمع والطاعة في المنشط والمكره » ⟨١⟩ لقوله تعالى :

لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ
فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ⟨٢⟩

والميثاق الذي واثق عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين هو ميثاق الله تعالى الذي ذكره في قوله عز وجل :

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ
أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⟨٣⟩

وقد ألزم سبحانه وتعالى عباده بهذا الميثاق ، لأن كل من دخل في الإسلام لابد أن يلتزم به ، لأنه لا إيمان دون استجابة ، ولا استجابة دون امتثال وطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

ولذا وجب على المؤمنين أن يخافوا الله تعالى ، ويراقبوه ، ولا ينقضوا عهودهم ومواثيقهم ، ولأنه سبحانه وتعالى هو الذي أخذ عليهم الميثاق وألزمهم به ، فهو مطلع على الضمائر والسرائر ، وعالم بما تخفيه نفوس عباده ، ولا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض ، فعليهم أن يلتزموا بكل أوامره ، لئلا تحل

---

١ ـ انظر : صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٣ : ٥ كتاب الفتن / باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : سترون بعدى أموراً تنكرونها ، وانظر : الطبرى ١٠ : ٩١ ، وابن كثير ٢ : ٣٠ .

٢ ـ سورة الفتح : ١٨ .

٣ ـ سورة الحديد : ٨ .

عليهم العقوبة والهلاك ، كما حلت على الأمم السابقة لنقضهم العهود والمواثيق ، كبعض أهل الكتاب وغيرهم ‹١› .

وإذا قلنا : إن الميثاق هو العهد الذي عاهد عليه المؤمنون نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، فقد استجابوا لقوله تعالى :

إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ‹٢›

ولم يكن اهتمام القرآن بالمواثيق والعهود في الإسلام فقط ، بل كان منذ القدم عندما أرسل الله تعالى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام إلى الأمم ، فالأنبياء جميعاً قد أخذ الله عليهم الميثاق وألزمهم أن يصدق بعضُهم بعضاً ، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته ، فبلغت الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم ، وأخذ عليهم فيما بلغتهم رُسلهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويصدقوه وينصروه ‹٣› وفي ذلك يقول تعالى :

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ‹٤›

---

١ ـ انظر : جامع البيان ٩٣:١٠ ، وابن كثير ٢ : ٣٠ ، وحاشيه الصاوى على الجلالين ٢٧٢:١ ، بتصرف .

٢ ـ سورة المائدة : ٧ .

٣ ـ انظر : جامع البيان ٦ : ٥٥٥ .

٤ ـ سورة آل عمران : ٨١ .

فهذا الميثاق الذي أخذ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عامة هو أن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى عباده بتوحيده والإخلاص له ، لقوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (١)

ولم يدَّع أحد ممن صدق المرسلين أن نبيًا أرسل إلى أمة بتكذيب أحد من أنبياء الله عز وجل ، لكن يصدق بعضهم بعضاً ويؤمن به ، سواء أدركه أم لم يدركه ، فإن أدركه آمن به ، وإن لم يدركه يأخذ الميثاق على قومه بالإيمان به (٢) .

كما يقول عز وجل :

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (٣)

فهذا هو الميثاق الذي أخذه الله على النبيين ، أن يصدق بعضهم بعضاً . ثم قال عز وجل :

﴿ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ ﴾ (٤)

فكل منهم مكلف قبل وفاته أن يأخذ الميثاق على قومه أن يؤمنوا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ويصدقوه وينصروه ، وهذا تكريم خاص لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

---

١ ـ سورة الأنبياء : ٢٥ .

٢ ـ انظر :جامع البيان ٦ :٥٥٧ ،والفتوحات الالهية ١/ ٢٩٢ ،وتفسير الخازن وبهامشه البغوى ١ :٣١٢ .

٣ ـ سورة البقرة : ١٣٦ .

٤ ـ سورة آل عمران : ٨١ .

وحينما أخذ الميثاق على النبيين كأنه أخذ على الأمم التي كلفها بالإجابة ، بما أوحى تعالى به إلى الأنبياء والمرسلين ، ثم قال النبيون الذين أخذ عليهم الميثاق ، كما ذكر في هذه الآية : أقررنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدقين لما معنا من كتبك ، وبنصرتهم . ، ثم قال تعالى :

(وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ) أي وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم ‹١› .

ثم يثني عز وجل على الموفين بالعهود والمواثيق بقوله تعالى :

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ‹٢›

ونزلت هذه الآية في أنس بن النضر ‹٣› ، وذلك كما جاء في الصحيح أن أنس بن النضر غاب عن بدر فقال : يارسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرينَّ الله ما أصنع .

فلما كان يوم أحد ، وانكشف المسلمون ، قال : " اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعني أصحابه ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ، يعني المشركين ، ثم تقدم ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : ياسعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ‹٤› إني أجد ريحها من دون أحد ، فقال سعد : فما استطعت يارسول الله ما صنع .

---

١ ـ انظر : جامع البيان ٦ : ٥٥٨ ، وابن كثير ١ : ٣٧٧ ، والفتوحات الإلهية ١ : ٢٩٢ .

٢ ـ سورة الأحزاب : ٢٣ .

٣ ـ صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٨ : ٥١٨ / كتاب التفسير قوله (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) الأحزاب : ٢٣ .

٤ ـ في قوله : " الجنه ورب النضر " كأنه يريد والده ، ويحتمل أن يريد ابنه حيث كان لأنس ولد يسمى النضر وكان إذ ذاك صغيراً / فتح الباري ٦ : ٢٢ .

قال أنس <١> : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجَدْناه قد قُتِل ، وقد مَثَّل به المشركون فما عرفهُ أحدٌ إلا أخته ببنانه. قال أنس : كنا نرى ـ أو نظن ـ أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه :

(مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ) إلى آخر الآية <٢> .

فهؤلاء المؤمنون قاموا بما عاهدوا الله عليه ، ووفوا به (فمنهم من قضى نحبه) يعنى فرغ من نذره ، ووفى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استشهد ، وقيل : (قضى نحبه) أى أجله ، فقتل على الوفاء ، ويعنى به حمزة وأصحابه ، وقيل : (قضى نحبه) يعنى بذل جهده في الوفاء بالعهد ، وقيل : (قضى نحبه) استشهد يوم أحد . (ومنهم من ينتظر) يعنى من بقى بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون أحد الآمرين إما الشهادة أو النصر على الأعداء .

(وما بَدلوا تبديلاً) أى ما غيروا وما نكثوا عهودهم ومواثيقهم <٣> بخلاف المنافقين الذين بَدَّلُوا أقوالهم وولَّوْا عن الجهاد جُبْناً وفِرارا بأرواحهم <٤> تم سجل الله تعالــى عليهــم هــذا الفرار والتولى عن القتال ، ونقض العهود والمواثيق ، بقول تعالى :

وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا <٥>

---

١ ـ يريد به أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، الذى روى الحديث .

٢ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٦ : ٢١ / كتاب التفسير / باب قوله عز وجل ٢٣ الأحزاب (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليــه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) ٧ : ٣٥٥ / كتاب المغازى (باب غزوة أحد) .

٣ ـ انظر : الخازن بهامشه البغوى ٤ : ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

٤ ـ انظر : التفسير الكبير ١٣ : ١٣٩ .

٥ ـ سورة الأحزاب : ١٥ .

فنكث المنافقون عهودهم ومواثيقهم وغدروا بمن عاهدوه ، وفي مقابل هؤلاء المؤمنون الموفون بعهودهم ومواثيقهم ، قد وعدهم الله سبحانه وتعالى بجزيل العطاء والثواب العظيم لوفائهم ، وفي ذلك يقول تعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟
بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (١)

فهنا شبه الله تعالى بذل المؤمنين أنفسهم وأموالهم ابتغاء رضوانه وامتثالاً لطاعته ، واتباعاً لأمره لإعلاء كلمة التوحيد ، والجهاد في سبيله ، ونصرة الإسلام والمسلمين ، ثم ما نالوه من الكريم سبحانه وتعالى ، على ما بذلوه من التضحيات من النعيم الدائم في الجنة ـ شبه ذلك بصورة عقد بين متبايعين ، المؤمنون المبايعون ، والله جل شأنه المشترى ، والثمن الجنة ، والضمان الكتب السماوية ، فأعظمْ به من عقد رابحٍ لا خسارة فيه ، لأنه أكرم الأكرمين .

ولذا كان الوفاء بالعهود والمواثيق من أهم أسباب استقرار المجتمع الإسلامي ، وأعظم ما حث الله تعالى به عباده ، لما يترتب على الوفاء به من سعادة في الدنيا والآخرة .

ونلاحظ أن الله سبحانه وتعالى أوجب ضرورة الالتزام بالمواثيق والعهود ، لما لها من آثار نافعة ، دينية ودنيوية ، ولقد توالت الآيات القرآنية على حث بنى إسرائيل بالالتزام بالعهود والمواثيق ، لأن الأكثر منهم ضيعوها تهاوناً بها

---

١ ـ سورة التوبة : ١١١ .

واستخفافاً بأدائها ، حيث يقول سبحانه وتعالى :

وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ
إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ
وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا
نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا
ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾
وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ
فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ
بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (١)

هذه الآية من سورة المائدة أنزلها الله عز وجل إعلاماً لنبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به يخبره عن أخلاق اليهود الذين بسطوا ايديهم إليه بالغدر والخيانة ونقض المواثيق والعهود التى كانت بينهم وبين المسلمين وإن هذه صفاتهم وصفات أوائلهم ، وأخلاقهم وأخلاق أسلافهم ، قديماً وحديثاً ، وفيها احتجاج للنبى صلي الله عليه وسلم بإطلاعه على ما كان عندهم من العلم والمعرفة بصفاته وبعثته ، وتوبيخ لهم على ما هم عليه من الضلال والاصرار على الكفر مع علمهم بخطئهم المقيمين عليه . (٢)

---

١ ـ سورة المائدة : ١٢ ـ ١٤ .

٢ ـ انظر : جامع البيان : ١٠ / ١٠٩ ـ ١١٠ « باختصار وتصرف » .

وقوله (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل) « كلام مستانف مشتمل على بعض ما صدر عن بنى إسرائيل من الخيانة ونقض الميثاق ، وما أدى إليه ذلك من التبعات ، مسوق لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله ومراعاة حق الميثاق الذى واثقهم به ، وتحذيرهم من نقضه .

وإظهار الاسم الجليل (الله) لتربية المهابة ، وتفخيم الميثاق وتهويل الخطب في نقضه . ‹١›

(وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً) أى بعثنا من بنى إسرائيل ـ اثنى عشر كفيلاً كلفوا بالوفاء بما وثقوا به من العهود ، فيما أمرهم به الله ونهاهم عنه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « النقيب » الضمين ، وقال قتاده الشهيد على قومه ، وقال الربيع : الأمين ‹٢› وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى .

ومما تقدم يتضح لنا أن بنى إسرائيل جبلوا على الإخلال بالمواثيق ونقض العهود ، حيث إن ذلك من صفاتهم فَنَبَذْنَهُمْ الخيانة والبغضاء والغدر والكذب وتحريف ما أنزل الله تعالى ، وكتمان الحق بعد ظهوره ، وتكذيب أنبياء الله ، وقتلهم بغير حق ، وسفك الدماء وغير ذلك .

فبسبب ذلك كله لعنهم الله تعالى وأبعدهم عن رحمته وفي ذلك يقول تعالى :

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ‹٣›

وهذا فضلاً عن أفعالهم الشنيعة وصفاتهم الدنيئة التي أفسدت فطرتهم ، ودنست نفوسهم ، وقَسَتْ قلوبهم ، فلم يتعظوا بما أمرهم الله تعالى ، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه ، بل ضيعوا حدوده ، وبدلوا وحرفوا كلامه ، ثم تركوا العمل به ، وطمسوا نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي جاءت في كتبهم ، ولكن الله تعالى كشف أمرهم لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين له غدرهم ومكرهم ،

---

١ ـ تفسير ابى السعود : ٣ / ١٤ .

٢ ـ تفسير الخازن وبهامشه البغوى : ٢ / ٢١ .

٣ ـ سورة النساء : ٥٢ .

وأن حاضرهم ليس بأفضل من ماضيهم لأن صفاتهم وأفعالهم الخبيثة كانت في القديم والحديث <١> ثم استثنى سبحانه وتعالى منهم العدد القليل فقال تعالى : (إلاَّ قَلِيلاً مِّنهُمْ) <٢> أى الذين لم يخونوا ولم يغدروا ، كعبد اللّه به سلام ، ومن أسلم معه مثل : أسد بن سعية ، وأسيد بن سعية ، وزيد بن سعية ، ومخيريق ، هؤلاء أسلموا من اليهود فقبل اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم هذه الطائفة التي سلَّمت وأسلمت من اليهود ، وتبرأت من أفعال قومهم الشنيعة ، وذلك حينما خرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه ، يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر ، وكان بين بنى النضير وبني عامر عقد وحلف ، فقالوا : نفعل ياأبا القاسم ، اجلس هنا حتى نقضى حاجتك ، وخلا بعضهم ببعض ، وَسوَّل الشيطان لهم ، فتآمروا على قتل النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقال بعضهم لبعض : أيكم يأخذ هذه الصخرة ، ويصعد بها فيلقيها على رأسه يشدخه بها ؟ فقال عمرو بن جَحَّاش : أنا ، فقال لهم سلام بن مِشْكم : لا تفعلوا فواللّه لَيُخْبَرَنَّ بما هممتم به ، وإنه لنقضٌ للعهد الذي بيننا وبينه .

فأطلع اللّه تعالى نبيه على ما قد هموا به بالوحى ، ونهض صلى الله عليه وسلم مسرعاً ، وتوجه إلى المدينة ، ثم لحقه أصحابه ، وقالوا له : نهضت مسرعاً ولم نشعر بك ، ثم أخبرهم بما همت به اليهود <٣> ، ولكن اللّه تعالى أمره بالعفو فقال له : فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ <٤>

---

١ ـ انظر : جامع البيان ١٠ : ١٣٣ ، وابن كثير ٢ : ٢٥٧ ، وحاشية الصاوى على تفسير الجلالين ١ : ٢٧٢ .

٢ ـ سورة المائدة : ١٣ .

٣ ـ انظر : سيرة ابن هشام ٣ : ٢٤٠ ، ٢٤١ ، باختصار .

٤ ـ سورة المائدة : ١٣ .

ليحصل لهم التأليف ، ولعل الله يهديهم إلى الإسلام ، ثم نسخ هذا بقوله تعالى :

﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ ‹١›

وهذا قول قتادة ‹٢› .

ويقول سيد قطب في تفسير الآية الكريمة (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ) العفو عن قبائحهم إحسان ، والصفح عن خيانتهم إحسان إلى أن جاء الوقت الذي لم يعد فيه للعفو والصفح مكان .

فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجليهم عن المدينة ، ثم يأمره ثانياً بإجلائهم عن الجزيرة العربية كلها . ‹٣›

---

١ ـ سورة التوبة : ٢٩ .

٢ ـ جامع البيان للطبرى ١٠ / ١٣٤ " المحقق " .

٣ ـ انظر : فى ظلال القرآن ٢ : ٨٦٠ ، بتصرف يسير .

المجتمع الإسلامي كما يصوره الفصل الأول

إن من أهم أسباب استقرار المجتمع الإسلامى الوفاء بالعهود .

ومما تقدم يتبين أن الوفاء بالعهود والمواثيق خلق نبيل عرفه العرب قبل الإسلام ، وكانوا يفتخرون به ويمدحون الغير به ، ولما جاء الإسلام أشاد بهذا الخلق ، وحث الناس عليه . والقرآن الكريم أكد هذا الخُلقَ في الكثير من آياته البينات ، كما أكدت عليه السنة المطهرة .

والله سبحانه وتعالى أثنى على الذين يوفون بوعودهم ، وعهودهم ومواثيقهم ، ووعدهم بحسن العطاء ، وجزيل الثواب في الدنيا والآخرة .

كما أنه تعالى ذَمَّ وهدد الذين ينقضون العهود والمواثيق ، وتبيَّن أن هذا الخلق الدنيء من أخص صفات الكافرين والمنافقين .

وما ذاك إلا لأن هذا الخلق ذميم ، والغدر وعدم الوفاء بالعهود والمواثيق يعطلان مصالح الناس في المجتمع الإسلامي ويفقدان الثقة في المؤمنين ، ويولدان بينهم العداوات والأحقاد والخلافات ، وبذلك يدب الفساد ، ويعم الضلال في المجتمع الإسلامي ، الذي أراد الله تعالى له أن يكون مجتمعاً قوياً متعاوناً ، متعاطفاً قوي الأساس ، متين الأركان ، شامخ البنيان ، يشد بعضه بعضاً ، لأن المجتمع الإسلامي لا يستقر أمره إلا بالالتزام بهذا الخلق الكريم .

الفصل الثانى

التعاون على البر والتقوى دون الإثم والعدوان

الله تعالى يأمر عباده المؤمنين ويحثهم على البر والتقوى ، وينهاهم عن الإثم والعدوان لأن البر والتقوى من أقوى وأهم أسباب استقرار المجتمع الإسلامي .

والكلام في هذا الفصل يدور حول المعنى الذي تضمنه قوله عز وجل :

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ ‹١›

والبِرُّ ـ بكسر الباء ـ في اللغة : مصدر : بَرَّ ـ **بفتح الباء** ـ يَبَرُّ ـ **بفتح الباء** ـ إذا صلَحَ . ‹٢›

ولما كان البَرُّ ـ **بفتح الباء** ـ خلاف البحر ، وتُصُوِّرَ فيه التوسُّع ، اشتق منه البِرُّ ـ **بكسر الباء** ـ أي التوسع في فعل الخير . ‹٣›

ويقال : بَرَّ في يمينه ، يَبَرُّ ، إذا صَدَقه ولم يحنث . ‹٤›

وبَرَّت يمينهُ ، تَبَرُّ ـ **بفتح الباء** ـ وتَبِرُّ ـ **بكسرها** ـ بَرّاً ـ **بفتحها** ـ وبِرّاً ـ **بكسرها** ـ وبُرُوراً : صَدَقت .

وأبَرَّها : أمضاها على الصدق . ‹٥›

ويقال : بَرَّ رحمه ، يَبَرُّ (**بفتح الباء**) إذا وصله . ورجلٌ بَرٌّ بذى قرابته ، وبارٌّ . والمصدر : البِرُّ .

---

١ ـ سورة المائدة : ٢ .

٢ ـ اللسان (برر) ٤ / ٥١ ـ ٥٦ .

٣ ـ مفردات ألفاظ القرآن : (برر) ٣٧ ـ ٣٨ .

٤ ـ اللسان (برر) ٤ / ٥١ ـ ٥٦ .

٥ ـ المصدر السابق (برر) ٤ / ٥١ ـ ٥٦ .

وفلان يَبَرُّ ـ **بفتح الباء** ـ ربَّه ، أى يطيعه . والله يَبَرُّ ـ **بفتح الباء** ـ عبادَه ، أى يرحمهم . ‹١›

ويقال : بَرَرْتهُ بِرًا (**بكسر الباء**) أى وصلتُه . قال الله عز وجل :

أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ‹٢›

وبِرُّ الوالدين : التوسُّع في الإحسان إليهما ، وضده العقوق .

ويقال : بَرَّ والدَه ، يَبَرُّه ـ **بفتح الباء** ـ بِرًا ـ **بكسرها** ـ إذا لم يَعُقَّه . ‹٣›

والوصف منه : بَرٌّ ـ بفتح الباء ـ وعلى ذلك قوله عز وجل :

وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ‹٤›

وقوله تعالى :

وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ‹٥›

وحج مبرور ، أى مقبول .

والبَرُّ : الصادق ، ويستعمل البِرَّ في الصدق ، لكونه بعض الخير المتوسَّع فيه ، يُقال : بَرَّ في قوله ، وبَرَّ في يمينه . ‹٦›

والبَرُّ من صفات اللّه تعالى ، أى العطوف الرحيم ، قال تعالى :

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ‹٧›

---

١ ـ اللسان (برر) ٤ / ٥١ ـ ٥٦ .

٢ ـ سورة الممتحنة : ٨ .

٣ ـ اللسان (برر) ٤ / ٥١ ـ ٥٦ .

٤ ـ سورة مريم : ١٤ .

٥ ـ سورة مريم : ٣٢ .

٦ ـ اللسان : (برر) ٤/٥١ ـ ٥٦ ومفردات الراغب : (برر) ٣٧ ـ ٣٨ .

٧ ـ سورة الطور : ٢٨ .

والبَرُّ والبارُّ :بمعنى واحد ، وإنما جاء في أسماء الله تعالى البَرُّ دون البارِّ.

وجمع البَارِّ : أَبْرَارٌ وبَرَرَةٌ ، وكثيراً ما يخص الأبرار بالأولياء والزهاد والعُبّاد ، قال تعالى :

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ‹١›

والبررَةُ : خص بها الملائكة ، كما قال تعالى :

كِرَامٍ بَرَرَةٍ ‹٢›

أى من حيث إنه أبلغ من أبرارٍ ، فإنه جمع بَرّ ، وأبْرَارٌ جمع بارّ ، وبَرٌّ أبلغ من بارّ . ‹٣›

ويمكن أن نجمع بين هذه المعانى السابقة فنقول : إن البِرّ هو الصدق والطاعة والصلاح والتوسع في الخير .

وقد جاء لفظ " البِرّ " ومشتقاته كثيراً في القرآن لعدة معان ، ولكنها لا تخرج عن معانيه اللغوية منها :

١ ـ **طاعة الله عز وجل** ، وذلك بامتثال أوامره واتباع شرائعه ، كقوله تعالى :

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ
ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ‹٤›

---

١ ـ سورة المطففين : ٢٢ .

٢ ـ سورة عبس : ١٦ .

٣ ـ اللسان (بَرر) ٤ / ٥١ ـ ٥٦ ومفردات الراغب (برر) ٣٧ ـ ٣٨ .

٤ ـ سورة البقرة : ١٧٧ .

ومعنى الآيات الكريمة أنه لما أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بالتوجه إلى بيت المقدس ، ثم حوّلهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب ، وبعض المسلمين ، فأنزل اللّه تعالى بيان حكمته في ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعته جل شأنه ، وامتثال أوامره ، والتوجه حيثما وجّههم ، واتباع ما شرع لهم من البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس في لزوم التوجه إلى جهة المشرق أو المغرب برٌّ ولا طاعة إن لم يكن عن أمر اللّه تعالى وشرعه . ‹١›

ورجح الطبري قول قتادة والربيع ، وهو :

" كانت اليهود تصلى قبلَ المغرب ، والنصارى قبل المشرق ، ثم قال : " لأن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولَومهم وبما أُعد لهم من عذاب أليم " .

وعلى ذلك فالمراد : ليس البر أيها اليهود والنصارى أن يولى بعضكم وجهه قبل المشرق ، والبعض الآخر قبل المغرب . ‹٢›

وكان أهل الجاهلية كذلك يدخلون البيوت من ظهورها إذا كانوا محرمين ، ويعتقدون أنه البر ، فأعلمهم اللّه سبحانه وتعالى على لسان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بخطئهم ، وبين لهم أنه عمل متكلف لا سند له ، ولا يؤدى إلى شىء من البر ، ولكن البر الحقيقى هو ما قاله تعالى :

وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ‹٣›

فليس هذا الفعل إلا عادة من عادات الجاهلية الباطلة ‹٤›

---

١ ـ انظر : ابن كثير ١ : ٣٦٥ .

٢ ـ جامع البيان ٣ : ٣٣٨ " المحقق " .

٣ ـ سورة البقرة : ١٨٩ .

٤ ـ انظر : تفسير أبى السعود ١ : ٢٠٣ ، والنسفى ١ : ٩٨ .

ويؤيد ذلك ما جاء في الصحيح :

عن البراء قال : " كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره "‹١›

فأنزل الله :

وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا
وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ‹٢›

وورد أيضاً في الصحيح :

عن أبى إسحاق قال : سمعت البراء رضى الله عنه يقول : " نزلت هذه الآية فينا ، كانت الأنصار إذا حجوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ، ولكن من ظهورها ، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه ، فكأنه عُيِّر بذلك . ‹٣›

فنزلت (وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ)

وكانت هذه عادة لهم في السفر وفى الحج ، ويعتقدون أن هذا من البر والخير ، ثم جاء القرآن الكريم ليبطل هذا العمل المتكلف الذي لا سند له ، ولا يؤدى إلى شىء من أنواع البر .

ويُبَيِّنُ أن البر الحقيقى هو تقوى الله تعالى ، ومراقبته في السر والعلانية ، والائتمار بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه .

---

١ ـ صحيح البخارى ، بشرح فتح البارى ٨ : ١٨٣ / كتاب التفسير / باب (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ....) البقرة ١٨٩ .

٢ ـ سورة البقرة : ١٨٩ .

٣ ـ صحيح البخارى ، بشرح فتح البارى ٣ : ٦٢١ / كتاب العمرة / باب قول الله تعالى [١٨٩ البقرة] (وأتوا البيوت من أبوابها) .

والبر الحقيقى هو ما قاله تعالى :

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ ‹١›

أما الآية السابقة ‹٢› فقد جمعت أنواع البر كلّها ، فإن من اتصف بما جاء فيها فقد دخل في عرى الإسلام كلها . وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله وحده ، والتصديق بوجود الملائكة الذين هم سَفَرة بين الله ومن اصطفاهم لرسالته ، والتحلّي بالخصال التي ذكرها الله تبارك وتعالى الجامعه للطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله عز وجل . ‹٣›

وبناء على ماتقدم يمكن أن نقسم " البر " في الآية الكريمة ‹٤› إلى ثلاثة أنواع جامعة لكل خير ، وهي :

١ ـ بِرٌّ في العقيدة .

٢ ـ بِرٌّ في العمـل .

٣ ـ بِرٌّ في الخلـق .

١ ـ أما بر العقيدة :

فإنه يكون بالإيمان بالله ، وأنه إله واحد ، ومعبود بحق دون سواه ، كما يكون بالإيمـان باليوم الآخر ، وهو يوم الجزاء والحساب يوم القيامة . ، وأنه أتٍ لا

---

١ ـ سورة البقرة : ١٨٩ .

٢ ـ سورة البقرة : ١٧٧ .

٣ ـ انظر : جامع البيان ٢ : ٣٢٨ ، وابن كثير ١ : ٣٦٥ ، والتفسير الكبير ٥ : ٣٧ .

٤ ـ سورة البقرة : ١٧٧ .

ريب فيه ، وأن جميع الخلق يحاسبون في ذلك اليوم ، إما إلى النعيم الدائم في الجنة ، وإما إلى الشقاء المقيم في النار لقوله تعالى :

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ
كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ‹١›

وقوله عز وجل :

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ‹٢›

ومن البر في العقيدة أيضاً الإيمان بالملائكة ، وأنهم سفرة بين الله ورسله ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لأن الإيمان بهم من أصل الإيمان بالوحي ، وإنكارهم يلزم منه إنكار الوحى وإنكار النبوة والرسالات . ‹٣›

وقد ذكر القرآن الملائكة في عدة آيات ، منها قوله تعالى :

تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ‹٤›

وقوله تعالى :

إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ
ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ‹٥›

---

١ ـ سورة آل عمران : ٢٥ .

٢ ـ سورة آل عمران : ٣٠ .

٣ ـ انظر : تفسير القرآن الكريم : الأجزاء العشرة الأولى / محمود شلتوت : ٨٢ .

٤ ـ سورة المعارج : ٤ .

٥ ـ سورة الأنفال : ١٢ .

وقوله عز وجل :

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ‹١›

ووصفهم سبحانه وتعالى بأنهم :

لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ‹٢›

أما الإيمان بالكتاب فهو الاعتقاد بأن القرآن كلام الله الذي أنزله على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ليبلغه للإنس والجن .

والمقصود بالكتاب في الآية هو القرآن الكريم ، لأنه يشتمل على جميع ما في الكتب السماوية السابقة المنزلة على أنبياء الله عليهم السلام ، وأنه المهيمن عليها ، الذي نسخ به كل ما سواه من الكتب السماوية ، والذي ينتهى إليه كل خير وسعادة في الدنيا والآخرة . ‹٣›

وفي التعبير عن القرآن بلفظ " الكتاب " دون " الكتب " إشارة إلى وحدة الدين الإسلامي عند الله تعالى ، وأن الإيمان بأى كتاب من الكتب السماوية هو إيمان بالكل ‹٤› كما جاء في قوله تعالى :

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ

‹٥›

---

١ ـ سورة الانفطار : ١٠ ـ ١٢ .

٢ ـ سورة التحريم : ٦ .

٣ ـ انظر : ابن كثير ١ / ٣٦٥ .

٤ ـ انظر : تفسير القرآن الكريم / الأجزاء العشرة الأولى / محمود شلتوت / ٨٢ .

٥ ـ سورة الشورى : ١٣ .

وأما الإيمان بالنبيين أجمعين ، من أولهم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد صلى الله عليه وسلـــم ، فهو من بر العقيدة أيضاً ، وهو واجب على جميع الخلق . ‹١›

قال سيد قطب :

" الإيمان بالكتاب والنبيين هو الإيمان بالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين ، وهو الإيمان بوحدة البشرية ، ووحدة الإله العظيم ، ووحدة الدين ، ووحدة منهجه الإلهى " ‹٢› .

٢ ـ أما البر في العمل :

فإن له شُعباً كثيرة ، ترجع كلها إلى بذل النفس والأموال ابتغاء رضوان الله عز وجل .

وبذل النفس يكون بطاعة الله فيما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، والتضحية في كل موطن ، بحيث لا يفتقده خالقهُ سبحانه وتعالى في المواضع التي أمره بها ، وأن لا يراه حيث نهاه . ‹٣›

أما بذل الأموال ابتغاء رضوان الله تعالى فقد حث عليها القرآن في عدة مواضع منها ، قوله تعالى :

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ‹٤›

---

١ ـ ابن كثير : ١ / ٣٦٥ .

٢ ـ في ظلال القرآن : ١ / ١٥٩ .

٣ ـ تفسير القرآن الكريم / الأجزاء العشرة الأولى / لمحمود شلتوت : ٨٣ .

٤ ـ سورة آل عمران : ٩٢ .

ولقد عرف المسلمون التوجيه الإلهى الكريم ، فحرصوا كل الحرص على أن ينالوا البر ، وهو جماع الخير ، بالنزول عما يحبون ، وبذل الأموال الحسنة والجيدة في انتظار ما هو أكبر وأفضل عند الله . ‹١›

والله سبحانه وتعالى يصور لنا نتائج هذا الإنفاق في قوله :

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ‹٢›

وقوله عز وجل : وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ‹٣›

وفى المراد من الحب في قوله تعالى :

وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ

ثلاثة معان تدور عليها الآية الكريمة :

أ ـ **حب الله عز وجل** ، وهو الظاهر ، لأن كل شىء لله سبحانه وتعالى .

ب ـ **حب المال** كما يشير إليه قوله تعالى :

وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ‹٤›

---

١ ـ انظر : فى ظلال القرآن ١ / ٤٢٤ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٦١ .

٣ ـ سورة البقرة : ١٧٧ .

٤ ـ سورة الفجر : ٢٠ .

جـ ـ **حب الإيتاء** ، أى العطاء ، وهو بذل الأموال في سبيل الله ابتغاء رضوان الله تعالى ، كما يشير إليه قوله تعالى :

لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ‹١›

أى لن تنالوا رضاء الله والجنة ، وتصلوا إلى عظيم الثواب وجزيل العطاء ، حتى تنفقوا وتعطوا من أحسن وأجود أموالكم التى تفضلونها وتحبونها ‹٢› .

وقد أثنى سبحانه وتعالى على هؤلاء المنفقين في سبيله في قوله عز وجل :

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا
إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ‹٣›

أى إنما نطعمكم لأجل رضاء الله وحسن الثواب .

يقول الخازن : إنهم لم يتكلموا ، ولكن علم الله تعالى ذلك من قلوبهم فأثنى عليهم .

وهناك قول آخر وهو : بل قالوا ذلك لُيقتدى بهم في عملهم الحسن . ‹٤› وأرى هذا هو الأصح .

ولا شك أن الإحسان إلى الناس حين يكون لأجل الله تعالى ، ولا يراد به غيره ، هو الإخلاص ، وأما إن كان لطلب المكافأة ، أو لطلب الحمد من الناس فهو غير مقبول ، ومردود على صاحبه ، ولا يقبله الله تعالى لما فيه من الرياء والسمعة ، وقد نفاهما الله سبحانه وتعالى ، عن هؤلاء المنفقين . ‹٥›

---

١ ـ سورة آل عمران : ٩٢ .

٢ ـ فتح القدير : ١ : ٣٦ .

٣ ـ سورة الإنسان : ٨ ، ٩ .

٤ ـ تفسير الخازن وبهامشه البغوى ٧ / ١٦٠ .

٥ ـ المصدر السابق : ٧ / ١٦٠ .

فقال تعالى :

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ ‹١›

وقال عز وجل :

﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ‹٢›

فذوو القربى أولى من غيرهم بالصلة والبر ‹٣› ، لقوله عليه الصلاة والسلام :" إذا أنفق المسلمُ نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة "‹٤› أى أن النفقة على الأهل واجبة بالإجماع ، وسماها الشارع صدقة خشية أن يظنوا أن قيامهم بالواجب لا أجر لهم فيه ، وقد عرفوا ما في الصدقة من الأجر فعرفهم أنها لهم صدقة ، حتى لا يخرجوها إلى غير الأهل . ‹٥›

٣ ـ وأما البر في الخلق :

فيتجلى في الآية الكريمة من قوله عز وجل :

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ
فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ‹٦›

---

١ ـ سورة الإنسان : ٩ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢١٥ .

٣ ـ انظر : جامع البيان للطبرى ، ٢ / ٣٤٤ " المحقق " .

٤ ـ صحيح البخارى/ بشرح فتح البارى ٩/٤٩٧ / كتاب النفقات باب فضل النفقة على الأهل وقوله عز وجل :(ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة).

٥ ـ فتح البارى / شرح صحيح البخارى ٩ / ٤٩٨ .

٦ ـ سورة البقرة : ١٧٧ .

والوفاء بالعهد حث عليه الإسلام ، وحرض المؤمنين على الالتزام به ، في قوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ <١>

وقوله :

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ <٢>

والمؤمنون المخلصون لا ينقضون عهد الله بعد المعاهدة ، بل يوفون به ، سواء مع أنفسهم أو مع غيرهم ، ويتمونه على ما عاهدوا عليه من عاهدوه عليه . <٣>

والوفاء بالعهد من تعاليم الإسلام ، وهو آية من آيات الإيمان والإحسان ، وضروري لإيجاد الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد والجماعات .

ولقد بلغ الإسلام من الوفاء بالعهد لأصدقائه وأعدائه على السواء ، قمة لم تصل إليها البشرية في تاريخها إلا في الإسلام ومع هدى الإسلام . <٤>

وأما الصابرون في البأساء والضراء وحين البأس ، فقد أثنى الله تعالى عليهم في حالة الفقر والمرض ولقاء العدو ، وعلى صبرهم وتحملهم الأذى في هذه الأحوال ، لشدتها وصعوبتها ، لأنهم حبسوا أنفسهم عما يكره الله تعالى ، والتزموا بكل ما أمرهم به من الطاعات والقربات <٥> فالصبر نصف الإيمان ، وفيه تربية للنفوس وإعداد لها لتتحمل المصاعب ، ولا تنهار جزعاً أمام الشدائد . <٦>

---

١ ــ سورة الرعد : ٢٠ .

٢ ــ سورة المؤمنون : ٨ ، والمعارج : ٣٢ .

٣ ــ جامع البيان ٣ : ٢٤٨ " المحقق " .

٤ ــ انظر : فى ظلال القرآن ١ : ١٦١ .

٥ ــ انظر : جامع البيان ٣ / ٣٤٩ " المحقق " .

٦ ــ انظر : فى ظلال القرآن ١ / ١٦١ .

ثم يختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة <١> بقوله :

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ

أي المتصفون بتلك الصفات الحميدة هم الأبرار حقاً ، وهم الصادقون في الأقوال والأفعال ، وهم الذين وقوا أنفسهم وحصنوها بالإيمان ، وتجنبوا عقاب الله عز وجل ، بالانتهاء عن معصيته ، وحذراً من وعيده ، فلم يتعدَّوا حدوده ، وخافوه وراقبوه في السر والعلانية ، وقد قاموا بأداء جميع ما فرض عليهم ، وتجنبوا كل ما نهوا عنه . <٢>

ويرى الشيخ محمود شلتوت أن البر في الخلق لخصته الآية الكريمة <٣> في مبدأين :

أ ـ مبدأ القيام بالواجب ، وذلك في قوله عز وجل :

وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ <٤>

ب ـ مبدأ المقاومة والتغلب على العقبات ، وذلك في قوله :

وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ <٥>

ثم قال : " فهذه عناصر البر في العقيدة والعمل والخلق ، وهذه العناصر هي الدستور المتين القوى ، الذي ترتقى به الأمم ، وتبعد عن الشرور والمفاسد ، وتنعم بالأمن والطمأنينة والاستقرار " <٦> .

---

١ ـ سورة البقرة : ١٧٧ .

٢ ـ انظر : جامع البيان ٢ / ٣٥٦ / وابن كثير ١ / ٣٦٨ بتصرف .

٣ ـ سورة البقرة : ١٧٧ .

٤ ـ سورة البقرة : ١٧٧ .

٥ ـ سورة البقرة : ١٧٧ .

٦ ـ تفسير القرآن الكريم ـ الأجزاء العشرة الأولى : ٨٨ .

وقد وَجّه الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين إلى عمل البر على النحو الذي وضحته ، وفي مقابل ذلك حذّر كل التحذير من أن يدعو الإنسان إلى البر غيَره وينسى نفسه ، كما كان يفعل بعض أهل الكتاب الذين وصفهم الله بقوله تعالى :

أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

‹١›

والهمزة للاستفهام المراد به التوبيخ والتقريع لبعض أهل الكتاب المخاطبين بها على تركهم البر ، المستفاد من قوله تعالى :

وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ

وأن الاستفهام يفيد أيضاً التعجب من قبح صنيعهم المخالف لما في التوراة والإنجيل . ‹٢›

وقد نزلت هذه الآية في علماء اليهود وأحبارهم ، حينما كانوا يأمرون سرّا من نصحوه باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لا يتبعونه ، وكانوا أيضاً يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون ، فالله هنا يبكتهم ويوبخهم على حرمانهم أنفسهم وتركهم اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أمرهم غيرهم باتباعه ، وهم ينهون الناس عن الكفر بما عندهم من النبوة ، وما في التوراة ، ويتركون أنفسهم على الكفر والضلال وعدم التصديق به وبما جاء به من عند ربهم عز وجل بعد أن أخذ عليهم الميثاق . ‹٣›

---

١ ـ سورة البقرة : ٤٤ .

٢ ـ انظر : فتح القدير ١ / ٧٧ .

٣ ـ انظر : الخازن وبهامشه البغوى ١ / ٤٦ / وروح المعانى ١ / ٢٤٨ بتصرف .

على أن مِنْ أهل الكتاب قوما استجابوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، وصدَّقوا بما جاء به ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ‹١›

والآية الكريمة السابقة ‹٢› تتضمن الوعيد الشديد على ترك الأخذ بالبر ، ومخالفة القول للعمل ، وذم سبحانه وتعالى في موضع آخر مَنْ يسلك هذا المسلك المتناقض .

والعاقل لا يرتكب السَّيِّء ويعمل به ، ثم يأمر غيره بفعل الحسن ، وإن من يرتكب القبيح ، وينهى غيره عنه ، لا يكون عاقلاً . قال سيد قطب : " الدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك ، لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها ، حتى إن الناس لا يثقون في الدين بعد ما فقد واثقتهم برجال الدين " . ‹٣›

---

١ ـ سورة الأعراف : ١٥٧ .

٢ ـ سورة البقرة : ٤٤ .

٣ ـ في ظلال القرآن ١ : ٦٨ .

وأما عن التقوى وأثرها في استقرار المجتمع الإسلامي

فالتقوى ـ في **اللغة** ـ من الفعل (وَقَى) يقال : وَقَاه اللهُ وِقَايَةً ، أى صانه وحفظه .

ووَقَاهُ ما يَكْره ووَقَّاه ـ بالتشديد ـ حماه منه .

وفي التنزيل الحكيم :

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ (١)

والوِقَاء بكسر الواو ، والوَقَاء بفتح الواو ، والوِقاية بكسر الواو .

والوَاقِية : كل ماَ وقَيْتَ به شيئاً واسم الفاعل : وَاقٍ (٢) وجاء في القرآن من ذلك قوله عز وجل :

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ (٣)

أى من دافع .

وقوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ (٤)

---

١ ـ سورة الإنسان : ١١ .

٢ ـ اللسان (وقى) ١٥ / ٤٠١ ـ ٥٠٥ .

٣ ـ سورة الرعد : ٣٤ .

٤ ـ سورة الرعد : ٣٧ .

وقوله سبحانه وتعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ
عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ

<١>

ويقال : تَوَقَّيْتُ الشيءَ ، واتَّقَيْتُه ، إذا حَذِرْتَه ، ومنه أخذت كلمة (التَّقْوَى) .

والتَّقْوَى والتُّقَاةُ والتُّقَى والتَّقِيَّة والاتِّقاء : بمعنى واحد .

والتَّقِيُّ : المُتَّقِي ، وجمعه أتقياء .

ومعناه : أنه مُوَقٍّ نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح <٢> .

وبناء على ذلك فإن حقيقة التَّقْوى أن يجعل الإنسان نفسه في وقاية مما يخاف ، ثم يسمى الخوف تارة تَقْوى ، والتقوى خوفاً . <٣>

هذا هو حدّ " التقوى " في اللغة .

أما في الشرع : فهي حفظ النفس عما يؤثّم ، وذلك بترك المنهى عنه ، واتباع المأمور به <٤> .

---

١ ـ سورة التحريم : ٦ .

٢ ـ اللسان (وقى) ١٥ / ٤٠١ ـ ٥٠٥ .

٣ ـ مفردات الراغب (وقى) ٥٦٨ .

٤ ـ اللسان (وقى) ١٥ / ٤٠١ ـ ٥٠٥ ، ومفردات الراغب " وقى " ٥٦٨ .

قال تعالى :

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ‹١›

وكلمة " التقوى " من الكلمات الجامعة ذات الدلالة العظيمة في الإسلام ، وقد وردت في القرآن هي ومشتقاتها في مائتين وأربعة عشر موضعاً ‹٢› .

وجاءت دالة فيه على معان ثلاثة :

١ ـ الخشية والهيبة ، بمعنى الخشية والهَيْبة لله عز وجل ، امتثالاً .

لقوله تعالى :

وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ‹٣›

وقوله تعالى :

وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ‹٤›

والمراد جعل النفس في وقاية مما تخاف ، والرهبة خوف مع حزن واضطراب . ‹٥›

٢ ـ العبادة والطاعة ، بمعنى العبادة والطاعة لله عز وجل ، امتثالاً لقوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ

‹٦›

---

١ ـ سورة الأعراف : ٣٥ .

٢ ـ انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (وقى) .

٣ ـ سورة البقرة : ٤١ .

٤ ـ سورة البقرة : ٤٠ .

٥ ـ انظر : بصائر ذوي التمييز ٥ / ٢٥٦ ، وتفسير الخازن وبهامشه البغوي ١ / ٥٣ .

٦ ـ سورة آل عمران : ١٠٢ .

وقوله عز وجل :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ‹١›

والآيتان الكريمتان تؤكدان وجوب التقوى على المؤمنين ، وأن من حق الله عليهم ألا يتركوا شيئاً مما يلزمهم فعله ، وألا يفعلوا شيئاً مما يلزمهم تركه ، وأن عليهم أن يبذلوا في ذلك جهدهم قدر استطاعتهم .

ولقد ناداهم سبحانه وتعالى ، باسم الإيمان والتصديق ، أن يخافوه ويراقبوه بطاعته ، واجتناب معاصيه ، بحيث يُطاع فلا يُعصى ، ويُشكر فلا يُكفر ، ويذكر فلا يُنسى ، وأن عليهم دائماً أن يحرصوا على ألا يدركهم الموت إلا وهم مذعنون له بالطاعة ، مخلصون له في الألوهية والعبودية . ‹٢›

وقد اختلف المفسرون في الآية الكريمة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ‹٣›

هل هي منسوخة أو محكمة ؟ على قولين :

أحدهما : أنها محكمة غير منسوخة ، لما أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما:

أنه قال : لم تنسخ ، وإنما معنى قوله : (حَقَّ تُقَاتِهِ) أى أن يجاهدوا في الله حق جهاده ، ولا يأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم . ‹٤›

---

١ ـ سورة التغابن : ١٦ .

٢ ـ جامع البيان ٧ / ٦٤ ، ٦٥ " المحقق " .

٣ ـ سورة آل عمران : ١٠٢ .

٤ ـ جامع البيان ٧ / ٦٧ ، ٦٨ .

وثانيهما : أنها منسوخة ، وأن الذي نسخها هو قوله تعالى :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ‹١›

لما أثر عن قتادة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ‹٢›

قال : ثم أنزل التخفيف واليُسر ، وعاد بعائدته ورحمته على ما يعلم من ضعف خلقه فقال :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ‹٣›

فجاءت هذه الآية ، فيها تخفيف وعافية ويُسر . ‹٤› وعليها بايع الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

وهذا قول الربيع بن أنس ، والسدي ، وقد اشتد الأمر على الصحابة رضوان الله عليهم من آية آل عمران وقالوا : مَنْ يعرف قَدْر هذا أو يبلغه ؟ ! فلما علم الله تعالى أن الأمر قد اشتد عليهم نسخها عنهم ‹٥› وأنزل قوله تعالى :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ‹٦›

---

١ ـ سورة التغابن : ١٦ .
٢ ـ سورة آل عمران : ١٠٢ .
٣ ـ سورة التغابن : ١٦ .
٤ ـ جامع البيان ٧ / ٦٨ " المحقق " .
٥ ـ سورة آل عمران : ١٠٢ .
٦ ـ سورة التغابن : ١٦ .

ويرى **الشيخ أحمد شاكر والشيخ محمود شاكر** أن أبا جعفر الطبرى رحمه الله ترك ترجيح أحد القولين على الآخر ، وكان حقاً عليه أن يبينه .

وقد بينه **أبو جعفر النحاس** ‹١› بعد أن ساق الأثر ، وروايته عن قول قتادة ‹٢› ، ثم قال أبو جعفر النحاس : محال أن يقال : هذا ناسخ أو منسوخ إلا على حيلة ، وذلك أن معنى نسخ الشىء : إزالته والمجىء بضده ، فمحال أن يقال : " اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ " منسوخ ، ولا سيما مع قول النبى صلى الله عليه وسلم مما فيه بيان الآية الكريمة من حديث معاذ بن جبل قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً " ‹٣› ، أفلا ترى أنه محال أن يقع في هذا نسخ .

قال أبو جعفر : " فكل ما ذكر في الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ ، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم " أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً " ، وكذلك على المسلمين ، كما قال ابن مسعود : " أن يطيعوا الله فلا يعصوه ، ويذكروه فلا ينسوه ، وأن يشكروه فلا يكفروه ، وأن يجاهدوا فيه حق جهاده .

---

١ ـ الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس ٨٨ ، ٨٩ .

٢ ـ يعنى بالأثر قول قتادة فى تفسير قوله : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) : " أنزل التخفيف واليسر ، وعاد بعائدته ورحمته على ما يعلم من ضعف خلقه فقال : (فاتقوا الله ما استطعتم) فجاءت هذه الآية فيها تخفيف وعافية ويسر " .

٣ ـ صحيح البخارى / بشرح فتح البارى ٧ : ٢١٨ / كتاب اللباس / باب إرداف الرجل خلف الرجل ، وصحيح مسلم بشرح النووى ١ / ٢٣٢ / كتاب الإيمان / باب حق الله على العباد وحق العباد على الله .

وأما قول قتادة ، « مع محله من العلم » : أنها نسخت ، فيجوز أن يكون معناه : نزلت : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ‹١›

بنسخه ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ‹٢›

أى أنها مثلها ، لأن الله تعالى لا يكلف أحداً إلا طاقته ‹٣› .

والذي يبدو لى أن الآية ‹٤› غير منسوخة ، لأن التعارض الحقيقى بين الآيتين غير مسلم ، فإن تقوى الله حق تقاته المأمور بها في الآية الأولى ◇ معناها : الإتيان بما يستطيعه المكلفون من طاعة الله عز وجل دون الخروج عن استطاعتهم ، وذلك بفعل المأمورات ، وترك المنهيات ، ولا ريب أن ذلك مستطاع بتوفيق الله تعالى ، وعلى ذلك فلا تعارض بينهما ، وحيث لا تعارض بينهما فلا نسخ . ‹٥›

وقد أورد القرطبي سؤالاً مضمونه :إذا كانت هذه الآية من سورة آل عمران :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ‹٦›

محكمة غير منسوخة ، فما وجه قول سبحانه وتعالى في سورة التغابن :

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ‹٧› ؟

وكيف يجوز اجتماع الأمر باتقاء الله حق تقاته ، والأمر باتقائه ما استطعنا ، والأمر باتقاء الله حق تقاته إيجاب القرآن الكريم إيجاباً مطلقاً ، والأمر باتقائه ما استطعنا أمر باتقائه موصولاً بشرط ؟

---

١ ــ سورة التغابن : ١٦ .

٢ ــ سورة آل عمران : ١٠٢ .

٣ ــ حاشية جامع البيان ٧ / ٦٩ " المحقق " .

٤ ــ سورة آل عمران : ١٠٢ .

٥ ــ انظر : مناهل العرفان فى علوم القرآن / للزرقانى ٢ / ٨٥ .

٦ ــ سورة آل عمران : ١٠٢ .

٧ ــ سورة التغابن : ١٦ .

قيل له : قوله (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) بمعـزل ممـا دلَ عليه قوله تعالى : (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) وإنما عنى بقوله : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) أي فاتقوا اللّه يأيها الناس وراقبوه فيما جُعل فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم ، وتصدكم عن الواجب عليكم في الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام ، وذلك لأن اللّه جل ثناؤه قد عَذَر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى :

إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ‹١›

فأخبر أنه قد عفا عمن لا يستطيع حيلة ، ولا يهتدى سبيلاً بالإقامة في دار الشرك ، فكذلك معنى قوله : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) أى في الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم ‹٢›

ومما يدل على صحة هذا أن قوله :

فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ‹٣›

عقب قوله : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ‹٤›

ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم ‹٥› .

---

١ ـ سورة النساء : ٩٨ ، ٩٩ .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن / للقرطبى / ١٨ / ١٤٤ ، ١٤٥ بتصرف .

٣ ـ سورة التغابن : ١٦ .

٤ ـ سورة التغابن : ١٤ ـ ١٥

٥ ـ الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ١٤٥ .

وهناك رأى آخر وهو : أن قوله تعالى :

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ‹١›

أى فيما تطوّع به من نافلة أو صدقة ، فإنه لما نزل قوله تعالى :

اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ‹٢›

اشتد على القوم فقاموا حتى وَرِمت عراقيبهم وتقرّحت جباههم ، فأنزل الله تعالى تخفيفاً عنهم (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) فنسخت الأولى ‹٣› .

ومن كل ما تقدم أرى أن عدم النسخ بين الآيتين الكريمتين أولى ، لأن الله سبحانه وتعالى أمر عباده المؤمنين في آية آل عمران ألا يتركوا أنفسهم بدون طاعة له ، حتى ولو بذلوا غاية جهدهم وطاقتهم في تقواه ، ثم أمرهم في آية التغابن بالتقوى قدر ما يستطيعون دون الخروج على عدم استطاعتهم ، لأنه عز وجل لم يكلف العباد إلا على قدر طاقتهم وقدرتهم ، أما إذا خرج عن استطاعتهم ولم يقدروا عليه فلم يأمرهم به ، لقوله تعالى :

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ‹٤›

٣ ـ المعنى الثالث للتقوى : تنزيه القلب عن الذنوب والمعاصى :

وهذا هو حقيقة التقوى وأصلها ، لأن الجوارح تتأثر بالقلب ‹٥› .

قال عز وجل :

وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ‹٦›

---

١ ـ سورة التغابن : ١٦ .

٢ ـ سورة آل عمران : ١٠٢ .

٣ ـ انظر : الجامع لأحكام القرآن / للقرطبى ١٨ / ١٤٥ ، وأحكام القرآن / لابن العربى ٤ / ١٨٢ .

٤ ـ سورة البقرة : ٢٨٦ .

٥ ـ بصائر ذوى التمييز ٥ / ٢٥٦ .

٦ ـ سورة النور : ٥٢ .

ففى هذه الآية الكريمة ذكر الله ، تبارك وتعالى ، الطاعة والخشية ، ثم ذكر التقوى التي هي تنزيه القلب عن الذنوب والمعاصى ‹١› وقال عز من قائل :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ‹٢›

أكد الله تعالى على الأمر بتقواه في أول الآية وقبيل آخرها ، ليشير إلى عظم حق الله تعالى على عباده ، كما قرن سبحانه وتعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الروابط الإنسانية ، لأن الناس من أصل واحد ، وهم إخوة في الإنسانية كما هم إخوة في النسب .

وأشار القرآن الكريم إلى منازل التقوى ، وهي ثلاثة :

١ ـ تقوى عن الشرك .

٢ ـ تقوى عن البدْعَة .

٣ ـ تقوى عن المعصية . ‹٣›

وثلاثتها قد جمعت في قوله عز وجل :

لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ‹٤›

وقد ذكر المفسرون أنه لما أنزل الله تحريم الخمر بقوله :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ‹٥›

---

١ ـ بصائر ذوى التمييز ٥ / ٢٨ .

٢ ـ سورة النساء : ١ .

٣ ـ بصائر ذوى التمييز ٥ : ٢٥٨ .

٤ ـ سورة المائدة : ٩٣ .

٥ ـ سورة المائدة : ٩٠ .

قال قوم : « كيفَ بمن مات من إخواننا وهم يشربون الخمر وقد كنا نشربها ؟ » فأخبرهم الله بقوله :

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ‹١›

أى ليس عليهم حرج فيما شربوا من ذلك لأنه في الحال التي لم يكن الله تعالى حَرَّمه عليهم ، ولأن الإثم إنما يتعلق بفعل المعاصى والذين ماتوا قبل التحريم ليس بعاصين .

وكذلك ليس على المكلفين جناح فيما تناولوه من المأكولات والمشروبات قبل تحريمها ، إذا اتقوا المحرّم عليهم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة كما قال تعالى :

إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا ‹٢›

فإذا اتقى الأحياء منهم الله تعالى وراقبوه في اجتنابهم ما حرّم عليهم ، وصدَّقوا الله ورسوله فيما أمراهما ونهياهما ، فأطاعوهما فى ذلك كله ، واكتسبوا من الأعمال الصالحة التي يرضاها الله في ذلك مما كلفهم به ، ثم خافوا الله وراقبوه باجتنابهم محارمه بعد ذلك التكليف أيضاً ، فثبتوا على التقوى والخوف والإيمان ولم يغيروا ولم يبدّلوا (ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) الآية .

بل استمروا على تقوى الله واجتناب المحارم وعملوا الأعمال الحسنة التي لم يفرضها الله عليهم ، بل كانت تطوعاً منهم ، كالنوافل وأعمال البر في أوجه الخير ، وتقربوا بها إلى ربهم طالبين رضاه ، هاربين من عقابه وأليم عذابه ، إن فعلوا ذلك فإن الله يحب المتقربين إليه بالنوافل والأعمال التي يرضاها ‹٣› وهذا معنى قوله :

ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ‹٤›

---

١ ـ سورة المائدة : ٩٣ .

٢ ـ سورة المائدة : ٩٣ .

٣ ـ انظر : جامع البيان ١٠ / ٥٧٦ " المحقق " .

٤ ـ سورة المائدة : ٩٣ .

قال الكلبي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة : كررت التقوي في الآية الكريمة مبالغة وقيل : الرتبه الأولى : اتقاء الشرك ، والثانية : اتقاء المعاصى ، والثالثة : اتقاء ما لابأس به ، وحذر مما به البأس .

وقيل : الأولى للزمان الماضى ، والثانية : للحال ، والثالثة : للمستقبل . ‹١›

والمتأمل في كتاب الله يجد أن الله عز وجل قد وعد المتقين جزيل الثواب في الدنيا والآخرة ، وذلك كما في قوله سبحانه وتعالى :

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ‹٢›

وقوله عز وجل :

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ‹٣›

وقوله تعالى :

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ‹٤›

وقال عز من قائل :

هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ‹٥›

---

١ ـ كتاب التسهيل لعلوم التنزيل / محمد بن أحمد بن جزى الكلبى ١ : ١٨٧ .

٢ ـ سورة الطلاق : ٢ ، ٣ .

٣ ـ سورة الطلاق : ٤ .

٤ ـ سورة الطلاق : ٥ .

٥ ـ سورة الرحمن : ٦٠ .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ وعد عباده المؤمنين بإصلاح الأعمال والأقوال والأحـوال ، وبالسعادة والفلاح ، وبالمغفرة لذنوبهم ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، إذا استمروا على تقوى الله في السر والعلانية ، مع أنفسهم ومع غيرهم ، فيقول عز وجل :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ‹١›

وفوزهـم العظيم هو الجزاء الكبير في الجنة ، كما بَشَّرهم تعالى بمحبته لهم ، كما يشير إليه قوله :

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ‹٢›

ولو لم يكن في تقوى الله تعالى إلا هذه الخصلة الحميدة ، وهي المحبة من الخالق سبحانه وتعالى لخلقه المتقين لكفت الخلق عما عداها ‹٣› .

« ولم تكن وصية الله سبحانه وتعالى لعباده بالتقوى مقصورة على أمة دون أخرى ، أو جيل دون آخر ، أو على زمان دون زمان ، وإنما وصى الله تعالى بها الأولين والآخرين » ‹٤› كما يشير إليه قوله عز وجل :

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ‹٥›

---

١ ـ سورة الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ .

٢ ـ سورة التوبة : ٤ ، ٧ .

٣ ـ انظر : بصائر ذوي التمييز ٥ / ٢٦٠ .

٤ ـ احياء علوم الدين / للغزالي ٤ / ١٦١ .

٥ ـ سورة النساء : ١٣١ .

« فهو سبحانه وتعالى ، إذ يوصيهم بتقواه ، لا يعنيه في شيء ، ولا يضره في شيء ، ألا يسمعوا الوصية ، وأن يكفروا ، فإن كفرهم لن ينقص من ملكه شيئاً ..(فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَٱلأَرْضِ) وهو قادر على أن يذهب بهم ويستبدل قوما غيرهم ، وإنما يوصيهم بالتقوى لصلاحهم هم ، ولصلاح حالهم » .‹١›

ثم إن للتقوى التي أوصى اللّٰه تعالى بها الأولين والآخرين أهدافاً سامية ، وخصالاً حميدة جامعة لخيرى الدنيا والآخرة ، موصلة إلى أعلى الدرجات في جنة النعيم .

وقد قرر القرآن أن أساس التفاضل بين الناس إنما هو التقوى وحدها ، وأن المتقين هم أكرم الناس عنده تعالى ، وأنه إنما خلقهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتعاونوا على فعل الخيرات ، لا ليتفاخروا بأنسابهم واحسابهم التي لا تنفعهم عند اللّٰه شيئاً حيث يقول عز من قائل :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ
لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ‹٢›

كما يبشر اللّٰه سبحانه وتعالى ، عباده المتقين بأنهم لا خوف عليهم ولا حزن لهم في الدنيا والآخرة ، وإنما لهم الفوز العظيم ، والعطاء الجزيل الكريم في الجنة ، كما قال تعالى :

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ
﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ‹٣›

---

١ ــ في ظلال القرآن ٢ : ٧٧٢ .

٢ ــ سورة الحجرات : ١٣ .

٣ ــ سورة يونس : ٦٢ ــ ٦٤ .

وكما أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يقبل عمل عامل من ذكر أو أنثى إلا من المتقين ، نقرأ ذلك في قوله : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ‹١›

أى اقرأ يا محمد خبر " قابيل وهابيل " ابنى آدم بالحق والصدق ، وذَكِّر قومك بهذه القصة ، حينما قرَّب كل منها قرباناً ، فتقبل من هابيل ، ولم يتقبل من قابيل ، فتوعده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه ، فأجابه بقوله : (إنما يتقبل اللّه من المتقين) أى إنما أوتيت من قبل نفسك ، بترك التقوى ، لا من قبلى ، فلم تقتلنى ؟ وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغى أن يرى حرمانه من تقصيره ، ويجتهد في تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً ، لا في إزالة حظه ، فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه ، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متق ‹٢› وأن الخلود المستمر في الجنة هو جزاء المتقين الذين خافوا اللّه وراقبوه في السر والعلانية ، وقرنوا أعمالهم الصالحة بالخوف والرجاء ، وذلك باتباع ما أمرهم به ، واجتناب ما نهاهم عنه ، فقد فازوا بالجنة التي هيأها وأعدها ، وقرَّبها وزينها لاستقبالهم ، نقرأ ذلك في الكثير من آيات القرآن الكريم ، التي منها قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ‹٣›

---

١ ـ سورة المائدة : ٢٧ .

٢ ـ انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل / المعروف بتفسير البيضاوى ٢ / ١٤٥ .

٣ ـ سورة آل عمران : ١٣٣ .

وقوله :

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ

(١)

وقوله عز وجل :

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٢)

وقوله تعالى :

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٣)

وقوله سبحانه وتعالى :

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (٤)

ولقد أشرت ـ فيما مضى ـ إلى أن الأمر بالتقوى ليس مقصوراً على أمة دون الأخرى ، ولا عصر دون الآخر ، فالتقوى مطلوبة من جميع البشر ، منذ بدء الخلق إلى قيام الساعة .

---

١ ـ سورة الزمر : ٧٣ ، ٧٤ .

٢ ـ سورة الشعراء : ٩٠ .

٣ ـ سورة آل عمران : ١٥ .

٤ ـ سورة آل عمران : ١٩٨ .

وقد دعا إليها جميع رسل الله الذين اصطفاهم لرسالاته ، فلم يأت رسول إلى قومه إلا وقد أمرهم بالتقوى ، وحثهم عليها ، لأنها لُبّ الإيمان ، وسبيل الاستقامة على المنهج السليم ، الذي فيه أسباب السعادة في الدارين .

فهذا **نوح عليه السلام** يدعو قومه إلى التقوى في قوله تعالى :

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ • إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ • وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ • (١)

« ولقد جحد قوم نوح رسالته ، وكذبوا آيات الله تعالى ، فقال لهم مخوفاً إياهم : اتقوا مخالفتكم أمر رسول الله الذي أرسل إليكم بالدلائل والبينات من أجل مصلحتكم ، ولم يَطلب منكم على ذلك التبليغ أجراً أصلاً ، لا مالا ولا غيره ، وإنما أجره على الله وحده تفضلاً منه » . (٢)

يقول **الألوسي** : « قدم الأمر بتقوى الله على الأمر بالطاعة لأن تقوى الله تعالى سبب لطاعة رسولهم نوح عليه السلام .

وتكرار " التقوى " في قوله : (أَلاَ تَتَّقُونَ) وقوله : (فَاتَّقُوا اللَّهَ) للتأكيد والتنبيه على أن كلا منهما مستقلّ في إيجاب التقوى والطاعة ، فكيف إذا اجتمعا ؟! » (٣)

ويقول الفخر الرازي :

« إنه لا تكرار في الآيات السابقة ، لأن المعنى مختلف ، وإنما قدم الأمر بتقوى الله عز وجل على الأمر بطاعته ، لأن تقوى الله تعالى علة لطاعته عز وجل ، فقدم العلة على المعلول » . (٤)

---

١ ـ سورة الشعراء : ١٠٥ ـ ١١٠ .

٢ ـ انظر : روح المعاني ١٩ / ١٠٧ .

٣ ـ المصدر السابق ١٩ / ١٠٧ .

٤ ـ التفسير الكبير ٢٤ / ١٥٤ .

وهود عليه السلام كذلك يأمر قومه بتقوى الله حيث يقول سبحانه وتعالى :

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ.
فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
<١>

ولكنهم كفروا وجحدوا النعم التي أمدهم الله بها ، ولم يبالوا بتقوى الله ، على الرغم من أن نبيهم هوداً عليه السلام حذرهم وخوفهم جحود المنعم الحقيقى ، وإنكار نعمه التي أمدهم بها . ولكن استخفافهم بنبيهم ، وعدم تصديقه ، أوقعهم في الهلاك والعذاب ، مصداقاً لقوله تعالى :

قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ <٢>

وإننا نجد آيات التقوى كررت مع جميع المرسلين ، وذلك لأن دعوتهم واحدة ، ومنهجهم واحد ، وهو التزام ما أمرهم الله به ، واجتناب ما نهاهم عنه ، ومراقبته في السر والعلانية .

وكذلك نقرأ قصة **صالح عليه السلام** مع قومه حينما أمرهم بتقوى الله تعالى فقال عز من قائل :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ.
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. <٣>

---

١ ـ سورة الشعراء : ١٢٣ ـ ١٢٧ .

٢ ـ سورة الشعراء : ١٣٦ ـ ١٣٩ .

٣ ـ سورة الشعراء : ١٤١ ـ ١٤٤ .

ولكن قوم صالح عليه السلام انصرفوا عن الإيمان بانغماسهم في ملذات الدنيا وشهواتها ، على الرغم من أن نبيهم صالحاً عليه السلام أنذرهم وخوفهم وحذرهم ، كما صور لنا قوله تعالى :

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

(١)

كما أمر **لوط عليه السلام** قومه أيضاً بالتقوى ، ونلاحظ أن نفس الأسلوب والكلمات والألفاظ التي قالها المرسلون السابقون ، قد قالها لوط عليه السلام لقومه ، وذلك لأن غايتهم واحدة ، ومنشؤها ومصدرها من عند الله تعالى ،

---

١ ـ سورة الشعراء : ١٤٦ ـ ١٥٨ .

ولكنهم جاوزوا حدود الله في الفساد ، وفي إتيان الرجال شهوة من دون النساء ، فقال عز وجل :

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ

(١)

فكل هذه القصص متشابهة في الأمر بالتقوى ، وطاعة الرسل التي بعثت إلى هؤلاء الأقوام ، ولم يأخذوا منهم الأجر على التبليغ والدعوة إلى الله ، ولكنهم جحدوا وتمادوا في الطغيان ، وعدم المبالاة أو الخوف من الله تعالى ، وهو يعلم سرهم وعلانيتهم .

وقصة شعيب مع قومه ، وأمرهم بالتقوى ، تُقرأ في السورة نفسها :

كَذَّبَ أَصْحَابُ
لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

---

١ ـ سورة الشعراء : ١٦١ ـ ١٧٤ .

٢ ـ سورة الشعراء : ١٧٦ ـ ١٨٠ .

إلى أن قال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾
وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ‹١›

ونظراً لأهمية التقوى ، وأثرها على جميع الخلق ، ومنزلة المتقين عند الله ، إذ هي صلة بين العبد وخالقه ، وهي دليل على قوة الإيمان ، أكدها الله سبحانه وتعالى ، فقال عز من قائل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ
نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

‹٢›

ناداهم الله عز وجل بنداء الإيمان ، ليكون دافعاً لهم إلى الخوف منه سبحانه وتعالى ، والحذر مما نهاهم عنه ، ومحاسبة أنفسهم قبل الحساب ، والنظر فيما ادَّخروا من الأعمال الصالحة ليوم الحساب والجزاء والعرض على رب العالمين ، لأنه لا ينفع في هذا اليوم العصيب إلا الأعمال الصالحة ، وهي لا تكون إلا باتباع أوامر الله واجتناب نَوَاهيه ، والسير على هداه ، ومراقبته في السر والعلانية .

---

١ ـ سورة الشعراء : ١٨٤ ـ ١٨٩ .

(الجِبِلَّةَ):الخَلْق . يقال:جبل فلان على كذا وكذا أي خُلق . انظر: غريب القرآن لابن قتيبة / ص ٣٢٠ .

(إنمآ أنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) أي من الْمعلَّلين بالطعام والشراب ، يريدون : إنما أنت بشر لا يستغنى عن الطعام والشراب ، فهو مثلكم وليس بملك / غريب القرآن / ٣٢٠ .

(كِسفاً) : قطعاً / انظر : تفسير غريب القرآن / ص ٣٢٠ .

٢ ـ سورة الحشر : ١٨ ـ ١٩ .

ولنتأمل في قوله : " ولتنظر " فإنها ليست نظرة عابرة ، ولكن نظرة إعتبار وتفكير وإمعان ومداومة ، لتحرص النفس البشرية على مراقبة الخالق العظيم في السر والعلانية ، وتسعى لتقديم الأعمال الصالحة لتفوز بما أعده الله لها من النّعيم في الجنة . ‹١›

والمتأمل في كتاب الله تعالى يشاهد أن جميع الأوامر والنواهي في القرآن الكريم يوضع الأمر فيها " بالتقوى " تمهيداً أو تذييلاً لها .

ومن أمثلة ذلك القصاص ، والوصية ، والصيام ، والحج والعمرة ، والربا ، وغير ذلك من الأوامر والنواهي التي لا حصر لها ؛ فالقصاص في قوله تعالى :

وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ‹٢›

والقتال في الشهر الحرام في قوله عز وجل :

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ‹٣›

يختم كل منهما بالترغيب في التقوى .

وفي الوصية عند الوفاة في قوله عز وجل :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ‹٤›

---

١ ـ انظر : ابن كثير ٦ / ٦١٤ .

٢ ـ سورة البقرة : ١٧٩ .

٣ ـ سورة البقرة : ١٩٤ .

٤ ـ سورة البقرة : ١٨٠ .

« فمن تحين وفاته بسبب مرض أو شيخوخة فعليه بالوصية ، وإذا حضره بعض أولى الأمر ، فعليهم أن يأمروه بتقوى الله في ماله وإرشاده إلى تسديد ما عليه من الديون ، والوصية بما لا يزيد على الثلث ، وترك التبذير بماله ، أو حرمان ورثته ، أو تفضيل بعضهم على بعض ، لأنه بعيد عن العدل والإنصاف ولا يكون من الموصوفين بالتقوى المأمور بها » . ‹١›

وآية **الصوم** تختم بالتقوى إذ يقول تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ
عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ‹٢›

وفي نهاية الآية التي فصلها الله في سورة البقرة ‹٣› من بيان أحكام الحج والعمرة يقف السياق ليعقب تعقيباً قرآناً يشدُّ القلوب إلى الله عز وجل وتقواه :

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ‹٤›

« وهــذه الأحكــام ضمــان القيام بهــا هــو هذه التقوى ، وهي مخافة الله وخشية عقابه » . ‹٥›

ثم يؤكد الله الأمر بالتقوى أثناء أداء فريضة الحج ، حيث يقول سبحانه :

ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ
يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ
يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ‹٦›

---

١ ـ انظر : فتح القدير ١ / ٤٢٩ / بتصرف .

٢ ـ سورة البقرة : ١٨٣ .

٣ ـ سورة البقرة : ١٩٦ .

٤ ـ سورة البقرة : ١٩٦ .

٥ ـ انظر : في ظلال القرآن ١ / ١٩٦ / بتصرف .

٦ ـ سورة البقرة : ١٩٧ .

« فالله تعالى يأمر عباده المؤمنين بالتزود من زاد الدنيا والآخرة " التقوى " وذلـك باتقاء المنهيات وفعل المأمورات ، والتزود بالأعمال الصالحة ابتغاء رضوان الله ، والسير على هداه » . ‹١›

وآيات الطلاق تختم بقوله تعالى :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ‹٢›

وقوله عز وجل :

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ‹٣›

وآية المتعة للمطلقات تختم بالتقوى ، وهي :

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ‹٤›

وكذلك آية الرضاعة تحث وتأمر بالتقوى ، وهي :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ‹٥›

---

١ ـ انظر : فتح القدير ١ / ٢٠١ / بتصرف .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٣١ .

٣ ـ سورة البقرة : ٢٣٧ .

٤ ـ سورة البقرة : ٢٤١ .

٥ ـ سورة البقرة : ٢٣٣ .

« وقد حذر الله المؤمنين من الربا ، وبين عقوبته ، ومهد سبحانه وتعالى لتحريمه بنداء الإيمان والتقوى في قوله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

<١>

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ <٢>

أمرهم بتقواه والحذر من نار جهنم ، لأن من تعاطى الربا فقد زال عنه الفلاح ، وترك تقوى الله ومراقبته والخوف منه ، وابتعد عن الأوامر ، وارتكب ما حُرم عليه ولم يك من المؤمنين ، إن استحله وعمل به » . <٣>

والتقوى ليست فقط امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، حتي تكون عملاً جارحياً ، وإنما هي معنى في القلب ، يرجع إلى الخوف من العظمة الإلهية ، وامتلاء النفس بها امتلاء يدفع المؤمن إلى المسارعة ، وشدة الحرص والإحساس بتحقيق أوامر الله وتشريعاته ، والتفكير في ملكوت السموات والأرض ، لمعرفة أسرار الخالق في كونه ، وسننه في خلقه ، ثم الاتجاه إلى هذه الأسرار ، والعمل على إظهار رحمة الله بعباده ، والوقوف على السنن التي ربط بها الأسباب والمسببات ، بين السعادة ، والشقاء ، والعلم وأسبابه ، والغنى وأسبابه ، والعزة وأسبابها ..... وهكذا إلى آخر ما تمليه على العاقل المفكر هذه السنن الثابتة التى لا تتغير ، ولا تتبدل ، والتي لا سعادة للمؤمن إلا بتأملها والعمل بمقتضاها .

---

١ ـ سورة البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

٢ ـ سورة آل عمران : ١٣٠ ، ١٣١ .

٣ ـ انظر : التفسير الكبير ٩ / ٢ ، بتصرف .

« إذن ليست التقوى امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، إنما هي ذلك المعنى القلبي الذي تفنى به الإداراتُ الإنسانية في ملكوت العظمة الإلهية ، وهي الباعث على امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وهي المحققة للإحسان في طاعة اللّٰه وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهي المبدأ والمنتهى ، وهي الأولى والآخرة .

ولعلنا ــ لو تتبعنا مواقع التقوى في القرآن الكريم ــ وقفنا في معناها على أسرار لا تفى الأقلام بتدوينها » . ‹١›

هكذا الأوامر والنواهي والتشريعات ، تكون مقرونة بالتقوى ، والخوف والحذر من اللّٰه تعالى ، ومراقبته في السر والعلانية ، والاستشعار بعظمته ، والخوف من عقابه وغضبه ، والرجاء في مرضاته ورضوانه ، لتسمو النفوس ، ويشرق عليها نور الحق واليقين ، ثم تتجه إلى الخير في خلوتها وجلوتها ، وسرائها وضرائها وسائر أحوالها ، فتستفيد وتفيد ، وهذا هو الأساس الذي يكون به استقرار المجتمع الإسلامى وإصلاحه ، ثم تنال الجنة التي عرضها كعرض السموات والأرض ، والتي هُيّئت وأُعدّت للمتقين :

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ‹٢›

وقال تعالى :

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ‹٣›

وقال :

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ‹٤›

وقال :

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ ‹٥›

---

١ ــ تفسير القرآن الكريم / الأجزاء العشرة الأولى / محمود شلتوت ، ١٤٥ ، ١٤٦ .

٢ ــ سورة آل عمران : ١٣٣ .

٣ ــ سورة الشعراء : ٩٠ .

٤ ــ سورة القلم : ٣٤ .

٥ ــ سورة المرسلات : ٤١ .

وكما وجه الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين إلى التعاون على البر والتقوى حذرهم كذلك من التعاون على الإثم والعدوان .

فما هو الإثم ؟

الإثم ـ في اللغة ـ الذَّنْب .

يقال : أثِم بالكسر يَأْثَم بالفتح إثْما ومَأْثَما ، إذا وقع في الإثم ، فهو آثمٌ وأثِيمٌ .

وآثَمَهُ ـ بالمد ـ أوقعه في الإثم .

وجمع الإثم : آثَام ، والآثَامُ : اسم للأفعال المُبطِّئَة عن الثواب .

والمَأْثم :الأمر الذي يأثم به الإنسان ، أو هو الإثم نفسه ، وجمعه :المَآثم .

وأثَمَه الله في كذا ـ بالفتح ـ يَأْثِمهُ ويأثُمهُ ـ بالضم أو الكسر ـ إثْما وأثاما ، إذا جازاه جزاء الإثم ، والعبد مَأْثُوم : أى مجزىٌّ جزاء إثْمه . (١)

والأَثَامُ : جزاء الإثم ، وفي التنزيل قوله :

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٢)

أى مجازاة الأثَام يعنى العقوبة .

---

١ ـ اللسان (أثم) ١٢ / ٥ .

٢ ـ سورة الفرقان : ٦٨ .

ويقال : تأثَّم فلان ، إذا تاب من الإثم واستغفر منه ، وهو على السَّلْب ، كأنه سلَب ذاته الإثم بالتوبة والاستغفار .

والأثيم : الفاجر أو الآثم ، أى المتحمل الإثم ‹١› قال تعالى :

فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ ‹٢› وقال : مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ‹٣›

أما الإثم ـ في **الشرع** : " فهو الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب " .‹٤›

وعرفه **الطبري رحمه الله** بقوله :

" الإثم : كل ما عُصِى الله تعالى به ، من محارمه " ويدخل في ذلك السر والعلانية ، أى جميع ما ظهر من الإثم وما بطن ، ولم يك لأحد أن يخص من ذلك شيئاً دون الآخر . ‹٥›

ويمكن أن نقول : إن الإثم يطلق على جميع المعاصى والذنوب التي حرمها الله تعالى ، وجعل لفاعلها عقوبة عليها .

فمن استعمال الإثم في المعصية بصفة عامة قوله عز وجل :

وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ‹٦›

فالله سبحانه وتعالى يأمر عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو من البر ، كما يأمرهم بالتقوى ، وينهاهم عن التناصر على الباطل والضلال ، وعن فعل المنكرات ، وعن التعاون على المآثم والمحارم ‹٧› .

---

١ ـ اللسان (أثم) ١٢ / ٥ ومفردات الراغب (أثم) ، ٥ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٨٣ .

٣ ـ سورة القلم : ١٢ .

٤ ـ انظر : الخازن وبهامشه البغوى ٦ / ٢٢ .

٥ ـ انظر : جامع البيان ١٢ / ٧٥ " المحقق " .

٦ ـ سورة المائدة : ٢ .

٧ ـ انظر : ابن كثير ٢ / ٦ .

والمؤمنون هم الذين يبتعدون عن ارتكاب الإثم ، ويتجنبون فعل الفواحش كما يشير إليه قوله تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (١)

ويرى الدَّامَغَانِيُّ أن الإثم يأتي بمعان :

الشرك ، والمعصية ، والذنب ، والخطأ ، والزنى .

١ ـ فالإثم بمعنى الشرك كما تشير إليه آية المائدة في قوله عز وجل :

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (٢)

أي هلا يزجرهم علماؤهم وأحبارهم عن الشرك ، بئس العمل كان عملهم ، وبئس الاعتداء اعتداؤهم .

٢ ـ والإثم بمعنى المعصية كما في قوله تعالى :

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣)

أي فمن دعته ضرورة إلى أكل الميته وسائر المحرمات ، غير متعد لمعصيته ، فإن الله غفور رحيم .

والمَخْمَصة : الجوع وخلو البطن . ومعنى (غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ) أي غير مائل إلى الحرام والمعصية .

والجنف : الميل ، والإثم الحرام (٤) .

---

١ ـ سورة الشورى : ٣٧ .

٢ ـ سورة المائدة : ٦٣ .

٣ ـ سورة المائدة : ٣ .

٤ ـ انظر : الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ٦ / ٦٤ ، ٦٥ .

وكما في سورة الأعراف وهو قوله :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ‹١›

يعنى المعاصى .

وكقوله تعالى :

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ‹٢›

يعنى المعصية .

٣ ـ والإثم بمعنى الذنب ، كما في قوله تعالى :

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ‹٣›

أى فلا ذنب على من بقى في منى أثناء الحج ، وكذلك من تأخر إلى ثلاثة أيام فلا ذنب عليه .

٤ ـ والإثم بمعنى الخطأ ، كما في قوله عز وجل :

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ‹٤›

يعنى خطأ ، وهو قول مقاتل خاصة في العقوبة ‹٥› .

---

١ ـ سورة الأعراف : ٣٣ .

٢ ـ سورة المائدة : ٢ .

٣ ـ سورة البقرة : ٢٠٣ .

٤ ـ سورة البقرة : ١٨٢ .

٥ ـ قاموس القرآن / أو إصلاح الوُجوه والنظائر فى القرآن / للفقية الحسين بن محمد الدامغانى / حققه ورتبه وأكمله وأصلحه / عبد العزيز سيد الأهل ، ص ١٦ ، ١٧ .

٥ ـ الإثم بمعنى الزنى ، كما في قوله عز وجل :

﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ <١>

قال السدى : أما " ظاهره " فالزوانى في الحوانيت <٢> ، وأما " بَاطِنَهُ " فالصديقه يتخذها الرجل فيأتيها سراً .

وفسر الضحاك قوله تعالى :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ <٣>

بقوله : كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنى ، ويرون ذلك حلالاً ما كان سراً . فحرم الله السر والعلانية . <٤>

وقد فسر بعضهم قوله عز وجل : (وَذَرُواْ ظَاهِرَ ٱلإِثْمِ وَبَاطِنَهُ) بأن المراد بظاهره وباطنه معصية الله تعالى في السر والعلانية .

ويرى بعض المفسرين أن الظاهر منه ما حرم الله من نكاح ما نكح الآباء من النساء ، والمحرمات من النساء <٥> ، كما يشير إليه قوله عز وجل :

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ <٦>

---

١ ـ سورة الأنعام : ١٢٠ .

٢ ـ الحوانيت : جمع حانوت ، وقد غلب على حانوت الخمار . والعرب تسمى بيوت الخمارين الحوانيت (اللسان ـ حنت) ٢ / ٢٦ .

٣ ـ سورة الأنعام : ١٥١ .

٤ ـ انظر : جامع البيان ١٢ / ٧٢ " المحقق " ، وابن كثير ٢ / ١٦٨ .

٥ ـ المصدر السابق ١٢ / ٧٢ ، وابن كثير ٢ / ١٦٨ .

٦ ـ سورة النساء : ٢٢ .

وقوله تعالى :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا

‹١›

وأن الباطن من الإثم هو الزنى ، وهذا قول سعيد بن جبير .

وقد مر أن أهل الجاهلية كانوا يستتسرون بالزنا ، ويرون ذلك حلالاً ما كان سراً ، فحرم الله السر منه والعلانية ‹٢› .

وقال آخرون : إن المراد من ظاهر الإثم هن أولات الرايات من الزوانى ، أى البغايا في الجاهلية ، كن ينصبن رايات عند خيامهن أو بيوتهن يعرفن بها .

أما الباطن منه : فهن ذوات الأخدان ‹٣›

---

١ ـ سورة النساء : ٢٣ .

٢ ـ انظر : جامع البيان ١٢ / ٧٢ " المحقق " .

٣ ـ والأخدان : جمع خِدْنٍ ، أى المُصاحِب ، وأكثر ذلك يستعمل فيمن يصاحب شهوة ، كما قال تعالى : (وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ) [٢٥ النساء] . مفردات الراغب " خدن " (١٤٥) .

وقد فُسِّر الظاهر من الإثم بالتَّعَرِّى ، أى التجرد من الثياب وما يستر العورة في الطواف .

فظاهره العُرْية التي كانوا يعملون بها حين الطواف بالبيت . ‹١›

والباطن الزنى ‹٢› قال الطبرى رحمه اللّه :

" الإثم : كل ما عُصِىَ اللّه تعالى به من محارمه ، ويدخل فيه السر والعلانية ، ولم يك لأحد أن يخص من ذلك شيئاً دون الآخر " ‹٣› وأنا أميل إلى هذا الرأى .

---

١ ـ العُرْية ، بضم العين ، وسكون الراء : مصدر : عَرِىَ من ثوبه ، يَعْرَى عُرْياً ، وعُرْية . ويقال : جارية حسنة العُرْية ، أى حسنة عند تجردها من ثيابها . (اللسان " عرا ") ١٥ / ٤٤ .

٢ ـ انظر : جامع البيان ١٢ / ٧٢ ـ ٧٦ " المحقق " .

٣ ـ المصدر السابق ١٢ / ٧٥ .

وخلاصة ما سبق :

أن الإثم : هو كل فعل من الأفعال المبطئة عن الثواب وجمعه آثام .

وهو الذنب والمعصية التي حرمها الله تعالى على عباده ، ويستحق فاعلها العقوبة عليها ، سواء كان ظاهراً أم خفياً ، أم سراً أم علانية .

قال تعالى :

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١)

أي فلا يحسبن هؤلاء الكفار أن ما يمدهم الله به من العمر ورغد العيش ومن الخيرات والنعم هو خير لهم ، وإنما تطول أعمارهم ليعملوا بالمعاصي والذنوب ، ليزدادوا إثما على إثم ، وذنوباً على ذنوب أخرى ، ثم يكون لهم عذاب مهين ، يذلهم ويأخذ عزهم وكبرياءهم الذي كانوا عليه في الدنيا (٢) .

ويقول سيد قطب :

الذين كفروا يظنون أن الأمر قد استقام لهم بالخيرات والنعم ، ولم يأخذهم الله بكفرهم الذي يسارعون فيه ، ولكنه سبحانه وتعالى إنما يستدرجهم ، ويعطيهم الحظوظ في الدنيا ، ثم يلهون فيها ، فيأخذهم بعد هذا الخير والإمداد بالقوة والاستدراج ، فهي فتنة لهم ، يتمادون في طغيانهم وتمردهم ، فهذه الإهانة مقابل النعم التي كانوا فيها . (٣)

---

١ ـ سورة آل عمران : ١٧٨ .

٢ ـ انظر : الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ٤ / ٢٨٦ .

٣ ـ في ظلال القرآن ١ / ٥٢٤ .

وأذكر فيما يلي بعض الكبائر التي أطلق عليها القرآن لفظ الإثم ، منها :

١ ـ الإشراك بالله تعالى ، كما أشارت إليه الآيتان من سورة النساء ، وهما قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾
<١>

وقوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ <٢>

حيث يخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفر لعبد لَقيه وهو مشرك به شيئاً ، وأنه سبحانه وتعالى يغفر ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء من عباده ، لأن من يشرك بالله فقد ارتكب ذنباً كبيراً .

قال الطبرى رحمه الله :

« إن الآيتين من كتاب الله قد أبانتا أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله تعالى ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ما لم تك كبيرته شركاً بالله تعالى » <٣> : فالشرك لا يغفره الله تعالى لقوله :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ
وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ <٤>

---

١ ـ سورة النساء : ٤٨ .

٢ ـ سورة النساء : ١١٦ .

٣ ـ جامع البيان ٨ / ٤٥٠ " المحقق " .

٤ ـ سورة المائدة : ٧٢ .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ، في كتابه العزيز أنه يغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر ، حيث يقول : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ <١>

فأعلم سبحانه وتعالى أنه يغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر ، ولا يغفرها لمن أتى الكبائر .

قال **القرطبي** : " وهذا من المحكم المتفق عليه الذي لا خلاف فيه بين الأمة " <٢> وأما قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ <٣>

فقد قال **الخازن** في تفسيره :

« في الآية الكريمة دليل على أن صاحب الكبيرة إذا مات من غير توبة فإنه لا يغفر له ، وأما إذا تاب ، فإنه تحت مشيئة الله تعالى ، إن شاء غفر له ، وأدخله الجنة بمنه وكرمه ، وإن شاء عذبه ، ثم أخرجه من النار برحمته وإحسانه وفضله ، لأنه سبحانه وتعالى وعد بالمغفرة لما دون الشرك » . <٤>

قال عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ <٥>

---

١ ـ سورة النساء : ٣١ .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥ / ٢٤٥ .

٣ ـ سورة النساء : ٤٨ .

٤ ـ تفسير الخازن وبهامشه البغوي ١ / ٤٥٣ .

٥ ـ سورة الفرقان : ٦٨ ـ ٧٠ .

فتفيد الآيات أن أولئك الذين يشركون بالله ، أو يقتلون النفس التي حرم الله الاعتداء عليها ، أو يقترفون الزنى ، فإنهم آثمون ، ويضاعف لهم العذاب يوم القيامة ، ويخلدون في النار ، اللهم إلا الذين تابوا إلى الله ، وأنابوا إليه ، وعملوا الصالحات ، فأولئك يتوب الله عليهم ويغفر لهم ، ويبدل الله سيئاتهم حسنات .

قال **الإمام النووى** عند تفسير قوله عليه الصلاة والسلام :

" لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن " ‹١› .

" إن الزانى والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر ، غير الشرك ، لا يكفرون بذلك ، بل هم مؤمنون ناقصو الإيمان ، وإن تابوا سقطت عقوبتهم ، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنهم ، وأدخلهم الجنة ، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة " ‹٢› .

إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ
يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ‹٣›

٢ ـ افتراء الكذب على الله عز وجل ، وهو من الكبائر التي يطلق عليها القرآن لفظ الإثم ، وذلك كما في قوله تعالى :

ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ‹٤›

---

١ ـ صحيح مسلم بشرح النووى (باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ٢ / ٤١) ومعناه : لا يفعل هذه المعاصى وهو كامل الإيمان .

٢ ـ انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ٢ / ٤١ ، ٤٢ / باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى .

٣ ـ سورة الفرقان : ٧٠ .

٤ ـ سورة النساء : ٥٠ .

والخطاب في الآية الكريمة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ليفضح اليهود والنصارى ، ويتعجب من تزكية أنفسهم ، لأنهم كانوا يرون أنهم أولى الناس بالله تعالى ، وأقربهم إليه ، وأحقهم بفضله وكرمه ورحمته . وقد حكى القرآن الكريم ادعاءهم الباطل ، بقوله عز وجل :

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١)

وقولهم كما حكى القرآن عنهم :

وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢)

فقد ادعوا أنهم لا ذنوب لهم ، وما فعلوه نهاراً غفر لهم ليلاً ، وما فعلوه ليلاً غفر لهم نهاراً ، وهم كالأطفال في عدم الذنوب ، ولكنهم ليسوا أهلاً لذلك ، لأنهم كانوا يتصفون بنقيض ذلك كله ، وإن كل ما قالوه إنما هو كذب وافتراء ، وكفى به إثما ظاهراً (٣) .

---

١ ـ سورة المائدة : ١٨ .

٢ ـ سورة البقرة : ١١١ .

٣ ـ انظر : الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ٥ / ٢٤٦ ـ ٢٤٨ ، والخازن وبهامشه البغوي ١ / ٤٥٤ .

٣ ـ قتل النفس التي حرم الله قتلها ، وهو من الكبائر التي يطلق عليها القرآن لفظ الإثم ، كما ورد في قوله عز وجل :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(١)

ومعنى هذه الآيات الكريمة : قص يامحمد على هؤلاء اليهود قصة ابنى آدم وهما هابيل وقابيل ، بالحق والصدق والصحة ، موافقاً لما في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل ، وذلك حينما قربا قربانا ، وهو ما يتقرب به العبد لربه عز وجل ، من صدقة أو نسك أو صلاة أو غير ذلك من العبادات .

قال **الطبرى** رحمة الله :

« واختلف أهل العلم في سبب تقريب ابنَيْ آدم القربان ، وسبب قبول الله عز وجل ما تقبل منه ، ومَنِ اللذان قربا ؟

قال بعضهم : كان عن أمر الله سبحانه وتعالى إياهما بتقريبه .

وقال آخرون : لم يكن عن أمر الله إياهما به .

وكان سبب القبول أن المتقبَّل منه قرَّب خير ماله ، وقرب الآخر شر ماله .

أما اللذان قربا القربان فهما ابنا آدم من صلبه : هابيل وقابيل » .

---

١ ـ سورة المائدة : ٢٧ ـ ٣٠ .

وقال آخرون : « هما رجلان من بنى إسرائيل لا من ولد آدم لصلبه .

ثم قال : وأما القول في تقريبهما ما قرّبا ، فإن الصواب فيه أن الله تعالى أخبر عباده عنهما أنهما قربا ، ولم يخبر أن تقريبهما ما قرّبا كان عن أمر الله إياهما به ، ولا عن غير أمره وجائز أن يكون عن أمر الله إياهما بذلك ، أو عن غير أمره » .

ثم قال :

« إن اللذين قرّبا القربان كانا ابنى آدم لصلبه ، لا من ذريته من بنى إسرائيل .

وذلك أن الله يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة ، والمخاطبون بهذه الآية كانوا عالمين أن تقريب القربان لله لم يكن إلا في ولد آدم ، دون غيرهم » . ‹١›

وفي هذه الآيات أطلق لفظ " الإثم " على جريمة قتل النفس التي حرم الله الاعتداء عليها ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ‹٢›

وكما قال **عليه الصلاة والسلام** في الصحيح :

" إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار " .

قالوا : يارسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : " إنه كان حريصاً على قتل صاحبه " ‹٣› .

---

١ ـ جامع البيان ١٠ / ٢٠١ ـ ٢٢٠ " المحقق " .

٢ ـ سورة الفرقان : ٦٨ .

٣ ـ صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١ / ٨٥ / كتاب الإيمان / باب (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فسماهم المؤمنين .

و ١٢ / ١٩٢ / كتاب الديات / باب قول الله تعالى (ومن أحياها ...) .

و ١٣ / ٣١ / كتاب الفتن / باب إذا التقى المسلمان بسيفهما .

قال **ابن حجر** : « والمراد المقاتلة بغير تأويل سائغ » .

وقال **المازري** : ذهب ابن الباقلاني : « إلى أن من عزم على المعصية بقلبه ، ووطن عليها نفسه ، أنه يأثم » .

ولكن **الجمهور** قالوا : « إن العزم على السيئة يكتب سيئة مجردة ، لا السيئة التي هم أن يعملها ، كمن يأمر بتحصيل معصية ثم لا يفعلها بعد حصولها ، فإنه يأثم بالأمر المذكور لا بالمعصية » .

ثم قال **ابن حجر** :

« والــذي يظهر أنه من هذا الجنس ، وهو أنه يعاقب على عزمــه بمقــدار ما يستحقه ، ولا يعاقب عقاب من باشر القتل حساً » ‹١› .

٤ ــ فاحشة الزنى ، وهي من الكبائر التي يطلق عليها القرآن لفظ الإثيم .

وقد سبق الكلام على أنها من الإثم عند ذكر قوله تعالى :

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ‹٢›

ووجه الاستدلال على هذا أن كلمة " الأثام " يراد بها في اللغة جزاء الإثم وعقوبته ‹٣› ، فيكون الزنى إثماً وفاحشة عظيمة يستحق فاعلها العقوبة عليها . وقد حذر الله من القرب منها فقال عز وجل :

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ‹٤›

---

١ ــ انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٢٧/١١/ كتاب الرقاق باب / من هم بحسنة أو سيئة .

٢ ــ سورة الفرقان : ٦٨ ، ٦٩ .

٣ــ انظر : اللسان (أثم) ١٢ / ٥ .

٤ ــ سورة الإسراء : ٣٢ .

والفاحشة هي : " ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، وتكون من المحرمات والكبائر " . ‹١›

قال الشيخ محمود شلتوت :

« إن الشرائع الإلهية تنكرها وتمقتها ، وتنهى عنها ، وترد الفطر إلى استقباحها ، صيانه للأفراد ، وحفظاً للمجتمعات ، من الآثار السيئة التي تفسد على الإنسان عقله وخلقه ، وتودى بمستقبله وحياته ، وتصرفه عن طريق الكمال الإنسانى الذي كرم به في هذه الحياة ، وحفظ له مكانته في الخلافة الأرضية وعمارة الدنيا على الوجه الذي يكثر خيره ، ويعظم نفعه ، ويتسم بسمات الرحمة لعباد الله » ‹٢› .

٥ ـ شرب الخمر ولعب الميسر ، وهما من الكبائر التي يطلق عليها لفظ الإثم ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ ‹٣›

« والخمر كل شراب مسكر خمَّر العقل فستره وغطى عليه ، وسميت الخمر خمراً لأنها تستر العقل وتغطيه » . ‹٤›

وأما الإثم الكبير الذي ذكره سبحانه وتعالى في الخمر والميسر فهو زوال عقل الشارب للخمر إذا سكر من شربه ، فلا يعرف ربه ، وذلك أعظمُ الآثام .

---

١ ـ انظر : الخازن وبهامشه البغوى ٦ / ٢٢٠ .

٢ ـ تفسير القرآن الكريم / الأجزاء العشرة / محمود شلتوت / ٤١٦ ، بتصرف يسير .

٣ ـ سورة البقرة : ٢١٩ .

٤ ـ اللسان (خمر) ٤ / ٢٥٤ .

وأما في " الميسر " <١> فلما فيه من الشغل به عن ذكر الله وعن الصلاة ، ووقوع العداوة والبغضاء بين المتياسرين بسببه <٢> ، كما وصف ذلك به ربنا جل ثناؤه بقوله :

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ <٣>

وقوله تعالى :

وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ <٤>

ولقد كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر والميسر التي اعتادهما وألفهما المسلمون قبل التحريم ، ولذا بدأ الله سبحانه وتعالى بتحريك الوجدان الإسلامي في نفوسهم بقوله (وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا) الآية .

فهى الخطوة الأولى في تحريم الخمر بالذات ، ثم جاءت الخطوة الثانية بقوله عز وجل :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ <٥>

وذلك أن أوقات الصلاة متقاربة ، وتضيق الأنفس عن السكر والإفاقة ، وبهذا حدَّ القرآن من هذه العادة السيئة ، وهذا الإثم العظيم .

---

١ ـ " والميسر " : اللعب بالقداح ، يقال : يَسَرَ يسْراً .
واليَسَر : المجتمعون على الميسر والجمع أيسار ، والميسر قمار العرب بالأزلام ، ومنه قوله تعالى (وأن تستقسموا بالأزلام) [المائدة ٣] فهى القداح ، واحدها زلم ، وزُلم ، والاستقسام بها : أن يضرب بها ثم يعمل بما يخرج فيها من أمر أو نهى ، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا أن يقتسموا شيئاً بينهم ، وأحبوا أن يعرفوا قسم كل امرىء منهم تعرفوا ذلك منها ، فأخذ الاستقسام من القسم وهو النصيب .
(انظر : غريب القرآن / لابن قتيبة ١٤١ ، واللسان ـ " يسر ") ٥ / ٦٠ ـ ٦٥ .
٢ ـ انظر : جامع البيان ٤ / ٣٢٦ " المحقق " .
٣ ـ سورة المائدة :٩١ .
٤ ـ سورة البقرة : ٢١٩ .
٥ ـ سورة النساء : ٤٣ .

ثم جاءت الخطوة الثالثة والأخيرة والحاسمة في قوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (١)

وصف الله تعالى الأقسام الأربعة : الخمر ، والميسر ، الانصاب ، والأزلام بوصفين :

١ ـ قوله : (رجس) والرجس في اللغة كل ما استقذر من عمل ، وهو العمل الذي يكون له قوة كاملة في القبح .

٢ ـ قوله : (من عمل الشيطان) وهذا ايضاً مكمل لكونه رجساً ، لأن الشيطان نجس خبيث ، وكل ما أضيف إلى الشيطان ، فهو كذلك ، والمراد من تلك الاضافة المبالغة في القبح .

ولما أمر بالاجتناب عن هذه الاشياء ذكر فيها نوعين من المفسدة :

١ ـ ما يتعلق بالدنيا ، وهو قوله (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر) .

٢ ـ ما يتعلق بالدين وهو قوله (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) .

ووجه العداوة والبغضاء في الخمر :

أن من يشرب الخمر يشربها مع جماعة غالباً ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ويفرح بمحادثتهم ، ومع هذا الاجتماع تأكيد الألفة ، والمحبة ، ولكن في الأغلب ينقلب إلى الضد ، لأن الخمر يزيل العقل ، وإذا زال العقل استولت الشهوات وتملك الغضب من غير مدافعه العقل ، وتحصل

---

١ ـ سورة المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

المنازعات بين الأصحاب بالضرب ، أو الشتم ، أو القتل ، وذلك يورث العداوة والبغضاء ، والشيطان سول لهم أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد المحبة والالفة بينهم ، لكن انقلب في نهاية الأمر إلي العداوة والبغضاء .

وفي الميسر من اللعب بالقمار اتلاف للأموال بالباطل ، ومن يكون مغلوباً في القمار مرة دعاه ذلك إلى الاستمرار على رجاء أن يكسب ويكون غالباً فيه ، وينفق أمواله حتى لا يبقى له شيء منها ، ولا شك أنه يصبح فقيراً ، حتى يحصل أن يقامر على أهله وولده ، ثم هؤلاء يصيرون من اعدى الاعداء لأولئك الذين كانوا أحب الناس لهم .

فظهر أن في الخمر والميسر من إثارة الفتن والعداوة والبغضاء وغيره مما فيه فساد .

ولما بين اللّه تعالى هذه المفاسد ، قال (فهل أنتم منتهون) وهو يدل على وجوب الانتهاء . ‹١›

وهذا التدرج في تحريم الخمر تحريماً باتاً قاطعاً من عظمة الإسلام وحكمته في التشريع والتحليل والتحريم ، التي تراعى أحوال الأفراد والمجتمعات وظروفهم .

٦ ـ اقتراف الذنب ثم إلقاؤه على البرىء منه ، وهو أيضاً مما يطلق عليه لفظ الإثم في القرآن ، قال تعالى :

وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا

‹٢›

---

١ ـ انظر التفسير الكبير : ١٢ / ٧٩ ـ ٨١ باختصار .

٢ ـ سورة النساء : ١١١ ، ١١٢ .

وهاتان الآيتان تقرران أن الذي يرتكب الإثم هو الذي يتحمل وزره دون غيره ، كما قال عز وجل :

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ﴿١﴾

إن الإله الحكيم العادل يقرر أن عقوبة الإثم إنما تقع على مرتكبه ، وهو سبحانه وتعالى المجازى عليه في الدنيا والآخرة ، لأنه تعالى وضع حدوداً وقوانين لمعالم الشريعة الإسلامية ، فمن يتجاوزها فهو لا يضر إلا نفسه ، سواء بإقامة الحد عليه أو عقوبة التعزير في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن الله سيجزى كل إنسان بحسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وهؤلاء الذين يكسبون الخطايا والذنوب والآثام ثم يلقون بها على الأبرياء ، ناسين ومتجاهلين الخالق العظيم الذي سجل عليهم كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم ، وهو مؤاخذهم بما فعلوا ، ومجازيهم عليه ـ هؤلاء إذا فعلوا ذلك ، ورموا به غيرهم من الأبرياء ، فقد اكتسبوا بذلك جرماً وذنباً عظيماً ، يضاف إلى جرمهم وخطاياهم السابقة ﴿٢﴾ .

وقد جمعت الآية الكريمة ﴿٣﴾ بين الخطيئة والإثم بعطف أحدهما على الآخر . فما المراد بالخطيئة ؟ وما الفرق بينها وبين الإثم ؟ .

وقبل الإجابة على السؤال يجب تعريف الخطيئة في اللغة : فالخطيئة : مأخوذة من الخَطَأ ، وهو ضد الصواب ، أو هو ما لم يُتَعمَّد .

والخِطْءُ بكسر الخاء وسكون الطاء : ما تُعُمِّدَ

وقَتْلُ الخَطَأ : أن تقتل إنساناً بفعلك من غير أن تقصد قتله ، أولا تَقْصد ضَرْبَه بما قتلتَه به .

وأخطأه في هذه المسألة : أراد أنه مُخْطِيء فيها .

---

١ ـ سورة الأنعام : ١٦٤ .

٢ ـ انظر : تفسير المنار ٥ / ٣٩٩ .

٣ ـ سورة النساء : ١١١ ، ١١٢ .

وأَخْطأ الرامى الغرضَ : لم يُصِبْه .

وأَخْطَأ الطريقَ : عَدَل عنه .

وأَخْطَأ فلانٌ يُخْطِىءُ ، إذا سلك سبيل الخطأ عمداً وسهواً .

وخطَّأه بتشديد الطاء ، تَخْطِئَة ، وتَخْطِيئاً : نسبه إلى ٱلْخَطأ ، وقال له : أَخْطَأْتَ . وخَطِىءَ بفتح فكسر : بمعنى أَخْطَأ . وقيل خَطِىءَ : إذا اتعمَّد ، وأَخْطأ : إذا لم يَتَعَمَّد .

ويقال : قد خَطِئْتُ ، أى أَثِمْتُ ، خِطْأً ، فأنا خاطِىءٌ ، ‹١› .

قال تعالى :

إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ‹٢›

أى إثما عظيماً .

وقال تعالى عن **إخوة يوسف** :

إِنَّا كُنَّا خَاطِـِٔينَ ‹٣› أى آثمين .

والمُخْطِىء : من أراد الصواب فصار إلى غيره ، والخَاطِىء : من تعمَّد لما لا ينبغى .

ويقال : رجل خَطَّاء ، أى ملازم للخطايا ، غير تارك لها .

ويقال : أَخْطَأ خَاطِئَةً ، جاء بالمصدر على وزن " فاعلة " كالعافية ، ‹٤›
قال تعالى :

وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ‹٥›

---

١ ـ انظر : اللسان (خطأ) ١ / ٦٥ ـ ٦٨ .

٢ ـ سورة الإسراء : ٣١ .

٣ ـ سورة يوسف : ٩٧ .

٤ ـ انظر : اللسان (خطأ) ١ / ٦٥ ـ ٦٨ .

٥ ـ سورة الحاقة : ٩ .

والخَطيئة : الذنب على عَمْد ، وجمعه : خَطايا ، وخَطِيئَات ، قال تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ ‹١›

والسَّيِّئة : الشرك ، وقيل : الكبيرة من الكبائر .

ومعنى الآية الكريمة :

أن من أشرك بالله تعالى ، واقترف ذنوباً وجمعت عليه سيئات ، فمات قبل الإنابة والتوبة فهو من الملازمين للنار . ‹٢› قال تعالى :

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ‹٣›

فالخطيئة والسيئة يتقاربان ، لكن الخطيئة أكثر فيما لا يكون مقصودا إليه في نفسه ، بل يكون المقصود شيئاً يولد ذلك الفعل ، مثل : من يرمي الصيد فيصيب إنساناً ، أو يشرب مسكراً فجنى في سكره .

وكذلك **السبب سببان** : محظور فعله كشرب الخمر ، وما يتولد عنه محرم ، وغير محظور كرمي الصيد وما يتولد عنه غير محرم ‹٤› ، كما في قوله عز وجل :

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ ‹٥›

وقد لاحظت أن الخطيئة في الصيد ظاهرة حيث إنه قد ارتكب خطأ بعد أن قصد شيئاً مباحاً وهو الصيد ، ولكن في المثال الثانى فإنه ارتكب محرماً ومحظوراً ، وهو شرب الخمر أو المسكر ، ثم الجناية التي حصلت منه بسبب

---

١ ـ سورة البقرة : ٨١ .

٢ ـ جامع البيان ٢ / ٢٨٤ " المحقق " .

٣ ـ سورة النمل : ٩٠ .

٤ ـ انظر : بصائر ذوى التمييز ٢ / ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ومفردات الراغب (خطأ) ١٥١ .

٥ ـ سورة الأحزاب : ٥ .

المسكر وشربه الخمر وبارتكابه الجناية ، وإن شرب خمراً وهو يظنه ماء ، وليس مسكراً ، فحصلت منه الجناية كالقتل أو الزنى ، فالخطيئة لا تكون عن قصد إلى فعله .

وبعد هذا البيان نعود إلى السؤال السابق وهو ما هو الفرق بين الخطيئة والإثم ؟

والجواب أن من العلماء من يطلق ألفاظ : الخطيئة ، والإثم ، والذنب ، والسيئة ، على " المعصية " فتكون الخطيئة والإثم سواء عندهم .

والصواب أن مفهوم " الخطيئة " غير مفهوم " الإثم " فالخطيئة تكون من قبل العمد وغير العمد ، أما الإثم فلا يكون إلا عن العمد <١> .

ومن ناحية أخرى ، وهي المعنى اللغوى لكل من الكلمتين ، نرى أن" الخطيئة " هي ما يصدر عن الإنسان خطأ ، بارتكاب ذنب ملاحظ مخالفته للشريعة الإسلامية ، على حين أن " الإثم " يفيد ارتكاب ذنب محظور .

وبناء على هذا فإن الإثم لا يمكن أن يكون بمعنى الخطيئة في الآية السابقة <٢> لأن أحدهما معطوف على الآخر ، فإن العطف يقتضى المغايرة .

والآية السابقة <٢> نزلت في ابن أُبَيْرِق ، ورميه بالسرقة لَبِيد بن سَهْل وكان بريئاً منها <٣> .

٧ ـ تبديل وصيَّة الميت ، وهو مما يطلق عليه لفظ الإثم في القرآن كما جاء في قوله عز وجل :

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ <٤>

---

١ ـ جامع البيان ٩ / ١٩٧ " المحقق " .

٢ ـ سورة النساء : ١١٢ .

٣ ـ انظر : جامع البيان ٩ / ١٨٠ " المحقق " .

٤ ـ سورة البقرة : ١٨١ ، ١٨٢ .

فمن غيَّر هذه الوصية بعد ما علمها ، من وصيّ أو شاهد ، بأن حرّفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص ، وكذلك من كتم ما علم من الوصية ، فيقع الإثم على الذين بدلوا وغيروا ، أما الميت فأجره على الله تعالى .

وفي ذلك وَعيدٌ شديد للمبدّلين والمغيرين للوصّية .

أما من علم أو ظن ، من الموصى قبل موته ، ميلاً عن الحق بالخطأ ، أو ميلاً عن الحق عمداً ، وأصلح بين الموصي بأن حثه على الوصية وللموصَى له ، على الوجه الشرعي المأمور به ، فلا يعاقب ، كما قال تعالى :

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ‹١›

والجنف : الخطأ . وقال الطبرى رحمه الله في تفسير الآية الكريمة :

فمن خاف من مُوصٍ أن يميل إلى غير الحق خطأ منه ، أو يعتمد إثماً فى وصية ، بأن يوصى لوالديه وأقربيه الذين لا يرثونه بأكثر مما يجوز له أن يوصى لهم به من ماله ، وبغير ما أذن الله له به مما جاوز الثلث ، أو بالثلث كله ، وفى المال قلة ، وفى الورثة كثرة ، فلا حرج ولا ذنب ولا إثم ، وعلى من حضره أن يصلح بين مَن يُوصَى لهم وبين ورثة الميت ، وبين من حضره الوفاة ، بأن يأمره فى ذلك بالمعروف ويعرِّفه ما أباح الله له فى ذلك ، وأذن له فيه من الوصية فى ماله ، وينهاه أن يتجاوز فى الوصية عن الحد المعروف ، الذى بينه الله تعالى لعباده فى كتابه بقوله :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ ‹٢›
وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ

---

١ ـ سورة البقرة : ١٨٢ .

٢ ـ سورة البقرة : ١٨٠ .

وذلك هو " الإصلاح " الذى نوه الله عنه بقولة (فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ) الآية .

وكذلك لمن يرى فى المال فَضْلا وكثرة ، وفى الورثة قلة ، فأراد أن يقتصر فى وصيته لوالديه وأقربيه عن ثلثه ، فأصلح من حَضره بينه وبين ورثته وبين والديه وأقربيه الذين يريد أن يوصى لهم ، بأن يأمر المريض أن يزيد فى وصيته لهم ، ويبلغ بها مارَخَّص الله فيه من الثلث ، فذلك أيضاً من الإصلاح بينهم بالمعروف .

ثم اختار **الطبرى** هذا الرأى وعلله بقوله : وإنما اخترنا هذا القول ، لأن الله تعالى ، قال : " فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أو إِثْماً " ، يعنى بذلك :

فمن خاف من موص أن يجنف أو يأثم ، فخوفُ الجنف والإثم من الموصى ، إنما هو كائن قبل وقوع الجنف والإثم ، فأما بعد وجوده منه فلا وجه للخوف منه بأن يجنف أو يأثم ، بل تلك حال مَنْ قد جَنفَ أو أثِم .

ولو كان ذلك معناه لقيل : فمن تبيَّن من مُوص جنفا أو إثماً ـ أو أيقن أو علم ـ ولم يقل : فمن خاف منه جنفا ‹١› .

وقد ورد لفظ " الأثِيم " فى عدة مواضع من القرآن الكريم ، دالاً على كل إنسان يعتاد ارتكاب الآثام والكبائر ، لأن هذا اللفظ صفه مشبهة ، ومن شأنها أن تدل على الثبات والدوام .

قال تعالى :

يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ‹٢›

---

١ ـ جامع البيان ٢/ ٤٠٣ ، ٤٠٤ " المحقق " .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٧٦ .

يخبر سبحانه وتعالي عباده أنه يمحق الربا ، أى يزيل خيره ويذهبه بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة الانتفاع به ، بل يعدمه فى الدنيا ، وفى الآخرة يعاقب عليه ، وهو تعالى يكثر الصدقات وينميها ، وقوله (وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) أى لا يحب كفور القلب ، أثيم القول والفعل ، وختمت الآية بهذه الصفة الشنيعة التى لا يرضى بها الله تعالى ، لأن المرابى لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ، ولا يكتفى بما شرع له من الكسب الحلال المباح ولكنه يسعى فى أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الدنيئة الخبيثة التى لا يرضى بها الله تعالى ، فهو جحود لما أسبغه الله تعالى عليه من النعم ، ظلوم آثم لما عمل به ‹١› .

ثم يذكر الحق جل شأنه ، فى استفهام تشويقى ، أن الشياطين تلتف حول الأثيم ، وتسيطر عليه ، وتوجهه إلى الشر ، فقال عز وجل :

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ‹٢›

فالله تعالى نزه رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم عما زعمه المشركون ، أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بحق ، وإنما افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رِئِيٌّ من الجان ، فنزه جانب الرسول صلى الله عليه وسلم من قولهم وافترائهم ، وأخبر أنَّ ما جاء به إنما هو من عند الله تعالى ، مصداقاً لقوله عز وجل :

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ‹٣›

---

١ ـ انظر : ابن كثير ١ / ٣٢٨ ـ ٣٣٠ .

٢ ـ سورة الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢ .

٣ ـ سورة الشعراء : ٢١٠ ، ٢١١ .

وإنما نزل به الوحي على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وليس من قبل الشياطين ، وإنما ينزل الشياطين على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكاذبين الأفاكين <١> .

و" الأثيم " الكاذب الفاجر ، قال سبحانه وتعالى فى وصفه :

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ <٢>

والويل : الهلاك والدمار ، أو واد فى جهنم .

والأفاك : الكذاب فى قوله ، والأثيم : العاصى فى فعله ، والمراد به : النضر بن الحارث ، وقيل : الحارث بن كَلَده <٣> .

ثم قال تعالى فى وصفه :

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ <٤>

المناع : شديد المنع للمال وبخيل به ، فيمنع ولده وعشيرته وأهله من الدخول فى الإسلام بقوله لهم : لئن دخل أحد منكم فى دين محمد فلن أنفعه بمالى بشىء أبدا <٥> .

ويقصد بـ " الأثيم " ذو الإثم ، وهو الأخنس بن شريق .

وقيل : الأسود بن عبد يغوث ، أو عبد الرحمن بن الأسود ، وقيل : الوليد بن المغيرة ، وقيل : أبو جهل بن هشام <٦> .

---

١ ـ انظر : ابن كثير ٣ / ٣٥٢ ، بتصرف .

٢ ـ سورة الجاثية : ٧ ، ٨ .

٣ ـ انظر : ابن كثير ٤ / ١٤٨ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٦ / ١٥٥ .

٤ ـ سورة القلم : ١٢ .

٥ ـ انظر : فتح القدير ٥ / ٢٦٨ .

٦ ـ انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٢٣١ ، ٢٣٢ .

وأرى أنها صفة أطلقت على رءوس الكفر وأئمة الشرك ، لقوله تعالى :

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ ‹١›

والأثيم : المشرك المكتسب للإثم ، لأنه إذا وجهت إليه النصيحة أعرض عنها واستكبر مزهواً بنفسه ، ومصراً على الكفر والذنوب ، فحسبه جهنم ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ ‹٢›

فهذا الكافر المرتكب ما حرم الله تعالى عليه ، من الفساد فى الأرض ، ونشر الضلال فى أرجائها ، إذا فعل ذلك دون رقيب أو وازع دينى يدفعه ووُجِّه إليه النصح والإرشاد ، بقول الناصح (اتَّقِ الله) وذكر بخشية الله تعالى ، والحياء منه ، والخوف من عقابه ، والتحرج من غضبه ـ أنكر على الناصح هذا النصح والإرشاد ، واستكبر أن يوجه إليه ، وعظم عليه أن يؤخذ بهذا الخطأ ، وأن يوجه إلى الحق والصواب ، فتأخذه العزة ، ليس بالحق ، ولا بالخير ، ولكن بالإثم ، فاستعزَّ بالذنب والمعصية والخطيئة ، ورفع نفسه فى وجه الحق الذى ذكر به ، دون حياء أو خجل من الله تعالى ، الذى يراقبه فى السر والعلانية ، ويكون عليه شهيداً بكل صغيرة وكبيرة ، لا يخفى عليه حتى ما فى قلب هذا الجاحد الذى يتظاهر بالخير والإخلاص ، وهو على غير ذلك ، وحملته الأنفة وحميَّةُ الجاهلية على ارتكاب الإثم ، والتكبر عن قبول الحق ، فأغرق فى الإفساد ، وأمعن فى العناد (فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ) أى يكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً ، وبئس هذا الفراش والمهاد ‹٣› .

---

١ ـ سورة المطففين : ١٢ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٠٦ .

٣ ـ انظر : فى ظلال القرآن ١ / ٢٠٥ / بتصرف .

وللإثم والعدوان أضرار كثيرة ، تعود على الفرد والمجتمع ، نخص بالذكر منها ما يأتى :

١ ـ إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير حق ، ومن ذلك :

اتهام السيدة الفاضلة أم المؤمنين رضى الله عنها زوراً وبهتاناً ، فى حادثة الإفك .

٢ ـ التناجى بالإثم والعدوان .

أولاً : أما إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير حق ، فلقد هَدَّد الله تعالى ، وتوعد بالعقاب الشديد والعذاب الأليم ، كل من يفعل ذلك ، سواء أكان الإيذاء بالأفعال أو بالأقوال القبيحة ، كالبهتان ، والتكذيب الفاحش المختلق . قال **سيد قطب** :

" إن ترك الألسنة تلقى التهم على المؤمنات المحصنات العفيفات ، سواء ثيبات أو أبكاراً ، بدون دليل قاطع ، يترك المجال واسعاً لكل من شاء أن يقذف بريئاً أو بريئة بتلك التهمة النكراء ، ثم يمضى آمناً ! فتصبح الجماعة وتمسى ، وإذا أعراضها مجرحة وسمعتها ملوثة ، وكل فرد من أفرادها متهم أو مهدد بالاتهام ، وكل زوج فيها شاك فى زوجه ، وكل رجل شاك فى أصله ، وكل بيت مهدد بالانهيار ، وهى حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق" (١) .

---

١ ـ فى ظلال القرآن ٤ / ٢٤٩٠ .

ولهذا صان الإسلام الأعراض من التهجم والاعتداء ، فقال عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ‹١›

والآية الكريمة فيها بيان حكم من قذف محصناً أو محصنة بالزنا بقوله له : يازانى ، أو يازانية ، أو زنيت ، فيجب عليه ثمانون جلدة حداً ، مع إسقاط شهادته ، لأن القذف من الكبائر ، واسم الفاسق لا يقع إلا على صاحب كبيرة ‹٢› .

يقول سيد قطب :

« شدد القرآن الكريم فى عقوبة القذف ، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا ... ثمانين جلدة ، مع إسقاط الشهادة والوصم بالفسق ، والعقوبة الأولى جسدية ، والثانية أدبية فى وسط الجماعة ، ويكفى أن يهدر قول القاذف ، فلا يؤخذ له بشهادة ، وأن يسقط اعتباره بين الناس ، ويمشى بينهم متهماً لا يوثق بكلامه ، والثالثة دينية ، فهو منحرف عن الإيمان خارج عن الطريق المستقيم ، حتى يأتى القاذف بأربعة يشهدون برؤية الفعل ، أو بثلاثة معه إن كان قد رآه ، فيكون قوله صحيحاً ، ثم يوقع حد الزنى على صاحب الفعلة ، وتظل العقوبات التى توقع على القاذف بعد الحد مصلتة فوق رأسه ، إلا أن يتوب » ‹٣› كما قال تعالى :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ‹٤›

---

١ ـ سورة النور : ٤ .

٢ ـ انظر : الخازن وبهامشه البغوى ٥ / ٤٠ ، ٤١ / بتصرف .

٣ ـ فى ظلال القرآن ٤ / ٢٤٩١ ، بتصرف يسير .

٤ ـ سورة النور : ٥ .

أما إن قذف الرجل امرأته فيجب اللعان كما يشير إليه قوله :

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ
فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا
عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ
﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ‹١›

وحينما يقذف الرجل زوجته ، وليس له شاهد إلا نفسه يلاعن بينهما ، بأن يحلف أربع مرات بالله إنه لصادق فى دعواه عليها بالزنا ، ويحلف يميناً خامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين .

وتسمى هذه شهادات لأنه الشاهد الوحيد .

فإذا فعل أعطاها قدر مهرها ، وطلقت منه طلاقاً بائناً ، وحق عليها حد الزنا وهو الرجم .

اللهم إلا أن ترغب فى درء الحد عنها ، فإنها عندئذ تحلف بالله أربع مرات إنه كاذب فيما رماها به ، وتحلف يميناً خامسة بأن غضب الله عليها إن كان صادقاً وهى كاذبة ، وبهذا يدرأ عنها الحد ، وتبين من زوجها بالملاعنة ، ولا ينسب ولدها إليه إن كانت حاملاً ، بل ينسب إليها ، ولا يقذف الولد ومن يقذفه يحد ‹٢› .

---

١ ــ سورة النور : ٦ ــ ٩ .

٢ ــ انظر : الخازن وبهامشه البغوى ٥ / ٤٣ ــ ٤٥ ، فى ظلال القرآن ٤ / ٢٤٩١ ، ٢٤٩٢ .

وورد سبب نزول هذه الآية فى الصحيح :

" أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، أرأيت رجُلاً رأى مع امرأته رجلاً أيقتله فيقتلونه ، أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله فيهما ما ذكرَ فى القرآن من التَّلاعُن . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد قُضِىَ فيك وفى امرأتك . قال : فتَلاعَنا ــ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ ففارقها ، فكانت سُنَّة أن يُفرَّقَ بين المتلاعنَين ، وكانت حاملاً فأنكرحملَها ، وكان ابنها يدعى إليها . ثم جرَت السنة فى الميراث يَرثها وتَرِث منه ما فرض الله لها " <١> .

وقد عقب سبحانه وتعالى على هذا التخفيف والتيسير ، ومراعاة الأحوال والظروف بقوله :

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ <٢>

أى لعاجلكم بالعقوبة ، ولكنه ستر عليكم ، ودفع عنكم الحد باللعان ، فهو سبحانه وتعالى يعود على من يرجع إليه عن المعاصى بالتوبة والمغفرة والرحمة وهو حكيم فيما فرضه من الحدود <٣> .

وكذلك من الإثم والإيذاء للمسلمين تعييرُ بعضهم بعضاً بحسَب مذموم ، أو حرفة مذمومة ، أو شىء يثقل عليه أن يسمَعه ، قال تعالى :

وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا <٤>

---

١ ــ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٨ / ٤٤٨ / كتاب التفسير / باب (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين) و ٩ / ٤٤٦ كتاب الطلاق ، باب اللِّعان ، ومن طلق بعد اللِّعان .

٢ ــ سورة النور : ١٠ .

٣ ــ انظر : الخازن وبهامشة البغوى ٥ / ٤٦ .

٤ ــ سورة النساء : ١١٢ .

وفيها تهديد ووعيد لأولئك الذين يكسبون الخطايا والآثام ثم يلقون بها على الأبرياء ، ويحملونهم تبعاتها ، ليجدوا فى ذلك سبيلاً إلى التخلص من جرائمهم ، والله تعالى قد سجلها عليهم ، وهو آخذهم بها ، ومجازيهم عليها وهم إذا رموا بها غيرهم فقد اكتسبوا جرماً آخر إلى جرمهم .

كما قال سبحانه وتعالى :

وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟
فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١﴾

أما اتهام السيدة الفاضلة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بالزور والبهتان فى حادثه الإفك فهو كما صورها القرآن الكريم فى قوله عز وجل :

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ
كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا
جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾
إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾

---

١ ـ سورة الأحزاب : ٥٨ .

٢ ـ سورة النور : ١١ ـ ١٩ .

فقد عبر **القرآن الكريم عن هذه الحادثه بالإفك** ، وهو صرف الكلام إلى غير حقيقته ، أو هو الكذب والافتراء والبهتان العظيم بالخبر عن أمر باطن ممّن لم يشاهَده ، وذلك أكذب الأخبار ، وأشر الاقوال حيث هُتك به العرض الذى هو أشرف المحرمات ، ومقرون فى تأكيد التحريم بالمهجات ‹١› .

أما ما ورد فى الصحيح من سبب نزولها :

فعن **عائشة رضى الله عنها** قالت : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يَخْرُجَ أقرعَ بين أزواجهِ ، فأيتُهنَّ خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه . قالت عائشة : فأقرعَ بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى ، فخرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزلَ الحجابُ ، فأنا أُحمل فى هَودَجى وأُنْزل فيه . فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك ، وقفل ودَنونا من المدينة قافلين ، آذَنَ ليلة بالرَّحيل ، فقمت حينَ آذنوا بالرَّحيل ، فمَشيتُ حتى جاوزتُ الجيش ، فلما قَضَيتُ شأنى أقبلتُ إلى رحلى ، فإذا عِقدٌ لى من جَزْعِ أظفارِ ‹٢› قد انقطع ، فالتمستُ عِقدى ، وحَبَسنى ابتغاؤه . وأقبلَ الرَّهط الذين كانوا يَرحَلون لى ، فاحْتملوا هودَجى ، فَرحلوهُ على بَعيرى الذى كنتُ ركبت ، وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساءُ إذ ذاك خِفافاً لم يثقلهُنَّ اللحم ، إنما يأكلنَ العُلقةَ من الطعام ، فلم يستنكر القومُ خِفَّة الهودج حين رَفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبَعثُوا الجمل وساروا ، فوَجَدتُ

١ ـ انظر : أحكام القرآن لابن العربى ٣ / ١٣٥٥ .

٢ ـ قوله:(جزع ظفار) بفتح الجيم وسكون الزاى بعدها مهملة :خرز معروف فى سواده بياض كالعروق.

فأما ظفار بفتح الظاء المعجمة ثم فاء بعدها راء مبنية على الكسر فهى مدينة باليمن .

وقيل : جبل ، وقيل : سميت به المدينة وهى فى اقصى اليمن إلى جهة الهند .

قال ابن حجر : وإن ثبتت الرواية أن " جزع أظفار " فلعل عقدها كان من الظفر أحد أنواع القسط ، وهو طيب الرائحة يتبخر به ، فلعله عمل مثل الخرز فأطلقت عليه جزعاً تشبيهاً به ونظمته قلادة إما لحسن لونه أو لطيب ريحه / فتح البارى ٨ / ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

عِقدى بعد ما استمرَّ الجيشُ ، فجئتُ منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب ، فأقمتُ منزلى الذى كنتُ به ، وظَنَنتُ أنهم سيفقِدونى فيرجعونَ إلىَّ . فبينما أنا جالسةٌ فى منزلى غلبَتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلَمىُّ ، ثم الذَكوانىُّ ، من وراء الجيش ، فأدلَج ، فأصبَح عند منزلى <١> فرأى سَوادَ إنسانٍ نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى ، وكان يَرانى قبلَ الحجاب ، فاستَيقظتُ باستِرجاعه حين عرفَنى ، فخمرتُ وَجهى بجلبابى ، واللَّه ما كلمنى كلمةً ، ولا سمعتُ منه كلمةً غير استِرجاعه ، حتى أناخ راحلَتُه فوطىءَ على يدَيها فركبتها <٢> ، فانطلقَ يَقودُ بى الراحلة حتى أتينا الجيشَ بعد ما نزلوا مُوغِرين فى نحرِ الظهيرة <٣> ، فهلكَ من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبدَ اللَّه بن أبىِّ ابن سلول ، فقَدِمنا المدينة ، فاشتكيتُ حينَ قدمتُ شهرا ، والناسُ يفيضون فى قولِ أصحاب الإفك ، ولا أشعُرُ بشىء من ذلك ، وهو يَريبُنى <٤> فى وَجهى أنى لا أعرف من رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخُلُ علىَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ، فيُسلِّمُ ثم يقول : كيفَ تيكم ؟ ثم ينصرف ، فذاكَ الذي يريبنى ولا أشعرُ بالشرِّ ، حتي خَرَجت بعد ما نقهتُ ، <٥> فخرَجَت

---

١ ـ قوله : (فأدلج فأصبح عند منزلى) أدْلج ، بسكون الدال ، وفى رواية " ادَّلج " بتشديدها ، وبالسكون : سار من أوله ، وبالتشديد : سار من آخره .

وعلى هذا فيكون الذى هنا بالتشديد لأنه كان فى آخر الليل ، وكأنه تأخر فى مكانه حتى قرب الصبح فركب ليظهر له ما يسقط من الجيش مما يخفيه الليل ، ويحتمل أن يكون سبب تأخيره ما جرت به عادته من غلبة النوم عليه . (فتح البارى ٨ / ٤٦٢) .

٢ ـ قوله : (فوطىءَ على يديها فركبتها) أى ليكون أسهل لركوبها ، ولا يحتاج إلى مسها عند ركوبها .

٣ ـ قوله : (بعد ما نزلوا موغِرين فى نحر الظهيرة) بضم الميم وكسر الغين المعجمة ، والراء المهمله أى نازلين فى وقت الوغرة بفتح الواو وسكون الغين ، وهى شدة الحر لما تكون الشمس فى كبد السماء . (فتح البارى ٨ / ٤٦٣) .

٤ ـ قوله : (وهو يَرِيبنى فى وجهى) بفتح أوله وضمه ، يقال : رابه ، وأرابه ، إذا أوهمه وشككه . (شرح النووى على صحيح مسلم ١٧ / ١٠٦) .

٥ ـ قوله : (نقهت) بفتح القاف وكسرها ، والأول أشهر : لغتان ، أى برأمن المرض وهو قريب العهد ولم يرجع إليه كمال صحته . (فتح البارى ٨ / ٤٦٥) .

معى أمُّ مِسْطح قِبلَ المَناصع <١> ، وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبلَ أن نتخذ الكنُفَ قريباً من بيوتنا . فانطلقتُ أنا وأمُّ مسطح ـ وهي ابنة أبى رُهم بن عبد مناف ، وأمُّها بنتُ صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطحُ بن أثاثة ـ فأقبلتُ أنا وأمُّ مسطح قبلَ بيتى وقد فرَغنا من شأننا ، فعثَرتْ أمُّ مسطح فى مِرْطها <٢> ، فقالت : تَعِسَ مسطح <٣> . فقلت لها : بئس ما قلتِ ، أتَسُبِّين رجلاً شهد بدراً ؟ قالت : أى هَنْتاه <٤> ، أوَ لم تسمعى ما قال : ؟ قالت قلت : وما قال : ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضا علَىَّ مرضى : فلما رجعت إلى بيتى ودخل علىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم تعنى : سلَّم ، ثم قال : كيف تيكم ؟ . فقلت : أتأذَنُ لى أن آتى أبَوىَّ ؟ قالت : وأنا حينئذ أريدُ أن أستيقنَ الخبَر من قِبَلهما . قالت :فأذِن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أبوىَّ ، فقلتُ لأمى : يا أمَّتاهُ ، ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنية هَوِّنى عليك ، فوالله لَقَلَّما كانت امرأة قط وَضيئة عند رجل يحبُّها ولها ضَرائر إلا أكثرن عليها . قالت :فقلت :سبحانَ الله ، ولقد تحدَّثَ الناس بهذا ؟قالت :فبكيت تلك الليلةَ حتى أصبحتُ لا يرقأُ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكى . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىَّ بن أبى طالب وأسامَة بن زيد رضى الله عنهما حيَن استَلبَثَ الوَحىُ يستأمِرُهما فى فراقِ أهله . قالت :

---

١ ـ قوله : (قبل المناصع) أى جهتها ، والمناصع صعيد خارج المدينه كانوا يتبرزون فيها . (فتح البارى ٨ / ٤٦٥) .

٢ ـ قوله : (فى مِرطها) بكسر الميم : كساء من صوف ، وقد يكون من غيره .

٣ ـ قوله : (تَعِسَ مسطح) بفتح المثناة وكسر العين المهملة ، وفتحها ايضاً بعدها سين مهملة أى كب لوجهه ، أو هلك ، ولزمه الشر ، أو بعد . (فتح البارى ٨ / ٤٦٦) .

٤ ـ قوله : (قالت : أى هنتاه) أى حرف نداء للبعيد ، وقد يستعمل للقريب حيث ينزل منزلة البعيد ، وهَنْتاه ، بفتح الهاء وسكون النون وقد تفتح ، بعدها مثناة ، وأخره هاء ساكنة وقد تضم : أى هذه ، وقيل : امرأة . وقيل : بلْهى ، كأنها نسبتها إلى قلة المعرفة بمكائد الناس .

وهذه اللفظه تختص بالنداء ، وإذا خوطب التكر قيل ياهنة ، وقد تشبع النون فيقال : ياهناه . والمعنى أن أم مسطح نسبت عائشة إلى الغفلة عما قيل فيها لإنكارها سب مسطح فخاطبتها خطاب البعيد . (فتح البارى ٨ / ٤٦٦) .

فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلمُ لهم فى نفسه من الوُدّ ، فقال : يارسولَ الله ، أهلكَ وما نعلمُ إلا خَيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : يارسول الله ، لم يضَيِّقِ الله عليك والنساء سِواها كثير ، وإن تسأل الجارية تَصدُقْكَ . قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرِيرة ، فقال : أىْ بريرةُ ، هل رأيت من شىء يَريبُك ؟ قالت بريرة : لا والذى بعثك بالحق ، إنْ رأيت عليها أمرا أغمِصهُ عليها (١) أكثر من أنها جارية حديثة السنِّ تنام عن عَجِينِ أهلها فتأتى الداجنُ فتأكله (٢) . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستعذَرَ يومئذ من عبد الله بن أبى ابن سلول (٣) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر : يامعشر المسلمين ، من يَعذِرُنى من رجل قد بلغنى أذاهُ فى أهل بيتى ؟ فوالله ما علمتُ على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً .

---

١ ـ قوله : (إن رأيت عليها أمرا أغمصه عليها) أى ما رأيت فيها مما تسألون عنه شيئاً أصلاً وأما من غيرها ففيها ما ذكرت من غلبة النوم لصغر سنها ورطوبة بدنها .

و " أغمصه " بغين معجمه وصاد مهملة أى أعيبه . (فتح البارى ٨ / ٤٧٠) .

٢ ـ قوله : (فتأتى الدجن فتأكله) بدال مهملة ثم جيم : الشاة التى تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى ، وقيل : هى كل ما يألف البيوت مطلقا شاة أو طيرا .

وذكر ابن حجر ما قاله ابن المنير فى الحاشيه :

هذا من الاستثناء البديع الذى يراد به المبالغة فى نفس العيب ، فغفلتها عن عجينتها أبعد لها من الذى رميت به ، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات (فتح البارى ٨ / ٤٧٠) .

٣ ـ قوله : (فقام رسول الله فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبى ابن سلول) أى طلب من يعذره منه ، أى ينصفه .

قال الخطابى : يحتمل أن يكون معناه من يقوم بعذره فيما رمى أهله به من المكروه ، ومن يقوم بعذرى إذا عاقبة على سوء ما صدر منه ؟ ورجح النووى الثانى .

وقيل : من يعذرنى : من ينصرنى ، والعذير الناصر . وقيل : من ينتقم لى منه . (فتح البارى ٨ / ٤٧٠) .

وما كان يدخل على أهلى إلا معى . فقام سعدُ بن معاذ الأنصاريُّ فقال : يارسول الله ، أنا أعذرُك منه ، إن كان من الأوس ضربتُ عُنُقَه ، وإن كان من إخواننا منَ الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعدُ بن عبادةَ ـ وهو سيد الخزرج ـ وكان قبلَ ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملتْه الحمية ـ فقال لسعد : كذبتَ لعمرُ الله ، لا تقتلهُ ولا تقدِرُ على قتله . فقام أسيدُ بن حُضَير ، وهو ابن عم سعد بن مُعاذ ، فقال لسعد بن عبادة : كذبتَ لَعمرُ الله لَنَقْتُلَنَّه ، فإنك منافق تجادلُ عن المنافقين . فتساورَ (١) الحيّان الأوسُ والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزلْ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخَفضهم حتى سكتوا وسكت . قالت : فمكثتُ يومى ذلك لا يرقأ لى دَمع ولا أكتحلُ بنوم . قالت : فأصبح أبَوايَ عندى وقد بكيت ليلتين ويوماً ، لا أكتحلُ بنوم ولا يرقأُ لى دمع ، يَظُنَّان أنَّ البكاء فالقٌ كبدى . قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى فاستأذنتْ على امرأة من الأنصار فأذنتُ لها ، فجلست تبكى معى ، قالت : فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلَّمَ ثم جلس ، قالت ولم يَجلِسْ عندى منذ قيلَ ما قيل قبلها ، وقد لَبِثَ شهراً لا يوحى إليه فى شأنى قالت : فتشَّهدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حينَ جلس ثم قال : أما بعدُ ياعائشة ، فإنه قد بلَغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنتِ بَريئةً فسيُبرؤكِ الله وإن ألمت بذَنب فاستغفرى الله وتُوبى إليه ، فإنَّ العبدَ إذا اعترَفَ بذنبه ثم تابَ إلى الله تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله مَقالتَهُ قَلصَ دَمعى حتى ما أُحسُّ منه قَطرة ، فقلت لأبى :

---

١ ـ قوله : (تساور) أى تناهضوا للنزاع والعصبية ، وفى رواية " فتثاور " بمثناة ثم مثلثة : تفاعل من الثورة ، والحيان : بمهمله ثم تحتانية تثنية حى والحى كالقبيلة ، أى نهض بعضهم إلى بعض من الغضب . (فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٤٧٤) .

أجِبْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال . قال : والله ما أدرِى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت لأمى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : فقلتُ ـ وأنا جارية حديثة السنِّ لا أقرأ كثيراً من القرآن : إنى والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقَرَّ فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلتُ لكم : إنى برئية ـ والله يعلمُ أنى برئية ـ لا تصدقونى بذلك ، ولَئن اعترفتُ لكم بأمر الله ـ والله يعلم أنى منه بريئة ـ لتصدِّقُنِّى . والله ما أجدُ لكم مثلاً إلا قول أبى يوسف ، قال :

﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ‹١›

قالت : ثم تحولت فاضطَجعت على فِراشى . قالت : وأنا حينئذٍ أعلم أنى بريئةٍ وأنَّ الله مُبرِّئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظنُّ أن الله منزلٌ فى شأنى وَحياً يُتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمر يُتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النومِ رؤيا يبرِّؤنى الله بها . قالت : فوالله ما رامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خَرجَ أحدٌ من أهل البيت حتى أُنزلَ عليه ، فأخذَه ما كان يأخذه من البُرَحاء ‹٢› ، حتى إنه ليتحدَّرُ منه مثلُ الجمان ‹٣› من العَرق وهو فى يوم شاتٍ من ثقل القول الذى يُنزَل عليه . قالت : فلما سُرِّىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُرِّى عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمةٍ تكلم بها : ياعائشة ، أما الله عز وجل فقد برأك . فقالت أمى : قومى إليه ، قالت :

---

١ ـ سورة يوسف : ١٨ .

٢ ـ قوله : (فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء) بضم الموحدة وفتح الراء ثم مهملة ثم مد : وهى شدة الحمى ، وقيل : شدة الكرب ، وقيل : شدة الحر ، ومنه برح بى الهم إذا بلغ منى غايته . (فتح البارى ٨ / ٤٧٦) .

٣ ـ قوله (الجُمان) بضم الجيم وتخفيف الميم : اللؤلؤ ، وقيل : حب يعمل من الفضه كاللؤلؤ ، فشبهت قطرات عرقه صلى الله عليه وسلم بالجمان لمشابهتها له فى الصفاء والحسن . (فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٤٧٦) .

فقلت : واللّـه لا أقـومُ إليـه ، ولا أحمدُ إلا اللّه عـز وجـل . وأنـزل اللّـه : (إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ ....) العـشـر الآيـات كلها . فلما أنزل اللّه فى براءتى قال أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه ، وكان يُنفقُ على مِسطح بن أثاثه لقرابته منه وفقره : واللّه لا أنفقُ على مسطح شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشه ما قال ، فأنزل اللّه :

وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ
وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ‹١›

قال **أبو بكر** : بلى واللّه ، إنى أحبُ أن يغفر اللّه لى . فرجَعَ إلى النفقة التى كان يُنفق عليه وقال : واللّه لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة : وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسأل زينب ابنة جحش عن أمرى فقال : يازينبُ ، ماذا علمتِ أو رأيت ؟ فقالت : يارسول اللّه ، أحمى سمعى وبَصرى ‹٢› . ما علمتُ إلا خيراً .

قالت ـ وهىَ التى كانت تسامينى من أزواج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فعَصَمها اللّه بالوَرع ، وطفِقت أختها حَمنةُ تحاربُ لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك ‹٣› .

---

١ ـ سورة النور : ٢٢ .

٢ ـ قوله (أحمى سمعى وبصرى) أى من الحماية ، فلا أنسب إليها ما لم أسمع وأبصر (فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٤٧٨) .

٣ ـ صحيح البخارى شرح فتح البارى ٨ / ٤٥٢ / كتاب التفسير / باب " لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند اللّه هم الكاذبون " / وصحيح مسلم ٤ / ٢١٢٩ ـ ٢١٣٦ / كتاب التوبة / باب فى حديث الأفك وقبول توبة القاذف ، قوله (كانت تسامينى) أى تعالينى من السمو وهو العلو والارتفاع ، أى تطلب من العلو والرفعة والخطوة عند النبى صلى اللّه عليه وسلم ما أطلب ، أو تعتقد ان الذى عنده مثل الذى لى عنده . (فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٤٧٨) .

فالسيدة عائشة الفاضلة رضى الله عنها أم من أمهات المؤمنين ، وليست من عامة نساء المجتمع ، بل هى زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، ويجب أن يحترمها المسلمون أكثر مما تحترم به الأمهات ، وقد جعل الله تعالى حرمة أمهات المؤمنين جميعاً مثل حرمة أمهاتهم كما يشير إليه قوله عز وجل :

ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ‹١›

وقوله تعالى :

وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ‹٢›

وقد أورد أبو الأعلى المودودى مناسبة بين آيات الإفك للآيات التى قبلها فقال :

« إن الله تعالى بما أنزل من أحكام الزنى والقذف واللعان فى عشر الآيات الأولى من هذه السورة قبل تنزيله براءة عائشة رضى الله عنها ، إنما نبّه المسلمين فى حقيقه الأمر ، على أن ليست رمية أحد بالزنا بأمر هيِّن ، يتلاعب به الناس ، ويتناقلونه فى مجالسهم ومحافلهم ، بل هو قول فى غاية من الثقل ، يحمل صاحبه تبعة كبرى ، فإن كان الرامى صادقاً فى رميته فليأت بالشهداء ، ليلقى الزانى والزانية أشد العقاب ، وإن كان كاذباً فهو جدير بأن يضرب ظهره ثمانين جلدة حتى لا يعود لمثل هذه الرمية فى المستقبل .

---

١ ـ سورة الأحزاب : ٦ .

٢ ـ سورة الأحزاب : ٥٣ .

وأما إذا كانت هذه الرمية من الزوج لزوجته فعليه أن يلاعنها فى المحكمة . وهذا الأمر لا يمكن أن يتفوه به أحد ثم يجلس فى بيته وادعاً مستريحاً ، لأن المجتمع مجتمع المسلمين ، ما أخرج إلا لإقامة الحق ، ودعم الخير فى الدنيا ، ولا يمكن أن يكون فيه الزنى أداة للعب واللهو ، ولأن تكون أخباره موضوعاً لتحادث الناس وترويحهم عن أنفسهم <١> .

والذين اتهموا عائشة رضى اللّه عنها لم يتهموها لأنهم قد رأوا بأعينهم ما قالوه بألسنتهم ، بل إنهم لم يختلقوا هذا البهتان العظيم ، إلا على أساس أن عائشة رضى اللّه عنها كانت تخلفت عن الرحيل ، فأركبها صفوان على بعيره وأوصلها إليه .

إن من رماها باقتراف الإثم ليبلغ النهاية من الفسق والشناعة ، فقد ظنوا بها أسوأ ما يكون الظن بأنفسهم حيث هُتك به العرض الذى هو أشرف ما يجب أن يصان ، فما كان لعاقل أن يقول فى مثل هذا الحال : إنها رضى اللّه عنها قد تخلفت عن الرحيل بحيلة مدبّرة ، لأن من يدبر الحيل لا يدبرها بحيث تتخلف زوجة رئيس القوم خفية مع رجل منهم ، ثم تأتى راكبة جهرة على بعير هذا الرجل نفسه وقت الظهيرة ، والجيش كله يشاهدها ، ورئيس القوم بين أظهرهم ، فهذه الصورة من الواقع تدل بنفسها على براءتها رضى اللّه عنها وإلا فإن القرائن التى بنى عليها الظالمون اتهامهم ما كان فيها أدنى مجال للشبهة والريبة » <٢> .

---

١ ـ انظر : تفسير سورة النور / أبو الاعلى المودودي / ص ١٢٢ / دار الفكر ، بتصرف .

٢ ـ المصدر السابق / ١٢٢ ـ ١٢٩ ، وأحكام القرآن لابن العربى ٣ / ١٣٥٥ ، بتصرف .

فهؤلاء الذين يختلقون الاتهامات الكاذبة ، والافتراء العظيم ، ويعملون على إشاعة الفاحشة ، ونشرها فى المجتمع الإسلامى ، ليدنسوا أخلاق المسلمين ، إنما يستوجبون العقاب الشديد الرادع ، لاستئصال المنكرات والفواحش التى بينها الله فى كتابه العزيز ، وهى ليست من الأمور الهيّنة ، ولكنها من عظائم الآثام ، ومن المفتريات الكاذبة التى يجب أن ينال مرتكبيها العذابُ الأليم .

ثانياً : وأما التناجى بالإثم والعدوان ، فقد نهى الشرع الحكيم عن أن يتناجى أحد مع غيره بما فيه ضررٌ أو معصية ، أو مخالفة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ‹١›

والنَّجْوَى والنَّجِيُّ والنَّجْو : السر بين اثنين .

والتَّناجِى : المُسَارَّةُ بين اثنين فأكثر ‹٢› .

والنَّجْوى والنَّجِيُّ : المُتَسَارُّون ، والنَّجِيُّ ، كَغَنِيٍّ :

مَنْ تُسَارُّه ، والجمع : أَنْجِيَة ‹٣› ، قال تعالى ينهى عباده المؤمنين عن التناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ‹٤›

---

١ ـ سورة المجادلة : ٨ .

٢ ـ اللسان (نجا) ١٥ / ٣٠٤ـ٣٠٩ .

٣ ـ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٥ : ٢٠ .

٤ ـ سورة المجادلة : ٩ .

والعُدْوَان : الظلم الذى يتجاوز فيه الحد ، والمعتدى : المُجَاوِز لما أمر به<١> .

والآية الكريمة <٢> نزلت فى شأن اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ، ويتغامزون بأعينهم فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وأقربائنا من المهاجرين والأنصار قتلٌ أو مصيبة أو هزيمة ، فيسوءهم ذلك ، فلكثرة شكواهم للنبى صلى الله عليه وسلم نهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت الآية <٣> .

فهؤلاء كانوا يتحدثون فيما بينهم بالإثم ، وهو ما يختص بهم ، والعدوان وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومعصية الرسول ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قد نهاهم عن النجوى فيما بينهم فعصوه وعادوا إليها ، وكان بعضهم يوصى بعضاً بمعصية ومخالفة أمره ، ويصرون عليها <٤> .

قال الخازن رحمه الله :

السر الذى كان بينهم إما مكر وكيد للمسلمين ، أو شىء يسوءهم ، وكلاهما إثم وعدوان <٥> .

وبعد أن عرفنا خطورة الإثم على الفرد والمجتمع ، أتكلم عن عقوبة الإثم ، فمنها " الويل " " وهو واد فى جهنم كما أخرج الحاكم بسنده " عن سعيد رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره ، والصعود جبل فى النار يتصعد فيه سبعين خريفاً يهوى منه كذلك أبدا " <٦> .

---

١ ـ اللسان (عدا) ١٥ / ٣١ ـ ٤٣ .

٢ ـ سورة المجادلة : ٨ .

٣ ـ انظر : تفسير ابن كثير ٦ / ٥٨٠ ، وتفسير الخازن وبهامشة البغوى ٧ / ٤١ ، والفتوحات الالهية / بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، للشيخ الجمل ٤ : ٣٠٢ .

٤ ـ ابن كثير ٦ / ٥٨٠ .

٥ ـ الخازن وبهامشة البغوى ٧ / ٤١ .

٦ ـ المستدرك على الصحيحين ٤ / ٥٩٦ / كتاب الأهوال ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

وقد ذكرت هذه العقوبة فى قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ <١> .

ومن عقوبة مرتكب الإثم أنه يوم القيامة يأكل من شجرة الزقوم التى تنشب فى الحلق ، كما يشير إليه قوله عز وجل :

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ <٢>

وقوله تعالى :

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾

<٣>

ومن عقوبته أيضاً أنه يأكل من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، كما يشير إليه قوله تعالى :

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ <٤>

والضريع عند العرب : نبت يقال له الشِّبْرق ، ويسميه أهل الحجاز الضريع ، إذا يبس وهو السم .

وهو من شر الطعام وأبشعه وأخبثه فلا يحصل به مقصود ، ولا يدفع به محذور . وقيل : هو الزقوم <٥> .

---

١ ـ سورة الجاثية : ٧ .

٢ ـ سورة الدخان : ٤٣ ، ٤٤ .

٣ ـ سورة الصافات : ٦٢ ـ ٦٦ .

٤ ـ سورة الغاشية : ٦ ، ٧ .

٥ ـ ابن كثير ٤ / ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

ولا منافاة بين هذه الآية <١> وبين قوله تعالى :

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ <٢>

لأن العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع <٣> .

ولما كان هذا الخلق الدنىء من أخلاق المفسدين نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن غشيانه ، وأمرهم إذا تناجوا أن يتناجوا بالبر والتقوى ، وأن يراقبوه فى السر والعلانية ويتقوا محارمه ، لان مصيرهم ومرجعهم إليه ، فقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾

<٤>

وإذا رجعنا إلى آيات القرآن الكريم التى ذكر فيها الإثم والتى سبق تفسيرها ، وجدنا أنه قد أطلق لفظ الإثم على كثير من الكبائر ، كالإشراك بالله عز وجل ، وافتراء الكذب عليه سبحانه وتعالى ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، والزنى ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، واقتراف الذنب ثم إلقائه على البرىء منه ، وتبديل وصية الميت ، وإيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير حق ، واتهام أم المؤمنين السيدة الطاهرة الفاضلة فى عرضها الشريف ، والتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .

---

١ ـ سورة الغاشية : ٦ ، ٧ .

٢ ـ سورة الحاقة : ٣٦ .

٣ ـ تفسير القاسمى / المسمى / محاسن التأويل ١٧ / ٦١٢٨ .

٤ ـ سورة المجادلة : ٩ .

فكل هذه الذنوب من الموبقات التى تضر الفرد والمجتمع الإسلامى بأسره ، وينجم عنها آثار سيئة تحيق بالأمة الإسلامية كلها .

ومن أجل هذا نجد القرآن العظيم يمتدح مجتنبى كبائر الإثم والفواحش ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ ‹١›

واللَّمَم : الصغائر التى لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه وقد نعت الله تعالى المحسنين فى الآية الكريمة بأنهم هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أى لا يتعاطون المحرمات والمنهيات والكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفرها لهم ويسترها عليهم ، كما يدل عليه قوله عز وجل : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ‹٢›

ويمدحهم الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ‹٣›

فمن صفات المؤمنين أنهم يجتنبون كل ذنب تعظم عقوبته . كالقتل ، والزنى ، والسرقه ، وما أشبه ذلك ، وكذلك كل ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال ، وأنهم يكظمون الغيظ ، ويعفون عمن اعتدى عليهم ، لأن سجيتهم تقتضى العفو والصفح عن المعتدين عليهم ، وليس من سجيتهم الانتقام منهم ‹٤› .

---

١ ـ سورة النجم : ٣٢ .

٢ ـ سورة النساء : ٣١ .

٣ ـ سورة الشورى : ٣٧ .

٤ ـ انظر : ابن كثير ٦ / ٢٠٩ / والخازن وبهامشه البغوى ٦ / ١٠٥

المجتمع الإسلامي كما يصوره الفصل الثاني

مما تقدم تبين لنا أن الله تعالى قد **أمر عباده بالتعاون على البر والتقوى ، ونهاهم عن التعاون على الإثم والعدوان** ، في أوائل سورة " **المائدة** " وفي الكثير من آيات الذكر الحكيم .

وأن **البر كلمة جامعة تشمل كل طاعة لله عز وجل** ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ولا شك في أن تعاون المؤمنين على البر بجميع أنواعه وصوره يساعد على ازدهار المجتمع الإسلامي ، ويحقق له التقدم والقوة على أساس سليم .

وكذا **التعاون على التقوى لأنه يحفظ النفس** عما يُؤَثِّم ، وذلك بترك المنهيات وفعل المأمورات ، والمتأمل في كتاب الله تعالى ، يرى أنه جل شأنه قد أخبر بأنه يحب المتقين ، وأنه مع المتقين ، وأنه وعدهم بجزيل الثواب وحسن المآل في الدنيا والآخرة .

وقد لاحظنا أن التقوى مقرونه بجميع الأوامر والنواهي في كثير من آيات القرآن الكريم ، كما في الصيام ، والحج والعمرة ، والقصاص والوصية ، والنهي عن الربا وغير ذلك .

وما ذلك إلا لأنها هي الدّافع القوى لعمل الطاعات ، والمانع الشديد لاجتناب المنهيات .

ولما كانت التقوى بهذه المنزلة في الإسلام كانت جديرة بإصلاح الأفراد والجماعات ، وجديرة أن تُوجد أمة قوية من أقوى الأمم ، ومجتمعاً إسلامياً من أعزّ المجتمعات وأفضلها ، وبها يستقر كيانه ويأمن كل من فيه .

كمـا لاحظنـا أن التعاون على الإثم والعدوان يهتك أستار المجتمع الإسلامي ، ويضعف كيانه ، لأن الإثم هو كل ما عصى الله تعالى به من محارمه ، وشرع لفاعله العقوبة جزاء فعله ، ولا شك فى أن المجتمع الذى لا يتعاون أفراده على محاربة الآثام والفواحش مجتمع فاشل ، تشيع فيه الفواحش ، وتنتشر فيه الجرائم ، ويعم فيه الفساد ، ولا يلبث أن تتصدع أركانه ، ويتخلخل بنيانه ، وينهار كيانه .

لأنه اعتاد على ارتكاب الآثام والكبائر ، فانحلت عراه ، وتفشت فيه الفاحشة وكل ما حرم الله ، وذلك لعدم التزام أفراده وجماعاته بما أمر الله به ، ونهى عنه .

وأن قوة المجتمع الإسلامي تتمثل فى القمع عن المعاصى والآثام ، والأخذ بالقوة والشدة على مرتكبى الآثام ، لكى يسلم هذا المجتمع ويعيش فى أمن واستقرار .

الفصل الثالث

كمال الدين الإسلامي

وما يستوجب ذلك

لقد مَنَّ اللّٰه تعالى على عباده المؤمنين منة من أعظم المنن ، وأنعم عليهم نعمة من أكبر النعم ، حيث أكمل لهم دينهم ، الذي به سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وارتضى لهم دين الإسلام ، ذلك الدين الحق وبذلك تمت النعمة على هذه الأمة الإسلامية .

قال تعالى :

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ‹١›

وعندما نحاول أن نفسر هذه الآية الكريمة ينبغي لنا أن نجيب على الأسئلة التالية أولاً :

١ ـ ما المراد بكلمة " اليــوم " ؟

٢ ـ ما المراد بكلمة " الديــن " ؟

٣ ـ ما المراد بكمال الديــــن ؟

٤ ـ ما المراد بإتمام النعمـــة ؟

٥ ـ ما المراد بالرضــــــا ؟

٦ ـ ما المراد بكلمة " الإسلام " ؟

٧ ـ ما الفرق بين الإسلام والإيمان ، وما العلاقة بينهما ؟

أما المراد بكلمة " اليوم " ، فإن اليوم هو الزمان الحاضر ، وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية .

وأريد به هنا يوم نزول الآية ، وقد نزلت يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع . ‹٢› سنة عشر من الهجرة .

---

١ ـ سورة المائدة : ٣ .

٢ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، لأبى القاسم جار اللّٰه محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ١ : ٥٩٣ / شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى واولاده بمصر / الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

وكـان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم واقـفـاً بمعـرفـة علـى ناقـتـه العَضْباء<١> ، فكاد عَضُدُ الناقـة يَنْقَدُّ من ثقلهـا فـبـركت <٢> ، أخـرج البـخـاري بسنده : عن طارق بن شـهـاب عن عمر بن الخطاب أن رجـلاً من اليهود <٣> قال له : ياأمير المؤمنين ، آيةٌ في كتابكم تقرءونهـا ، لو علينـا معشـر اليـهـود نزلـت لا تّخذنا ذلك اليوم عـيـدا ، قـال : أيُّ آية ؟ قـال : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً) قال عمـر : قد عـرفنا ذلك اليـوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة <٤> .

وفي رواية : قـال عمـر : إني لأعلم حيث أنزلت ، وأين أنزلت ، وأين رسـول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت : يوم عرفة ، وإنّا والله بعرفة <٥> .

---

١ ــ العَضباء : علم لها منقول من قولهم : ناقة عضباء ، أى مشقوقة الأذن ، ولم تكن مشقوقة الأذن ناقة رسـول الله صلى الله عليـه وسلم . وقـال بعضـهم : إنهـا مشـقوقـة الأذن ، والأول قـاله الأكثـر . انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر (عضب) ٣ / ٢٥١ .

٢ ــ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٦ / ٦١ .

٣ ــ قوله : " أن رجلاً من اليهود " كعب الأحبار ، وأن سؤاله عن ذلك وقع قبل إسلامه ، وكان إسـلامـه فى خلافة عمر على المشهور (فتح البارى : ٨ / ٢٧٠) .

٤ ــ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١ / ١٠٥ / كتاب الإيمان (باب زيادة الإيمان ونقصانه) .

٥ ــ صحيح البخـارى بشرح فتح البارى ٨ / ٢٧٠ / كتــاب التفسير (باب زيــادة الإيمان ونقصانــه ١٢ / ٢٤٥) كتاب الاعتصام بالسنة .

وأما المراد بكلمة " الدين " فالدين في اللغة : الجزاء والمكافأة ، يقال : دِنْتُهُ بفعلِه دَيْنًا ، إذا جزيته .

ويوم الدين : يوم الجزاء ، وفي المثل " كما تَدِينَ تُدان " ‹١› .

أى كما تُجازِى تُجَازَى ، أى تجازىَ بفعلك وبحسب عملك ، إن حسناً فحسن ، وإن سيئاً فسيىء ، يعنى : إن عملت عملاً حسناً فجزاؤك جزاء حسن ، وإن عملت عملاً سيئاً فجزاؤك جزاء سيىء .

ومنه قوله تعالى :

أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ‹٢›

أى مجزيّون محاسبون ، ومنه " الدَّيَّان " في صفة الله عزوجل .

والدِّين : الحساب ، ومنه قوله تعالى :

مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ‹٣›

أى مالك يوم الجزاء والحساب .

والدِّين : الطاعة ، ويقال : دِنْتُه ودِنْتُ له ، أى أطعته ، ودان بكذا ديانة ، وتَدَيَّن به ، فهو دَيِّن ومتديِّن .

والدِّين : العـــادة والشأن ، تقـــول العرب : ما زال ذلك دِينى ودَيْدنى ، أى عادتـــى .

ودَان نفسه : أذلها واستبعدها ، وقيل : حاسبها .

ومعنى " الدين لله " أى الطاعة له ، والتعبّد له ‹٤› .

---

١ ـ مجمع الأمثال / للميدانى ٢ / ١٥٥ .

٢ ـ سورة الصافات : ٥٣ .

٣ ـ سورة الفاتحة : ٤ .

٤ ـ اللسان (دين) ١٣ / ١٦٨ ـ ١٧١ .

ومفردات الراغب (دين) ١٧٧ .

كما قال تعالى :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ‹١›

وقال : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ‹٢›

أى أطاع الله وأخلص له في العبادة .

والدِّين ورد في القرآن بمعنى التوحيد والشهادة ، قال تعالى :

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ‹٣›

وقال :
﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ‹٤›

وبمعنى حكم الشريعة ، قال تعالى :

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ‹٥›

أى في حكمه .

وبمعنى المِلَّة كما في قوله :

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ ‹٦›

أى الملة المستقيمة ‹٧› .

---

١ ـ سورة آل عمران : ١٩ .

٢ ـ سورة النساء : ١٢٥ .

٣ ـ سورة الزمر : ٣ .

٤ ـ سورة آل عمران : ٨٣ .

٥ ـ سورة النور : ٢ .

٦ ـ سورة البينة : ٥ .

٧ ـ انظر : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٢ : ٦١٧ .

وبمعنى الإسلام ، وهو المراد من قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ ‹١›

وقد أمر الله تعالى العباد باتباعه ، وأرسل به رسله عليهم السلام ، فيجب على الجميع أن يتبعوا هذا الدين ، ولا يتفرقوا فيه ، لأن ذلك التفرق يؤدى بهم إلى الهلاك ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ ‹٢›

وقوله عز وجل :

﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ ‹٣›

وقال عليه الصلاة والسلام " ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولاً " ‹٤› .

فيجب على الإنسان المسلم أن لا يدعو غير الله تعالى : وأن لا يسعى في غير طريق الإسلام ، ولا يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا شك في أن من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه ، وذاق طعمه .

---

١ ـ سورة التوبة : ٣٣ .

٢ ـ سورة الأنعام : ١٥٣ .

٣ ـ سورة آل عمران : ٨٥ .

٤ ـ صحيح مسلم بشرح النووى ٢ : ٢ (باب ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً) .

والدين الإسلامي فطرة فطر الله الناس عليها ، وهو ضروري للإنسان ، لأنه يمثل أكرم صلة بين الخالق سبحانه وتعالى وبين المخلوقين ، ولا غنى للإنسان عن الدين ، فهو ينير العقل بالعلم والمعرفة ، ويهدي القلب باليقين والإيمان ، ويرسم للإنسان الطريق الأمثل في الخير ، وإن تركه الإنسان نزع به إلى الشر والضلال والهلاك ، فبه يوجِّه الإنسان إلى الخير ، وينأى عن الشر ، ويغرس فيه حب الحق والعدل ويبغِّضه في الباطل والظلم ، ويرشد الناس إلى المعاونة والمؤازرة بالمال والعلم والإرشاد ، ويحث النفس الإنسانية على الرحمة والشفقة والعطف والتواضع ، ويبعدها عن القسوة والظلم والكبرياء .

والدين الإسلامي يوجه الإنسان إلى عمل الدنيا والآخرة ، ويحثه على أداء الواجب ، وينهاه عن التقصير في الأعمال ، ويدفعه إلى الخير والرشاد ليصل به إلى أقصى درجات السمو . فهو منهج الله عز وجل ، وضعه للبشر جميعاً ، لبناء مجتمع سليم .

قال تعالى :

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ

(١)

والمراد بالدين في الآية الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته ، والإيمان بكتبه ورسله ، وبيوم الجزاء والحساب ، وسائر ما يكون به العبد مؤمناً .

والمراد بإقامته تعديل أركانه ، وحفظه من أن يقع فيه زيغ ، والمواظبة عليه (٢) .

---

١ ـ سورة الشورى : ١٣ .

٢ ـ روح المعاني : ٢٥ : ٢١ .

أما المراد بإكمال الدين ، فإن للعلماء فيه قولين :

١ ـ أن المراد بكمال الدين يومئذٍ إنجاحه ، وإقراره وإظهاره . ولا شك أن الإسلام في حجة الوداع كان قد قويت شوكته ، وعلت كلمته وظهر ، وأذل الله تعالى الشرك وأهله ، وأجلى المشركين عن البلد الحرام ، وانفرد المسلمون بالحج والطواف بالبيت الحرام ، ولم يشاركهم المشركون ، فأعلن الله لهم إكمال العقيدة ، وإكمال الشريعة معاً ، فهذا هو " كمال الدين " .

ولم يعد للإنسان أن يتصور نقصانا يستدعى الإكمال ، ولا قصوراً يستدعى الإضافة ، لأن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، كما تُصلِح كلَّ زمان ومكان ‹١› .

قال تعالى :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ‹٢›

لقد أكمل الله تعالى هذا الدين ، فما عادت فيه زيادة لمستزيد ، فأى كمال بعد هذا ؟ وأى نعمة بعد تلك النعمة بهذا المنهج الشامل الكامل الذي ارتضاه لعباده ؟

وهذا الرأى حَسَّنه الإمام الطبرى رحمه الله حيث قال : " إنه كمل للمسلمين دينهم بإقرارهم في البلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، ومكنهم من حج بيته الحرام دون مشاركة المشركين معهم " ‹٣› .

---

١ ـ انظر : فى ظلال القرآن ٢ : ٨٤٣ .

٢ ـ سورة الروم : ٣٠ ، ٣١ .

٣ ـ جامع البيان ٩ : ٥٢٠ (بتحقيق محمود شاكر / وأحمد شاكر) .

وعلى هذا التفسير لا ينفى نزول آيات بعدها في الحلال والحرام والوعظ والتذكير .

٢ ـ أن المراد بإكمال الدين إكمال الأحكام ، والحلال والحرام ، فلم ينزل بعدها شيء من الفرائض والتحليل والتحريم . <١>

قال الدكتور أبو شهبة رحمه الله :

وعلى هذا الرأى فلا مانع من نزول آيات بعدها ليست منشئة لأحكام جديدة ، بل مقررة لما سبق من الأحكام ، كآية الربا :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ <٢>

وذلك عند من يرى أنها آخر آية نزلت من القرآن ، ولكنها ليست آخر آية عند المحققين ، ولأن تحريم الربا مستفاد من قبل ذلك من آية آل عمران <٣> ، وكذلك من آية البقرة <٤> .

وإنما جاءت هذه الآية السابقة <٥> مؤكدة لحرمة الربا .

ومن ثم يتبين لنا أن الآية الكريمة كيفما فهمناها وحملناها لا تدل على أنها آخر القرآن نزولاً ، وهذا ما أجمع عليه المفسرون والعلماء <٦> وقد نبه **السيوطى رحمه الله** إلى أن قوله تعالى :

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ <٧>

---

١ ـ انظر : الخازن وبهامشه البغوى ٢ : ٩ ، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١ : ٢٩ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٧٨ .

٣ ـ قوله :(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) آل عمران: ١٣٠.

٤ ـ قوله : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) البقرة : ٢٧٥ .

٥ ـ سورة البقرة : ٢٧٨ .

٦ ـ المدخل لدراسة علوم القرآن : للدكتور محمد أبو شهبه ١٢٧ .

٧ ـ سورة المائدة : ٣ .

نزلت بعرفة عام حجة الوداع ، وظاهرها إكمال الفرائض والأحكام التي نزلت قبلها <١> .

وعلى هذا فإكمال الدين هو إكمال البيان الذي اقتضته الحكمة الإلهية بنزول القرآن على نبينا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم بمراتبه ودرجاته ، حتى أكمل لهم شرائعه ومعالمه ، وبلغ بهم أقصى مراتب الكمال .

وكان الدين وافياً في كل وقت بما يحتاج إليه المسلمون في أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم ، وقد نزلت تعاليمه بطريقة التدرج ليتمكن المسلمون من الوفاء به ، وهذا هو معنى إكمال الدين لهم يومئذ <٢> .

وأورد الرازى فى الآية سؤالاً ، وهو أن قوله (ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ)الآية.

" يقتضى أن الدين كان ناقصاً قبل ذلك ، وذلك يوجب أن الدين الذي كان صلى الله عليه وسلم مواظباً عليه أكثر عمره كان ناقصاً ، وأنه إنما وُجد الدين الكامل في آخر عمره مدة قليلة " ؟ .

ثم اختار للإجابة على هذا ما ذكره **القفال** ، وهو :

أن الدين ما كان ناقصاً ألبتة ، بل كان أبداً كاملا ، يعنى كانت الشرائع النازلة من عند اللّٰه في كل وقت كافية في ذلك الوقت ، إلا أنه تعالى كان عالماً في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد .

وأما في آخر زمان المبعث فأنزل اللّٰه شريعته كاملة ، وحكم ببقائها إلى يوم القيامة ، فالشرع أبداً كان كاملاً ، إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص ، والثانى كمال إلى يوم القيامة . <٣>

---

١ ـ الإتقان فى علوم القرآن ١ : ٢٩ .

٢ ـ انظر : التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور ٦ : ١٠٣ .

٣ ـ انظر : التفسير الكبير ١١ / ١٣٧ ، ١٣٨ ، بتصرف .

فلأجل هذا المعنى قال : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) الآية .

يعنى بإكمال الدين والشريعة ، لأنه لا نعمة أتم من الإسلام <١> ، فهل يمكن أن يقال ، أو يعترض معترض بأن الصحابة رضوان الله عليهم الذين ماتوا قبل نزول بقية الأحكام ماتوا على نقصان من دينهم ؟ لا يقال بمقتضى هذه الآية : إن الدين كان ناقصاً قبل ، وإن من مات من الصحابة كان ناقص الإيمان ، مـن حيث إن موته كان قبل نزول الفرائض أو بعضها ، لأن الإيمان لم يزل تاماً ، والنقص بالنسبة إلى الذين ماتوا قبل نزول الفرائض من الصحابة صُورِيٌّ نســبى ، ولهم فيه رتبة الكمال من حيث المعنى ، فالأكملية أمر نسبى ، أى والنقص أمر نسبى ، لكن منه ما يترتب عليه الذم ، ومنه ما لا يترتب عليه الذم .

فالأول : ما نقصه بالاختيار ، كمن علم وظائف الدين ثم تركها عمداً .

والثانى : ما نقصه بغير اختيار ، كمن لم يعلم أو لم يكلف ، فهذا لا يذم بل يحمد من جهة أنه كان قلبه مطمئناً بأنه لو زيد لقبل ، ولو كلف لعمل ، وهذا شأن الصحابة الذين ماتوا قبل نزول الفرائض .

ومحصله أن النقص بالنسبة إليهم صورى نسبى ، ولهم فيه رتبة الكمال من حيث المعنى .

وهذا نظير قول من يقول : " إن شرع محمد أكمل من شرع موسى وعيسى لاشتماله من الأحكام على ما لم يقع في الكتب التى قبله ، ومع هذا فشرع موسى في زمانه كان كاملاً ، وتجدد في شرع عيسى بعده ما تجدد ، فالأكملية أمر نسبى كما تقرر ، والله أعلم <٢> .

---

١ ـ انظر : الخازن وبهامشه البغوى ٢ : ٩ .

٢ ـ انظر : إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى ١ : ١٣٠ ـ كتاب الإيمان (باب الإيمان ونقصانه) وفتح البارى شرح صحيح البخارى ١ : ١٠٤ / كتاب الإيمان (باب زيادة الإيمان ونقصانه) . والفخر الرازى ١١ : ١٣٨ ، والخازن وبهامشه البغوى ٢ : ٩ / والفتوحات الإلهية بتوضيـح الجلالين ١ : ٤٦٢ .

وساق القرطبى نفس الاعتراض فقال : لعل قائلاً يقول : إن قوله تعالى :

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ (١)

يدل على أن الدين كان غير كامل في وقت من الأوقات ، وذلك يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين والأنصار ، والذين شهدوا بدراً والحديبية وغيرها ، وبايعوا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم البيعتين جميعاً ، وبذلوا أنفسهم للّٰه ، مع عظيم ما حلَّ بهم من أنواع المحن ـ ماتوا على دين ناقص ، وأن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم في ذلك كان يدعو إلى دين ناقص ، ومعلوم أن النقص عيب ، ودين اللّٰه قيِّمٌ ، كما يقول تعالى :

﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (٢)

فالجواب أن يقال له : لم قلت إن كل نقص فهو عيب ؟ وما دليلك عليه ؟ ثم يقال له : أرأيت نقصان الشهر هل يكون عيباً ؟ ونقصان صلاة المسافر أهو عيب لها ؟ ونقصان العمر الذي أراده اللّٰه بقوله تعالى :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ (٣)

أهو عيب له ؟ ... فما أنكرت أن نقصان أجزاء الدين في الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء الباقية في علم اللّٰه تعالى ، هذه ليست بشَيْن ولا عيب .

وما أنكرت أن معنى قوله تعالى :

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ (٤)

---

١ ـ سورة المائدة : ٣ .

٢ ـ سورة الأنعام : ١٦١ .

٣ ـ سورة فاطر : ١١ .

٤ ـ سورة المائدة : ٣ .

يخرج على وجهين :

أحدهما : أن يكـون المراد بلَّغتُه أقصى الحد الذي كان له عندي فيما قضيته وقدَّرته ، وذلك لا يوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصاً نقصانَ عيب ، ولكنه يوصف بنقصانٍ مقيد ، فيقال له : إنه كان ناقصاً عما كان عند الله تعالى أنه ملْحِقه به ، وضَامُّه إليه ، كالرجل يبلغه الله مائة سنة ، فيقال : أكمل الله عمره ، ولا يجب عن ذلك أن يكون عمره حين كان ابن ستين ناقصاً نقص قصور وخلَلَ ، ولكنه يجوز أن يوصف بنقصان مقيد ، فيقال : كان ناقصاً عما كان عند الله تعالى أنه مبلغه إياه ومعُمره إليه .

وقد بلغ الله بالظهر والعصر والعشاء أربع ركعات ، فلو قيل عند ذلك : أكملها لكان الكلام صحيحاً ، ولا يجب عن ذلك أنها كانت حين كانت ركعتين ناقصة نقص قصور وخلَلَ (١) .

ثانيهما : أنـه أراد به أنه وَفقهم للحج الذي لم يكن بقى عليهم من أركان الدين غيره ، فحَجُّوا ، فاستجمع لهم الدينُ أداء لأركانه ، وقياماً بفرائضه .

وقد كانوا شهدوا وصلوا وزكوا وصاموا ، وجاهدوا وإعتمروا ، ولم يكونوا حَجُّوا ، فلما حجوا ذلك اليوم مع النبي صلى الله عليه وسلم أنزل الله تعالى الآية من قوله تعالى :

ﭐلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ (٢)

وهم بالموقف عشية يوم عرفة ، فإنما أراد أنه أكمل وَضْعَه لهم . وفي ذلك دلالة على أن الطاعات كلها دين ، وإيمان ، وإسلام (٣) .

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦ / ٦٢ ، ٦٣ .

٢ ـ سورة المائدة : ٣ .

٣ ـ الجامع لأحكام القرآن ٦ : ٦٢ ، ٦٣ .

وأما المراد بإتمام النِّعْمة :

فالنُّعْمة والنُّعْمىَ والنَّعْماء والنَّعيم : الخَفْض والدَّعة والمال ، وهو ضد البَأساء والبُؤس ، وجمعُ النُّعمة : نِعَمٌ ، وأَنْعُمُ .

وتطلق النِّعْمَة على القليل والكثير ، قال تعالى :

وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ‹١›

والنَّعْمَة ـ بالفتح ـ التَّنْعيم ، ويقال : نَعَّمة الله ونَاعَمة ، فَتَنعَّم . ونَعمـــةُ العيش : حسنهُ ونضارته .

والنِّعْمة ـ بالكسر ـ اليد البيضاء الصالحة ، والصنيعة ، والمِنَّة ، وما أنعم الله به على الإنسان .

ونِعْمةُ الله ـ بكسر النون ـ مَنُّه وما أعطاه الله العبدَ ، مما لا يمكن غيره أن يعطيه إياه ، كالسمع والبصر وغيرهما ‹٢› .

والإنعامُ : إيصال الإحسان إلى الغير ، ولا يقال إلا إذا كان الموصل إليه من جنس الناطقين ، فإنه لا يقال : أنعم فلان على فَرَسِه . ‹٣›

والنِّعمة : الحالة الحسنة قال تعالى :

ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ‹٤›

والنَّعيم : النِّعْمة الكثيرة : قال تعالى :

فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ‹٥›

---

١ ـ سورة إبراهيم : ٣٤ ، والنحل : ١٨ .

٢ ـ اللسان (نعم) ١٢ / ٥٧٩ ـ ٥٩٠ .

٣ ـ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٥ : ٩٠ ومفردات الراغب (نعم) ٥٢٠ .

٤ ـ سورة البقرة : ٤٠ ، ٤٧ ، ١٢٢ .

٥ ـ سورة يونس : ٩ ، والحج : ٥٦ ، والصافات : ٤٣ ، والواقعه : ١٢ .

ونَعِيمُ اللّه : عطيّته ، ونَعِمَ اللّه بك عيناً ، ونَعَمك اللّه عيناً ، وأنْعَمَ اللّه بك عَيْناً : أقرَّ بك عينَ من تُحبه ، أو أقرَّ اللّه عينك بمنْ تحبُّه <١> والتَّنعُّم : تناول ما فيه من النعمة وطيب العيش ، يقال : نَعَّمَه ، تنعيما ، فَتنَعَّم ، أي جعله في نعمة ولين عيش وخصب <٢> قال تعالى : فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ <٣>

أما تفسير النعمة في قوله تعالى :

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي <٤>

فلها عدة معان ، منها :

١ ـ أن المراد بها إكمال الشرائع والأحكام ، وإظهار دين الإسلام ، لأنه لا نعمة أتمُّ من نعمة الإسلام <٥> .

٢ ـ أن المراد بإتمام النعمة عليهم جَعْلهم قاهرين لأعدائهم ، ويفهم هذا من قوله عز وجل قبل ذلك :

ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ <٦>

فهؤلاء الكفار يئسوا من أن يغلبوكم على دينكم ، أو يردوكم عنه ، وذلك لأنه تعالى وعد بإعلاء هذا الدين على سائر الأديان لقوله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ
عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ <٧>

---

١ ـ بصائر ذوى التمييز ٥ : ٩٠ ، واللسان (نعم) .

٢ ـ مفردات الراغب (نعم) ٥٢٠ ، واللسان (نعم) ١٢ / ٢٨٩ ـ ٢٠١ .

٣ ـ سورة الفجر : ١٥ .

٤ ـ سورة المائدة : ٣ .

٥ ـ انظر : الجامع لأحكام القرآن ٦ : ٦٢ ، والخازن وبهامشه البغوى ٢ : ٩ .

٦ ـ سورة المائدة : ٣ .

٧ ـ سورة التوبه : ٣٣ ، والصف : ٩ .

فحقَّق اللّه النصر ، وأزال الخوف من قلوب المؤمنين من أعداء الإسلام ، وجعل الكافرين مغلوبين مقهورين . <١>

٣ ـ أن المراد بها جعل هذا الشرع لا يتطرق إليه النسخ ، لأن بقاء الدين لما كان إتماما للنعمة لزم القطع بأن الدين الإسلامي إنما حصل وسيبقى بإذن اللّه تعالى<٢> .

٤ ـ أن المراد بها فتح مكة ودخول المؤمنين فيها آمنين ظاهرين ، وقد انزاح الكفر ، وهُدمت أعمال الجاهلية في مناسك حج المشركين ، كالذبح لغير اللّه ، والطواف بالبيت الحرام عَرايا <٣> .

٥ ـ أن المراد بها حكم اللّه تبارك وتعالى ـ للمؤمنين بدخول الجنة والتنعم بنعيمها الخالد <٤> .

٦ ـ أن المراد بها ما أنجزه اللّه سبحانه وتعالى لهم بما وعدهم به في قوله :

﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ <٥>

قال ابن كثير رحمه اللّه :

هذه أكبر نعم اللّه سبحانه وتعالى على الأمة ، حيث أكمل تعالى لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبيٍّ غير نبيّهم محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ولهذا جعله سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعثه إلى الثقلين الإنس والجن ، فلا حلال إلا ما أحلَّه ، ولا حرام إلا ماحَرَّمه ، ولا دين إلا ما شرعه سبحانه وتعالى لهم ، وكل شيء أخبر به عليه الصلاة والسلام فهو صدق وحق ، ولا كذب فيه ، ولا خلاف عنه <٦> .

---

١ ـ التفسير الكبير ١١ : ١٣٩ ، ١٤٠ .

٢ ـ المرجع السابق ١١ : ١٣٩ ، ١٤٠ .

٣ ـ انظر : جامع البيان ٩ / ٥٢١ (بتحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر) وتفسير أبى السعود ٣ / ٧ .

٤ ـ الخازن وبهامشه البغوى ٢ / ٩ .

٥ ـ سورة البقرة : ١٥٠ .

٦ ـ انظر : تفسير ابن كثير ٢ : ٤٨٨ .

وهذا مثل قوله عز وجل :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١)

وقد أنجز سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين كل ما وعدهم به ، وكمل لهم هذا الدين ، وأصبح المؤمنون في نعمة ، وهي نعمة الإسلام . والمؤمن يقف خاشعاً معترفاً أمام إتمام نعمة الله عليه بإكمال هذا الدين ، وهي النعمة التامة التي تتمثل في تحقيق الاعتقاد في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والتي بتحقيقها يكون توحيد الله وعبادته وحده دون سواه ، ويدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين ، لأنه لا يعرف هذه الحقيقة إلا من عَرف المعتقدات الباطلة ، والطغيان ، والهوى والتفريط في أنظمة الحياة الجاهلية ، فبذلك يعرف نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام (٢) .

وواجب المسلمين تجاه هذه النعمة الكبرى ، نعمة إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، أن يتلقوها بالشكر ، والحمد والثناء على المنعم المتفضل – سبحانه وتعالى – ويؤدوا كل ما أوجب عليهم من حقوق للآخرين .

وواجبهم ألاّ يجحدوا هذه النعم العديدة التي أنعم الله تعالى بها عليهم ، منذ أن خلقهم في بطون أمهاتهم ، إلى أن رسم لهم الطريق المستقيم ، طريق الحق والهداية ، بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، ومكن لهم دينهم الذي ارتضاه لهم .

---

١ – سورة الأنعام : ١١٥ .

٢ – انظر : في ظلال القرآن ٢ : ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، بتصرف .

وأما المراد بالرِّضا :

فالرِّضا ـ في اللغة : ضِدُّ السُّخْط .

ويقال : رَضِيَ يَرْضَى ، رِضاً ، ورِضْوانا ، وَمَرْضَاةً ، فهو راضٍ .

وأرْضَاه : أعْطَاهُ مايُرْضيه .

واسْتَرْضَاه وتَرضَّاه : طَلَبَ رِضَاه .

ورَضِيتَهُ ، وارْتَضَيْتَهُ فهو مرْضِيٌّ .

وأرْضيْتهُ عَنيَّ ، ورَضَّيْتهُ ـ بالتشديد ، فرَضِيَ ، ورَضِيتُ عنك وعليك رِضا ، أى يُعَدىَّ بَعنْ وَعلىَ .

ومنه قوله عز وجل :

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ‹١›

أى أن اللَّه تعالى رضى أفعالهم ، ورَضُوا عنه بما جازاهم .

ورِضَا العبد عن اللَّه تعالى ألاّ يكْره ما يَجْرى به قضاؤه .

ورِضَا اللَّه تعالى عن العبد أن يراه مؤتمِراً لأمره ، منتهياً عن نهيه . ‹٢›

والرِّضْوان : الرِّضَا الكثير ، وارْتَضَاه للشيء : رآه أهلاً له ، قال تعالى :

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ‹٣›

والرَّضِيُّ : المَرْضِيُّ . وعِيشَةٌ راضيةٌ : مَرْضِيَّة ذاتُ رِضاً . ‹٤›

---

١ ـ سورة المائدة : ١١٩ .

٢ ـ اللسان : (رضى) ١٤ / ٣٢٣ ، وبصائر ذوى التمييز ٣ : ٧٧ .

٣ ـ سورة النور : ٥٥ .

٤ ـ اللسان (رضى) ١٤ / ٣٢٣ .

وقال : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ‹١› أى مَرْضية في الجنة .

وقال :

﴿ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ‹٢›

وقال عليه الصلاة والسلام : " ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً . ‹٣›

والمراد أن المؤمن الصادق الذي آمن بالله إلهاً واحداً ، واكتفى به سبحانه وتعالى ، ولم يطلب معه غيره ، ولم يسلك إلا طريق الإسلام الذي إرتضاه الله له ، بما شرعه سبحانه وتعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وصدق بما جاء به ، فقد حصل له حلاوة الإيمان ويجد أثرها في قلبه ‹٤› .

ومن أعظم أسباب حصول الرضا أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه ، فإنه يوصلّه إلى مقام الرضا ولابُدَّ ‹٥› .

وأما قوله تعالى :

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ‹٦›

فإن معناه اخترت لكم من بين الأديان الإسلامَ دينا .

فالله سبحانه رَضِيَ للمؤمنين الاستسلامَ لأمره والانقياد لطاعته ، على ما شرع لهم من حدوده وفرائضه ومعالمه دِيناً ، أى طاعة منكم لله .

---

١ ـ سورة الحاقة : ٢١ ، القارعة : ٧ .

٢ ـ سورة الفجر : ٢٨ .

٣ ـ صحيح مسلم بشرح النووى ٢ : ٢ / كتاب الإيمان (باب ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً) .

٤ ـ المصدر السابق : ٢ : ٢ .

٥ ـ انظر : بصائر ذوى التمييز ٣ : ٨٢ .

٦ ـ سورة المائدة : ٣ .

وقد أورد الإمام الطبرى رحمه الله هنا سؤالاً خلاصته :

إن قال قائل : أماً كان الله راضياً الإسلام لعباده إلا يوم أنـزل هذه الآية (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) ؟ ثم أجاب عن هذا السؤال بما خلاصته :

لم يزل الله سبحانه وتعالى راضياً لخلقه الإسلام دينا ، ولكنه ـ جل ثناؤه ـ لم يزل يصرِّف نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه في درجات الإسلام ومراتبه ، درجة بعد الأخرى ، ومرتبةً تِلْو الأخرى ، وحالاً بعد حال ، حتى أكمل لهم شرائعه ومعالمه ، وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه .

ثم قال : حين أنزل عليهم هذه الآية : (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) أى بالصفة التي هو بها اليوم ، والحال التي أنتم عليها اليوم منه ، فالزموه ولا تفارقوه <١> .

أما الإمام القرطبى رحمه الله فقد أجاب على هذا السؤال بقوله : إن قوله تعالى : (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) ـ أى أعلمتكم برضاى به لكم دينا ، فإنه تعالى لم يزل راضيا الإسلام لنا دينا ، فلا يكون لاختصاص الرضا بذلك اليوم فائدة إن حملناه على ظاهره <٢> ويحمل كلام القرطبى على الوقف على قوله " نعمتى " ويكون قوله " وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً " جملة مستأنفة .

ثم يقول القرطبى بعد ذلك :

وقيل : المعنى : ورضيت عنكم إذ أقررتم لى بالدين الذي شرعته لكم .

ويحتمل أن يريد (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) أى رضيت إسلامكم الذي أنتم عليه اليوم دينا باقيا بكماله إلى آخر الأبد ، لا أنسخ منه شيئاً <٣> .

---

١ ـ جامع البيان عن تأويل القرآن للطبرى ٩ : ٥٢٣ / تحقيق : محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر / الطبعة الثانية .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ٦ : ٦٣ .

أما المراد بكلمة " الإسلام " :

فالإسلام ـ في اللغة ـ الاستسلام والانقياد .

يقال : فلان مسلم ، أى مستسلم لأمر الله تعالى ، أو مخلص لله العبادة ، من قولهم : سلَّم الشيءَ لفلان ، أى أخلصه له ، وسلِم له الشيءُ أى خَلَصَ له <١>.

وقد ورد " الإسلام " في القرآن على ثلاثة معان : <٢>

١ ـ بمعنى الإخلاص ، ومنه قوله تعالى :

إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ <٣>

أى أخْلِص ، فقال : أخلصت لرب العالمين .

٢ ـ بمعنى الإقرار ، ومنه قوله عز وجل :

وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ <٤>

أى أقرَّ له بالعبودية ، وأنه المعبود بحق دون سواه .

٣ ـ بمعنى الدين ، ومنه قوله سبحانه وتعالى :

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ <٥>

وقوله :

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا <٦>

---

١ ـ اللسان (سلم) ١٤ / ٣٢٣ .

٢ ـ انظر : بصائر ذوى التمييز ٢ / ١٨٣ .

٣ ـ سورة البقرة : ١٣١ .

٤ ـ سورة آل عمران : ٨٣ .

٥ ـ سورة آل عمران : ١٩ .

٦ ـ سورة المائدة : ٣ .

قال الأصفهاني : الإسلام في الشرع على ضربين :

أَحَدُهُمـا : دون الإيمان ، وهو الاعتراف باللسان ، وبه يحقن الدم ، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل ، وإياه قُصِدَ بقوله تعالى :

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ‹١›

والثانــي : فـوق الإيمــان ، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ، ووفاء بالفعل ، واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر ، كما ذُكِرَ عن إبراهيم عليه السلام في قوله عز وجل :

إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ‹٢›

وقوله عز وجل :

تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ‹٣›

أي اجعلني ممن استسلم لرضاك ، ويجوز أن يكون معناه : اجعلني سالماً عن أسرِ الشيطان حيث قال سبحانه وتعالى :

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ‹٤›

أما قوله عز وجل :

إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ‹٥›

فمعناه : منقادون للحق ، مذعنون له .

---

١ ـ سورة الحجرات : ١٤ .

٢ ـ سورة البقرة : ١٣١ ، وانظر : مفردات الراغب : (سلم) ٢٤٥ .

٣ ـ سورة يوسف : ١٠١ .

٤ ـ سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ .

٥ ـ سورة النمل : ٨١ ، الروم : ٥٣ .

وأما قوله :

﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ ‹١›

فمعناه الذين انقادوا من الأنبياء ، الذين ليسوا من أولى العزم من الرسل ، الذين يهتدون بأمر الله ويأتون بالشرائع .

وأما الإسلام ـ في الشرع ـ فهو دين الله تعالى الذي شرعه لخلقه ، وبعث به رسلـــه عليهـم الصلاة والسلام ، ودلّ عليـــه أوليـــاءه ، لا يقبل غيره ، ولا يجزى إلا به ‹٢› وفيه يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ ‹٣›

فكل من يختار دينا غير الإسلام ليدين به ، ويسير على منهجه ، فلن تقبل منه الأعمال التي قام بها ، ويكون يوم الجزاء والحساب من الباخسين أنفسهم حظوظهـا من رحمـة الله وفضله ، والبعيدين عن رضوان الله والفوز بالجنة والنعيم بها .

وقال صلى الله عليه وسلم :" من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ "‹٤›.

ويجب العلم أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده ، وهو الشرع الذي أرسل به جميع رسله ، من لدن نوح عليه السلام ، إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا خلاف ما يعتقده بعض الناس من أن الإسلام هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحده .

---

١ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

٢ ـ جامع البيان ٦ : ٢٧٥ (بتحقيق : محمود محمد شاكر ، وأحمد محمد شاكر) .

٣ ـ سورة آل عمران : ٨٥ .

٤ ـ صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٣ : ٣١٧ / كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (باب إذا اجتهد العامل ـ أو الحاكم) .

والدليل على أن جميع الرسالات التي جاء بها الرسل جميعاً متحدة في أصول العقائد دون ما يتعلق بالعبادات والمعاملات ، فإنها تختلف باختلاف الشرائع حسب الأمم وأحوالها وسائر ظروفها ، قوله تعالى :

شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ‹١›

والدليل على أن جميع هذه الرسالات يطلق عليها لفظ " الإسلام " قول نوح عليه السلام لقومه ، كما حكى القرآن :

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ‹٢›

ولقد أثبت القرآن أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام كان مسلماً ، كما في قوله تعالى :

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ‹٣›

وقوله عز وجل فيما حكاه عن دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :

رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ‹٤›

---

١ ـ سورة الشورى : ١٣ .

٢ ـ سورة يونس : ٧٢ .

٣ ـ سورة آل عمران : ٦٧ .

٤ ـ سورة البقرة : ١٢٨ .

وحينما أمره الله بالإسلام ، كما يشير إليه قوله تعالى :

إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ‹١›

وعند **وصية إبراهيم الخليل ويعقوب عليهما السلام** لبنيهم في قوله عز وجل :

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ
لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ‹٢›

ووصف القرآن من نجا من قوم **لوط عليه السلام** بأنهم كانوا مسلمين في قوله تعالى :

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ‹٣›

ولقد أخبر الله تعالى عن دين **سليمان عليه السلام** بأنه دين الإسلام ، وذلك في قوله تعالى على لسان سليمان حين بعث بكتابه إلى ملكة سبأ .

إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ‹٤›

وقوله تعالى :

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ‹٥›

---

١ ـ سورة البقرة : ١٣١ .

٢ ـ سورة البقرة : ١٣٢ .

٣ ـ سورة الذاريات : ٣٦ .

٤ ـ سورة النمل : ٣٠ ، ٣١ .

٥ ـ سورة النمل : ٣٨ .

ثم يصرح القرآن الكريم ، فيما أخبر به سبحانه وتعالى عن الحواريين أتباع **عيسى عليه السلام** حينما أحس منهم الكفر بأن دين عيسى هو الإسلام أيضاً ، فيقول عز وجل :

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ‹١›

وهكذا جميع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كان دينهم الذي أمرهم الله به وأوحى به سبحانه وتعالى لهم أن يبلغوه لعباده ـ الإسلام .

ولقد صرح القرآن في أكثر من موضع أن الدين عند الله الإسلام ، فقال تعالى :

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ‹٢›

وقال عز وجل :

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ ‹٣›

---

١ ـ سورة آل عمران : ٥٢ .

٢ ـ سورة آل عمران : ١٩ .

٣ ـ سورة آل عمران : ٨٣ ـ ٨٥ .

ونخلص من هذا كله إلى أن الإسلام هو دين اللّٰه الذي أرسل به جميع الرسل عليهم السلام .

وأما الفرق بين الإيمان والإسلام والعلاقة بينهما فهو لا يتضح إلا بعد أن تقف على حَدّ " الإيمان " في اللغة والشرع ، بعد أن بينا فيما سلف حدّ الإسلام .

أما الإيمان في اللغة : فهو التصديق ، يقال : آمن ، يؤمن إيماناً ، فهو مؤمن ، أى مصدِّق .

قال عز وجل :

وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ‹١›

أى بمصدق لقولنا حتى لو كنا صادقين فيما نقول .

وآمنتُ بالشيء : صَدَّقت به ‹٢› .

وورد الإيمان في التنزيل على خمسة معان : ‹٣›

١ ـ إقرار اللسان ، كما قال تعالى :

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ‹٤›

أى آمنوا باللسان ، وكفروا بالجنان ، والسياق عن المنافقين .

٢ ـ التصديق في السّر والإعلان ، كما قال عز وجل :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ‹٥›

---

١ ـ سورة يوسف : ١٧ .

٢ ـ اللسان (أمن) ١٣ / ٢١ ـ ٢٧ .

٣ ـ بصائر ذوى التمييز ٢ / ١٥٠ .

٤ ـ سورة المنافقون : ٣ .

٥ ـ سورة البينة : ٧ .

٣ ـ التوحيد ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ‹١›

أي بكلمة التوحيد .

٤ ـ إيمان في ضمن شرك المشركين ومن ذلك قوله جل شأنه :

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ‹٢›

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ‹٣›

٥ ـ الصلاة ، كقوله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ‹٤›

فالمراد به صلاتكم .

والإيمان يستعمل تارة اسماً للشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى ذلك قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ‹٥›

ويوصف به كل من دخل في شريعته مُقراً بالله تعالى وبنبوة رسوله صلى الله عليه وسلم ‹٦› .

---

١ ـ سورة المائدة : ٥ .

٢ ـ سورة يوسف : ١٠٦ .

٣ ـ سورة الزخرف : ٨٧ .

٤ ـ سورة البقرة : ١٤٣ .

٥ ـ سورة البقرة : ٦٢ .

٦ ـ مفردات الراغب (أمن) ١٩ ، وبصائر ذوي التمييز ٢ / ١٥٠ .

والإيمان يستعمل على سبيل المدح ، ويراد به إذعان النفس للحقّ على سبيل التصديق ، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء :

١ ـ تحقيق بالقلب .

٢ ـ إقرار باللسان .

٣ ـ عمل بحسب ذلك بالجوارح . ‹١›

وعلى هذا قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ‹٢›

وقد يستعمل الإيمان على سبيل الذم كما هو مذكور في قوله :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا
مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ‹٣›

فذلك مذكور على سبيل الذم لهم ، وأنه قد حَصل لهم الأمْنُ بما لا يقع به الأمْنُ ، إذ ليس من شأن القلب ما لم يكن مطْبُوعاً عليه أنْ يطمئن إلى الباطل ‹٤› وإنما ذلك كقوله تعالى :

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ
وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ‹٥›

---

١ ـ انظر : كتاب الإيمان لابن تيمية ١٤٥ ـ ١٤٧ .

٢ ـ سورة الحديد : ١٩ .

٣ ـ سورة النساء : ٥١ ، والجبت والطاغوت : كل معبود من حجر أو صورة أو شيطان . (جامع البيان للطبرى ٨ / ٤٦٥) .

٤ ـ مفردات الراغب (أمن) ١٩ .

٥ ـ سورة النحل : ١٠٦ ، وانظر : مفردات الراغب (أمن) ١٩ ، وبصائر ذوى التمييز ٢ : ١٥١ .

وقد اختلفت أقوال السلف وأئمة السنة في حقيقة الإيمان على النحو التالي :

١ ـ الإيمان قول وعمل .

٢ ـ الإيمان قول وعمل ونية واتباع سنة .

٣ ـ الإيمان تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان .

٤ ـ الإيمان هو التصديق بالجنان ، والعمل بالأركان ‹١› .

وهذا الاختلاف اختلاف صوري ، بحيث يمكن الجمع بين هذه الأقوال ، وقد جمع بينها ابن تيمية يرحمه الله تعالى في قوله : " وكل هذا صحيح ، فإن قالوا : " قول وعمل " فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعاً ، وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق .

ومَنْ قال : " قول وعمل ونية " فإن القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان ، وأما العمل فقد لا يفهم منه " النية " فزادوا ذلك . ومَنْ زاد " اتباع السنة " فلأن ذلك كله لا يكون محبوباً لله إلاّ بإتباع السنة والذين جعلوه أربعاً فَسَّروا مرادهم : بأن الإيمان قول وعمل ونية وسنة ، والإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر ، وإن كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق ، وإن كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة ‹٢› .

وأميل إلى القول الأخير ، وهو أن الإيمان قول وعمل ونية وسنة .

وأما أئمة الفقه ـ **مالك ـ الشافعي ـ وأحمد** ـ فقالوا : إن الإيمان ما يقوم به القلب واللسان وسائر الجوارح معاً .

---

١ ـ انظر : شرح العقيدة الطحاوية ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ومجموع الفتاوى : لابن تيمية ٧ / ١٧٠ / وكتاب الإيمان : لابن تيمية ١٤٥ ـ ١٤٧ ، وحد الإسلام وحقيقة الإيمان للشاذلي / الطبعة الأولى ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

٢ ـ كتاب الإيمان لابن تيمية ١٤٥ ـ ١٤٧ / ومجموع الفتاوى له ٧ / ١٧١ .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : « إن الإيمان ما يقوم به القلب واللسان دون سائر الجوارح » .

والاختلاف الذي بين أبى حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة ، اختلاف صورى ، فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب ، أو جزءاً من الإيمان ، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ، بل هو في مشيئة الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه ـ نزاع لفظى لا يترتب عليه فساد الاعتقاد . ‹١›

وقال ابن حجر رحمه الله :

« إن الإسلام يطلق ويراد به الحقيقة الشرعية ، وهو الذي يرادف الإيمان ، وينتفع به عند الله » ، وعليه قوله تعالى :

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ‹٢›

وقوله تعالى :

فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ‹٣›

« ويطلق ويراد به الحقيقة اللغوية ، وهو مجرد الانقياد والاستسلام » .

ثم قال : إن المسلم يطلق على من أظهر الإسلام وإن لم يُعلم باطنه ، فلا يكون مؤمناً لأنه ممن لم تصدق عليه الحقيقة الشرعية وأما اللغوية فحاصلة . ‹٤›

---

١ ـ شرح العقيدة الطحاوية : ٣٧٤ .

٢ ـ سورة آل عمران : ١٩ .

٣ ـ سورة الذاريات : ٣٥ ـ ٣٦ .

٤ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١ : ٧٩ / كتاب الإيمان (باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقه ، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل ، لقوله : (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) ، فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله : (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ) .

ويقول شارح العقيدة الطحاوية :

" فالحاصل أن حال اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر ، فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين ، إحداهما من الأخرى ، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان في الأعيان ، إحداها مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم ، كشيء واحد .

كذلك الإسلام والإيمان ، لا إيمان لمن لا إسلام له ، ولا إسلام لمن لا إيمان له ، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه ، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه . (١)

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله تعالى :

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن
قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ (٢)

فهؤلاء منافقون ، وليسوا بمؤمنين كاملى الإيمان لأنهم انقادوا بظواهرهم فقط ، وينتفى بعد هذا التفصيل دعوى الترادف ، وأن حالة الاقتران غير حالة الانفراد . (٣)

قال ابن حجر : والحق أن بينهما عموماً وخصوصاً ، فكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً .

ومقتضاه أن الإسلام لا يطلق على الاعتقاد والعمل معاً ، بخلاف الإيمان فإنه يطلق عليهما معاً .

---

١ ـ شرح العقيدة الطحاوية : ٣٩٢ / حققها وراجعها جماعة من العلماء وأخرج أحاديثها : محمد ناصر الدين الألباني / الطبعة الأولى ، ١٣٩٢ هـ .

٢ ـ سورة الحجرات : ١٤ .

٣ ـ المرجع السابق : ٣٩٣ .

ويَرِد عليه قوله تعالى :

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ‹١›

« فإن الإسلام هنا يتناول العمل والاعتقاد معاً ، لأن العامل غير المعتقد ليس بذي دين مرضى » ‹٢› .

ويمكن الحكم على المرء بالإسلام إذا تلفظ بكلمة الشهادة ، بينما لا يسمى مؤمناً إلا بالعمل ، والعمل يشمل عمل القلب والجوارح حتى يدل على صدقه وصدق إيمانه .

وأما الإسلام المذكور في حديث جبريل عليه السلام فكما جاء في الصحيح :

" كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وبلقائه ، ورُسله ، وتؤمن بالبعث ، قال:ما الإسلام ؟ قال :الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، قال:ما الإحسان ؟ قال:أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال:متى الساعة ؟ قال:ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها:إذا ولدت الأمة ربها ‹٣› ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم ‹٤› في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله ،

---

١ ـ سورة المائدة : ٣ .

٢ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى ١ / ١١٥ / كتاب الإيمان / باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، والإسلام والإحسان ... الخ .

٣ ـ قوله : (إذا ولدت الأمة ربها) وفى رواية " ربتها " بتاء التأنيث وفى رواية " الإماء أربابهن " بالجمع ، والمراد بالرب المالك والسيد ، بمعنى أن تلد العجم العرب ، ووجهه بعضهم بأن الإماء يلدن الملوك فتصير الأم من جملة الرعية ، والملك سيد الرعية ، ووجهه بعضهم بأن إطلاق ربتها على ولدها مجاز ، لأنه كان سبباً فى عتقها بموت أبيه (فتح البارى ١ / ١٢٢) .

٤ ـ قوله : (إذا تطاول رعاة الإبل البهم) بضم الراء جمع راع ، كقضاة وقاضى ، والبهم بضم الموحدة ، وفى رواية بفتحها ، ولا يتجه مع ذكر الإبل ، وإنما يتجه مع ذكر الشاة ، أو مع عدم الإضافة ، رعاء البهم ، وميم البهم يجوز ضمها على أنها صفة الرعاة ، ويجوز كسرها على أنها صفه الإبل يعنى السود ، ووصف الرعاة بالبهم لأنهم مجهولو الأنساب ومنه : أبهم الأمر ، فهو مبهم اذا لم تعرف حقيقتة (فتح البارى ١ / ١٢٣) .

ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) الآية <١> .

ثم أدبر ، فقال : ردوه . فلم يروا شيئاً . فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . <٢>

قال ابن حجر : إن الإسلام لا يطلق على الاعتقاد والعمل معاً بخلاف الإيمان فإنه يطلق عليهما معاً . ويَرِد قولهُ تعالى : (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً) فإن الإسلام هنا يتناول العمل والاعتقاد معاً ، لأن العامل غير المعتقد ليس بذى دين مرضى . وبهذا استدل المزنى وأبو محمد البغوى فقالا في الكلام على حديث جبريل هذا :

جعل النبى صلى الله عليه وسلم الإسلام في الحديث اسماً لما ظهر من الأعمال ، والإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد ، وليس ذاك لأن الأعمال ليست من الإيمان ، ولا لأن التصديق ليس من الإسلام ، بل ذاك تفصيل لجملة كلها شيء واحد ، وجماعها الدين ، ولهذا قال : صلى الله عليه وسلم : " أتاكم يعلمكم دينكم " .

ثم قال ابن حجر : « والذي يظهر من مجموع الأدلة أن لكل منهما حقيقة شرعية ، كما أن لكل منهما حقيقة لغوية ، لكن كل منهما مستلزم للآخر بمعنى التكميل له ، فكما أن العامل لا يكون مسلماً كاملاً إلا إذا اعتقد ، فكذلك المعتقد لا يكون مؤمناً إلا إذا عمل ، وحيث يطلق الإيمان في موضع الإسلام أو العكس أو يطلق أحدهما على إرادتهما معاً ، فهو على سبيل المجاز » .

---

١ ـ سورة لقمان : ٣٤ .

٢ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١ / ١١٤ / كتاب الإيمان / باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبى صلى الله عليه وسلم له .

ويتبين المراد بالسياق ، فإن وردا معاً في مقام السؤال حملا على الحقيقة ، وإن لم يردا معاً أو لم يكن في مقام سؤال أمكن الحمل على الحقيقة أو المجاز بحسب ما يظهر من القرائن .

وأهل السنة والجماعة قالوا : إنهما تختلف دلالتهما بالاقتران ، فإن أفرد أحدهما دخل الآخر فيه . <١>

---

١ ـ انظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى ١ / ١١٥ .

المجتمع الإسلامي كما يصوره الفصل الثالث

مما تقدم في هذا الفصل عرفنا أن الله تعالى قد مَنَّ على الأمة الإسلامية بإكمال دينها ، وإتمام نعمته عليها ، ورضى لها الإسلام دينا ، ولن يقبل سواه .

وأن المراد بإكمال الدين هو كمال العقيدة والشريعة معاً ، بحيث أصبحت الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وهي كفيلة ، بإصلاح كل زمان ومكان .

وعلى ذلك فهى كفيلة بإصلاح المجتمع الإسلامي .

وأن المراد بإتمام النعمة هو إكمال الشرائع والأحكام وإظهار دين الإسلام على الدين كله ، لأنه لا نعمة أتمّ من نعمة الإسلام ، وبه جعل الله المسلمين قاهرين لأعدائهم ، وجعل الشرع لا يتطرق إليه النسخ أبدا ، فأصبحت الأمة الإسلامية غير محتاجة إلى دين آخر ، ولا نبى غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذه النعمة لا يدركها إلا من اطلع على المعتقدات الباطلة ، والملل الزائفة ، والطغيان وأنواع الفساد التي كانت تسود حياة الجاهلية ، وبذلك يدرك الإنسان قيمة نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام ، فيستقر المجتمع الإسلامى ويزدهر .

وواجب المسلمين تجاه هذه النعمة العظيمة ، نعمة إكمال الدين ، أن يتلقوها بالشكر والحمد للمنعم المتفضل على عباده سبحانه وتعالى ، لأن من شأنها أن تجعل المسلمين مستقرين مطمئنين ، آمنين بما اختاره الله لهم من دين الإسلام ، الذي هو دين الله ، الذي ارتضاه لعباده ، ولا يقبل ديناً سواه .

وهذا الاستقرار والاطمئنان يهيئان للأمة الإسلامية ولأفرادها وجماعاتها حياة كريمة ، يسودها الاستقرار والأمن في دنياهم والسعادة الأبدية في آخرتهم .

الفصل الرابع

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أبرز الخطوط في الدعوة الإسلامية ، وهما من أقوى الأسس التي يقوم عليها المجتمع الإسلامى المتعاون القوى المنشود .

وإذا تَخَلَّى المسلمون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ضَعُف مجتمعهم ، وإنحلَّت عُرَاه ، وعم الفساد والضعف فيه ، وأدىّ ذلك إلى هلاكه .

وقد اهتـم القرآن بهما اهتماماً عظيماً ، وأكدت عليهما السنة النبوية المطهرة .

وقبل أن أتحدث عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنهما من أسباب استقرار المجتمع الإسلامى ، وما ورد في القرآن الكريم من الحَثّ عليهما ، يحسن أن نأتى بتعريف كل منهما .

فالمعروف في اللغة : مأخوذ من : عَرَفَه يَعْرِفه عِرْفَاناً ومعرفةً ، إذا علمه ‹١› .

والعَرِيف والعَارِف بمعنىً ، مثل : عَلِيم وعَالِم ، وأمرٌ عَرِيفٌ ، أى مَعروف ، وعَرَّفه الأمَر : أعْلَمه إيَّاه ، وقد تعارَف القومُ : عَرَفَ بعضهُم بعضاً .

قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ‹٢›

---

١ ـ اللسان (عرف) ٩ / ٢٣٦ ـ ٢٤٣ .

٢ ـ سورة الحجرات : ١٣ .

وقال عز وجل :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ‹١›

وعَرِيف القوم : سيِّدُهم ، لمعرفته بسياسة القوم .

والمَعْرِفة والعِرْفَان : إدراكُ الشيء بتفكُّر وتدبرٌ ، وهو أخصُّ من العِلْم ، ويقال : فلان يَعرف اللَّه ، ولا يقال : يَعْلم اللَّه ، ومعرفةُ البشر للَّه تعالى بتدبُّر آثارِه دون إدراك ذاته . ويقال : اللَّه يَعْلم كذا ، ولا يقال : يَعرف كذا ، لأن المعرفة تُستعمل في العِلْم القاصر المتوصَّل إليه بتفكر ‹٢› .

قال تعالى :

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ ‹٣›

وقال عز وجل :

﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ ‹٤›

ويضادُّ المعرفة الإنكارُ .

قال تعالى :

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ‹٥›

---

١ ـ سورة يونس : ٤٥ .

٢ ـ اللسان (عرف) ٩ / ٢٣٦ ـ ٢٤٣ .

٣ ـ سورة البقرة : ٨٩ .

٤ ـ سورة يوسف : ٥٨ .

٥ ـ سورة النحل : ٨٣ .

والمعروف في الشرع هو : اسم لكل فعلٍ يُعرف بالشرع والعقل حُسْنُه ، والمنكَر ما يُنْكَر بهما .

والعَقل والنَّقل لا يتعارضان بحال <١> .

قال تعالى :

وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ <٢>

والمعروف : اسمٌ جامع لكل ماعُرف من طاعة الله تعالى ، والتقّرب إليه ، والإحسان إلى الناس ، وكل ما نَدبَ إليه الشرع ، ونَهى عنه ، من المحسّنات ، والمقبّحات ، أى هو أمر مَعروفٌ بين الناسِ إذا رأوه لا ينكرونه . <٣>

ويعرفه الطبرى رحمه الله بقوله : " أصل المعروف كل ما كان معروفاً فعلُه جميلاً مستحسَناً ، غيرِ مستقبح في أهل الإيمان بالله ، وإنما سميت طاعة الله معروفاً لأنه مما يَعرف أهلُ الإيمان ، ولا يستنكرون فعله <٤> .

ويقول الرازي رحمه الله : " رأس المعـروف الإيمان بالله ورأس المنكر الكفر بالله " <٥> .

---

١ ـ مفردات الراغب (عرف) ٣٤٣ .

٢ ـ سورة آل عمران : ١٠٤ ، ١١٤ ، والتوبة : ٧١ .

٣ ـ اللسان (عرف) ٩ / ٢٣٦ ـ ٢٤٣ .

٤ ـ جامع البيان فى تفسير القرآن ٧ / ١٠٥ (المحقق) .

٥ ـ التفسير الكبير ٤ / ٥٢٣ .

ويقول أبو حيان رحمه الله : " فَسَّر بعضهم المعروف بالتوحيد ، والمنكر بالكفر ، ولا شك أن التوحيد رأس المعروف ، والكفر رأس المنكر ، ولكن الظاهر العموم في كل معروفٍ مأمورٍ به في الشرع ، وفي المنكر كل منهى عنه في الشرع " ‹١› .

ويعرفه **الإمام الصاوى** بأنه : " ما طلبه الشارع إما على سبيل الوجوب كالصلوات الخمس ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، أو الندبِ كالنوافل وصدقات التطوع " . ‹٢›

أما المنكَر في اللغة فهو : « خلاف المعروف ، وكل ما قَبَّحه الشرع وحَرَّمه وكَرِهه فهو منكر » .

ويقال : نَكِرَه (بفتح الأول وكسر الثاني) يَنْكَرُه (بفتح العين) نَكَراً (بفتحتين) فهو مَنْكُورٌ (بزنة : مفعول) . واستَنْكَره ، فهو مُسْتَنْكَر (بفتح الكاف) وجمع المنكَر : مَناكِير (بزنة : مفاعيل) والنُّكْر (بضم فسكون) والنُّكْراء (بفتح فسكون ، ممدودة) : المُنْكَر . وفي التنزيل الحكيم :

لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ‹٣›

ورجل نَكُرٌ (بفتح فضم) ونَكِرٌ . وجمعهما : أَنْكَار (بزنة أفعال) والنَّكير (بزنة فَعِيل) والإنكار : تغيير المنكَر ‹٤› . وفي التنزيل الحكيم :

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ‹٥› أى إنكارى .

---

١ ـ البحر المحيط ٣ / ٢٠ ، ٢١ .

٢ ـ حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ١ / ١٥٢ .

٣ ـ سورة الكهف : ٧٤ .

٤ ـ اللسان (نكر) ٥ / ٢٣٢ ـ ٢٣٤ .

٥ ـ سورة الحج : ٤٤ .

والمنكر في الشرع هو : كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه ، أو تتوقف في استقباحه وإستحسانه العقول ، فتحكم بقبحه الشريعة ‹١› ومن ذلك قوله عز وجل :

ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ‹٢›

وقوله تعالى :

كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ‹٣›

وقوله عز وجل :

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ‹٤›

وقوله تعالى

وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ‹٥›

فكل فعل تحكم العقول السليمة بقُبْحِه أو تتوقف في استقباحه واستحسانه فيكون مما يحرم ويكرهه الشرع ، وهو خلاف المعروف .

وقال ابن الأثير : " المنكر : ضد المعروف فكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر " ‹٦› .

---

١ ـ مفردات الراغب (نكر) ٥٦٢ .

٢ ـ سورة التوبة : ١١٢ .

٣ ـ سورة المائدة : ٧٩ .

٤ ـ سورة آل عمران ، الآيتان : ١٠٤ ، ١١٤ ، والتوبة : ٧١ .

٥ ـ سورة العنكبوت : ٢٩ .

٦ ـ النهاية فى غريب الحديث والأثر (نكر) .

وقال الطبرى رحمه الله : " وأصل المنكر ما أنكره الله ورآه قبيحاً فعله وسميت معصية الله منكراً ، لأن أهل الإيمان يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها " . ‹١›

ومراد الطبري من هذا التعريف : أن الله سبحانه وتعالى لا يحب للناس إلا الخير ، وينهاهم عن الشر ، وفيما يراه تعالى منكراً يراه المسلمون كذلك ، لأنهم أصحاب فطر نقية وسليمة ، يتجهون نحو المعروف بقلوبهم وعقولهم وجوارحهم ، ويبتعدون عن المنكر كذلك .

وخلاصة القول : " أن المعروف هو كل ما أمر به الشرع وحَسَّنه من قول أو عمل أو اعتقاد ، أو ندب إليه ، من التقرب إلى الله عز وجل بالطاعات والإحسان إلى الناس بالخير وأنواع البر .

والمنكر هو كل أمر نهى عنه الشرع وقبحه من قول أو عمل أو اعتقاد ، وإستنكره الناس .

والأصل في تقرير المعروف والمنكر هما الكتاب والسنة .

فالذي تقرره الشريعة الإسلامية وتستحسنه وتأمر به هو المعروف .

أما إذا استقبحته وأنكرته ، وأمرت بالابتعاد عنه ، وحكمت عليه بأنه منكر ، فيجب على المسلمين أن يكون في نظرهم منكراً . ‹٢›

---

١ ـ جامع البيان ٧ / ١٠٧ .

٢ ـ المصدر السابق : ٧ / ١٠٧ .

وفيما يلي أتحدث عن أنواع الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر:

١ ـ أصحاب القلوب والعزائم .

وهم المقصودون بقوله تعالى :

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (١)

وهم الصابرون كذلك ، أخذاً من قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (٢)

٢ ـ قوم من أهل العلم والعمل ، متمسكون بالخلق الكريم ، تاركون ما نهى الله عنه ، لا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم ، ولكن فيهم حدّة وصلابه في التغيير ، ففاتهم الرفق الواجب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكانوا دون من قبلهم .

٣ ـ علماء بما يأمرون وينهون ، ولكنهم غافلون عن الآفات المفسدة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيغلب عليهم سوء الظن بالمسلمين .

٤ ـ قوم صالحون أخيار ، ولكنهم لا يعرفون قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمنهم من يكون رَفيقاً صبوراً على الأذى سراً وجهراً ، ومنهم من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر بمقتضي الغيرة ، ولكنهم لا يصبرون . (٣)

٥ ـ العامة الذين رزقوا حظاً من القبول عند الناس ، يخطبون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على غير علم ، فيفسدون أكثر مما يصلحون .

---

١ ـ سورة آل عمران : ١١٠ .

٢ ـ سورة آل عمران : ١٤٦ .

١ ـ انظر : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لابى بكر أحمد محمد بن هارون الخلال (٣١١هـ) ، ص ٢٠ ، ٢١ / تحقيق : عبد القادر أحمد عطا / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان ، ومنهاج العلماء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر / فاروق عبد المجيد حمود السامرائى / ص ٦٤ ، ٦٥ / مكتبه دار الوفاء للنشر والتوزيع / جدة .

٦ ـ قوم في الجهل كسابقيهم ، إلا أنهم غافلون عن كل ما يأمرون به ، وينهون عنه مقارفون للمعاصي .

٧ ـ قوم دون من قبلهم ، وأخس منهم ، لأنهم نصبوا أنفسهم للأمر والنهي رياء وسمعة ، واكتساباً للمحامد والرفعة ، وتزينوا بزي الصالحين ، وأخذوا زينتهم وسيلة لنيل مآربهم .

٨ ـ قوم ليس لهم منهج صحيح ، فهم يأمرون الضعفاء ، ويضعفون عن الأقوياء مع قدرتهم ، ويحابى بعضهم الأصدقاء وذوى الهيئات لغرض شيطانى مذموم . ‹١›

٩ ـ قوم من أهل المعصية من بعض الأمراء والحكام ، وكذلك المنتمون إليهم من أهل الرئاسة والفخر ، يعمد أحدهم إلى أذى من يأمره فيحبسه أو يتسلط عليه ويؤذيه .

وهذا النوع لا يترك العصيان ، ولا يرجع عن شره ، وقد ذمه الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ ‹٢›

أى إذا قيل لهذا المأمور : اتق الله وخَفْه في إفسادك في أرض الله ، وبسعيك فيها بما حرَّم الله عليك من معاصيه ، استكبر ودخلته عِزة وحَمِيَّة بما حرّم الله عليه ، وتمادى في غيِّه وضلاله ، فكفاه عقوبة على هذا الغى والضلال جهنم ‹٣› ، كما يشير إليه قوله تعالى : (فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) الآية .

---

١ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأبى بكر الخلال : ٤٨ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٠٦ .

٣ ـ انظر : جامع البيان ٤ / ٢٢٤ " المحقق " .

١٠ـ قوم ليس لهم وجاهة بين العوام ، لكنهم مترفعون بالوساطات ، إما بالدولة ، وإما بالعلم ، وإما بالمال .

وهؤلاء أظلم الناس ، لأنهم ذكروا بآيات ربهم فأعرضوا عنها ، ونسوا ما قدمت أيديهم .

١١ـ قوم مأمورون منهيون ، يقابلون الآمرين الناهين بالقول السيىء جهاراً ، ومنهم من يقبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظاهراً ، ولكنه يخلو إلى نفسه فيرتكب المنكر .

١٢ـ قوم منهم من يستمع فيتوب ، ومنهم مستقيم على التوبة ، وهؤلاء ظفروا بالغفران .

١٣ـ قوم آخرون ، منهم من يقيم على التوبة ثم يعود ، ومنهم من يتردد بين الطاعة والمعصية ، وعلى هؤلاء أن يعاودوا مراقبة نفوسهم وتذكيرها وزجرها ، وحرمانها من كثير مما تهوى حتى تطيع .

القاعدون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

١ ـ هم قوم إما أن يكونوا ممن آثروا المعصية على الطاعة ، فركنوا إلى العصاة ، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهؤلاء مصدر من مصادر غضب الله على الأمة كلها إذا لَم يَتَصَدَّ لهم أولو العلم والسلطان بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٢ ـ ومنهم قوم يرهبون من المخلوقين ، ولهذه الرهبة تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إيثاراً للدنيا ، وهم يجاملون أهل المنكر لما لهم معهم من مصالح دنيوية ، أو خوفاً من ضرر يصيبهم ، أو خيرٍ دنيويٍّ يزول عنهم .

٣ ـ ومنهم قوم يجاملون المحسنين فيقعدون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما لهم عليهم من الأيادى (١) .

---

١ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر / لأبى بكر الخلال ٢١ ، ٢٢ .

ومما سبق ايضاحه ينبغى التعرف على القواعد التي يجب أن يقوم عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي كما يأتى :

أولاً : العلم بجميع المصالح والمفاسد :

ينبغى للآمر الناهى أن يكون على فقه في دين الله ويعرف كل المصالح المترتبه على أمره أو نهيه والمفاسد الناتجة عن كليهما وذلك لابد من العلم بحقيقة المعروف للدعوة إليه ، وكذا حقيقة المنكر للنهى عنه ، ولا يمكن العمل بهما مع الجهل بقواعدهما ، ومعرفة الأحكام المتعلقة بكل منهما <١> ، قال عز وجل :

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ <٢>

وفسر السبيل بأنه الطريق إلى دين الله تعالى :

ولذا يجب على من يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ، أن يكون فقيها عالماً فيما يأمر به ، وكذلك فقيهاً عالماً فيما ينهى عنه . <٣>

ثانياً : الرفق والرحمة :

فعلى الآمر الناهى أن يكون مستمسكاً بالرفق والرحمة تجاه الذين يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، حتي يمكن الالتزام بأقواله ، والتأسى بأعماله ، فقد مدح الله سبحانه وتعالى رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ <٤>

---

١ ـ انظر : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية ١٩٠ ، واصول الدعوة لعبد الكريم زيدان ٤٦٢ ـ ٤٦٤ .

٢ ـ سورة يوسف : ١٠٨ .

٣ ـ انظر : أصول الدعوة / لعبد الكريم زيدان ٤٦١ .

٤ ـ سورة آل عمران : ١٥٩ .

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة إلى المؤمنين ، كما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)

وقد أمر الله تعالى رسوليه ، موسى وهارون عليهما السلام ، وحثهما حينما بعثهما إلى الطاغية فرعون الجبار ، على أن يقولا له قولاً ليناً ، فيه الرفق واللين والرحمة ، لعله يتذكر ويتعظ أو يخاف الله رب العالمين ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (٢)

فأمرهما سبحانه وتعالى أن يخاطباه باللين والحسنى ، والرفق ، والرحمة ، ليكون هذا الأمر مدعاة إلى هدايته وإرشاده إلى طريق الله المستقيم مع العلم أنه طغى وتكبر وتجبر ، وادعى الألوهية لنفسه ، كما حكى عنه القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ (٣)

ثم يقول تعالى حاكياً عنه :

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (٤)

---

١ ـ سورة التوبة : ١٢٨ .

٢ ـ سورة طه : ٤٣ ، ٤٤ .

٣ ـ سورة القصص : ٣٨ .

٤ ـ سورة النازعات : ٢٤ .

ولكن الله خذله وأخذه أخذ عزيز مقتدر ، كما يشير إليه قوله :

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ (١)

ثالثاً : الإستطاعة :

ويقصد بذلك أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يكون على القدر الذي كَلَّف به ربنا سبحانه وتعالى عباده المؤمنين على حسب طاقتهم وتحملهم ، ولا يكون التكليف فوق المستطاع كما قال تعالى :

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ (٢)

فليس من الواجب إيصال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى كل فرد من أفراد الأمة ، أو إلى كل مكان من بلاد الله تعالى ، بل هو بالقدر المستطاع . (٣)

رابعاً : الصبر :

وهو الأساس ، حتي يتحقق الإصلاح ، إذ إن كل آمر بالمعروف أو ناهٍ عن المنكر ، لابد له أن يتعرض لنوع من الأذى والتعدى عليه ، وأقله الإعراض عن دعوته ، فلابد أن يصبر حتي يصل إلى خيرى الدنيا والآخرة معاً .

---

١ ـ سورة النازعات : ٢٥ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٨٦ .

٣ ـ انظر : مناهج العلماء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : للسامرائى : ٧٤ .

وفي ذلك يقول عز وجل :

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ
إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ
ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ
وَلِىٌّ حَمِيمٌ ‹١›

ويقول سبحانه وتعالى :

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ‹٢›

أى قادةً للخير يُقتدى بهم حينما يدعون الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، صابرين على دينهم ، وعلى البلاء الذى يصيبهم من أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . ‹٣›

ولأن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يُؤذَى ، أمر الله تعالى الآمرين الناهين بالصبر والثبات .

ونلاحظ في قوله تعالى :

وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ‹٤›

أنه قد جاء التواصى بالحق مشفوعاً بالتواصى بالصبر ، والتواصى بالحق أن يذكِّر المؤمنون بعضهم بعضاً بدين الله الذي ارتضاه لهم ، وبالقرآن الكريم والعمل بما فيه ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتواصى فيما بينهم على

---

١ ـ سورة فصلت : ٣٣ : ٣٤ .

٢ ـ سورة السجدة : ٢٤ .

٣ ـ انظر : تفسير الخازن / المسمى لباب التأويل فى معالم التنزيل / وبهامشه البغوى ٥ / ١٨٨ .

٤ ـ سورة العصر : ٣ .

أداء الفرائض وإقامة أمر اللّٰه وحدوده ، وعلى التحمل لما يلقونه من الشدائد في سبيل الدعوة الإسلامية وتبليغ دين اللّٰه ، وبذلك تتأكد أهمية الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر <١> .

ومما يوضح ضرورة الصبر وأهميته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قولُ **شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّٰه** :" أمر اللّٰه تعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ وهم أئمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ـ بالصبر كقوله لخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام " .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾
وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ <٢>

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار وختمها بالأمر بالصبر ، والإنذار ما هو إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وأمره أيضاً في سورة " المزمل " بالصبر في قوله تعالى :

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا <٣>

وفي سورة " الأحقاف " قال له :

فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ <٤>

---

١ ـ انظر : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لجلال الديـن العمرى : ٢٥١ ، وتفسير الخازن وبهامشه البغوى ٧ / ٢٤٠ .

٢ ـ سورة المدثر : ١ ـ ٧ .

٣ ـ سورة المزمل : ١٠ .

٤ ـ سورة الأحقاف : ٣٥ .

فلابد من هذه الثلاثة : **العلم ، والرفق ، والصبر** ، والعلم قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والرفق معه ، والصبر بعده . (١)

وإذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حاجة إلى الصبر لأداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن غيرهم أولى بذلك .

فبالصبر يستطيع الإنسان أن يتغلب على الأهواء ويسلم نفسه لخالقه تعالى ، فمن لا يستطيع أن يسلم من الأهواء ، ولا يكبح شهواته ، لا يستطيع أن يقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنه إذا لم يستطع أن يصلح نفسه فلن يستطيع أن يصلح غيره .

خامساً : العفو والإعراض :

لقد جمع القرآن الكريم بين العفو ، والأمر بالمعروف ، والإعراض عن الجهلاء في قوله عز وجل :

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (٢)

ففي هذه الآية الكريمة يأمر الله نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يعفو ويصفح عمن ظلمه وأساء إليه ، بل يأمره بما تعارف عليه الشرع من التسامح ، والإعراض عمن أساء إليه ، لكن لا يعتدى على حق من حقوق الله تعالى ، ولا يصفح عمن كفر بالله ، وعمن حجد وحدانيته ، ليكون أسوة حسنة لأمته في العمل بمقتضي الآية الكريمة .

---

١ ـ انظر :الحسبة فى الإسلام ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق سيد بن محمد بن أبى سعدة : ٨٣ ، ٨٤ .

٢ ـ سورة الأعراف : ١٩٩ .

فيجب على المسلمين أن يكونوا حرباً على أعدائهم بما يناسب عداوتهم ، ولا يتجاوزوا حد الله الذي ألزم به عباده .

فإن تجاوزوه فليس من الحكمة الصفح والعفو عنهم ، بل يجب معاملتهم بما يليق من القسوة والشدة والبأس <١> .

سادساً : إخلاص العمل لوجه الله تعالى :

فينبغي على الآمر والناهي أن يريد بعمله وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته ، وإعزاز دينه ، فلا سمعة ولا رياء ، ولا جاه ولا محاباة ، بل يكون قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراداً به إعلاء كلمة التوحيد ، ونصرة الإسلام والمسلمين ، وإظهار دين الله ، وإتمام نوره .

والمخلصون هم الذين يسيرون على تعاليم دين الإسلام ، وهدى الله وابتغاء مرضاته ، ولا يطلبون إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار .

قال تعالى :

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ <٢>

هذه هي الصفات الضرورية لمن يتصدى لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبدونها يكون الضرر الواقع أكثر من النفع المرجو .

---

١ ــ انظر : جامع البيان ٩ / ١٠٤ .

٢ ــ سورة فصلت : ٣٣ .

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

اتفقت الأمة الإسلامية على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بلاِ خلاف من أحد منهم <١> .

يقول أبو بكر الجصاص : أكد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الكثير من مواضع من كتابه العزيز ، وبينه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في أخبار صحيحة متواترة عنه ، وأجمع السلف الصالح والفقهاء على وجوبه <٢> .

ويقول الشوكانى :

وجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم الواجبات فى الشريعة الإسلامية ، وأصل من أصولها ، وركن شديد من أركانها وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها <٣> .

ويقول رشيد رضا : إن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض حتم على كل مسلم <٤> .

ويدل على وجوبه قوله عز وجل :

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ <٥>

---

١ ـ انظر : الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم : ٤ / ١٧١ .

٢ ـ أحكام القرآن للجصاص ٢ / ٤٨٦ .

٣ ـ فتح القدير ١ / ٣٦٩ .

٤ ـ تفسير المنار ٤ / ٣٥ .

٥ ـ آل عمران : ١٠٤ .

وقوله تعالى :

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ‹١›

ونلاحظ فى هذا الصدد أن **الغزالى رحمه الله** فى " إحياء علوم الدين " يستهل كتاب " **الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر** " بقوله : " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الأساس الأعظم فى الدين ، والمهمة التى أرسل الله سبحانه وتعالى لها النبيين عليهم الصلاة والسلام ، فإذا أهمل علمه وعمله تعطلت النبوة ، وانتشرت الضلالة ، وعم الفساد ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، فلم يشعروا بذلك إلى يوم القيامة ، وكان الذى خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون " .

ثم يعلل أهمية هذا الواجب بقوله : " إن تركه يستلزم اتباع الناس لأهوائهم ، كمداهنة الخلق ، وترك مراقبة الخالق جل شأنه ، والاسترسال فى اتباع الهوى والشهوات .

وعَزَّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه فى الله لومة لائم .

ويبدأ الباب الأول الذى عنوانه : " فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفضيلته ، والمذمة فى إهماله وإضاعته " قائلاً : ويدل على ذلك إجماع الأمة الإسلامية عليه ، وإشارات العقول السليمة إليه ، والآيات والأخبار ، والآثار ‹٢› .

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الأمة الإسلامية ،وعلى هذه الأمة ألا تدع المسلمين يهملون هذه الفريضة ،فإن أهملتها طائفة من الأمة الإسلامية فواجب على الدولة محاربتها ، ويقول

---

١ ـ سورة آل عمران : ١١٠ .

٢ ـ انظر : إحياء علوم الدين ٢ / ٣٠٦ .

فى ذلك : كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة ، فإنه يجب قتالها باتفاق المسلمين ، وإن تكلّمت بالشهادتين ، فإذا أقروا بالشهادتين ، وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا ، وكذلك إن امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجهاد الكفار إلى أن يسلموا أو يؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون " ‹١› .

وذلك يفيد أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض حتم على كل مسلم كما تدل عليه الآيتان من سورة آل عمران قوله :

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ‹٢›

وقوله تعالى :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ
أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ‹٣›

وقد اتفق العلماء على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولكن اختلفوا فى نوع هذا الواجب ، هل هو فرض عين ، أو فرض كفاية ؟ وكذلك فيمن يلزمهم هذا الواجب ؟ .

---

١ ـ انظر : مجموع فتاوى / لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٨ : ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

٢ ـ سورة آل عمران : ١٠٤ .

٣ ـ سورة آل عمران : ١١٠ .

١ ـ فمن العلماء من قال : <١>

هو فرض عين على كل مسلم ، سواء وجد غيره أم لم يوجد ، ودليلهم فى ذلك قوله تعالى : (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) الآية .

وقوله عليه الصلاة والسلام : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " <٢> .

وفسرت الآية السابقة <٣> بقول بعضهم : كونوا أمةً دعاةً إلى الخير ، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر .

ويقول هؤلاء إن " مِنْ " للتبيين وليست للتبعيض ، مثل قوله تعالى :

فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ <٤>

ومادامت " مِنْ " فى الآية الكريمة للتبيين وليست للتبعيض . فالآية الكريمة تدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عين .

كقوله عز وجل : (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) <٥>

فظاهر الآية الكريمة لا يعنى أن الله يغفر بعض الذنوب دون بعض ، فذلك الظاهر غير مراد ، وإنما المراد أن الله تعالى يغفر كل الذنوب إذا تاب العبد وأناب إليه .

فمعنى قوله تعالى :

(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)

أى ليكن من هذه الأمة دعاة للخير آمرون بالمعروف ، ناهون عن المنكر .

---

١ ـ ابن كثير ١ / ٣٩٠ ، التفسير الكبير ٨ / ١٧٧ ، وتفسير المنار ٤ / ٢٦ ، ٢٧ .

٢ ـ صحيح مسلم ١ / ٦٩ كتاب الإيمان / باب كون النهى عن المنكر من الإيمان . وأن الإيمان يزيد وينقص . وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان .

٣ ـ سورة آل عمران : ١٠٤ .

٤ ـ سورة الحج : ٣٠ .

٥ ـ سورة نوح : ٤ .

قال ابن كثير ‹١› : « ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » (وأولئك هم المفلحون) .

قال الضحاك : « هم خاصة الصحابة ، وخاصة الرواة يعنى المجاهدين والعلماء » ... ثم يقول : « والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه ، كما ثبت في صحيح مسلم عن ابى هريرة رضي اللّٰ عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان » ... الخ ما قال . وظاهره أنه يذهب إلى فرض الكفاية في الدعوة ، وما وراء ذلك كل ذلك بحسبه ، فهو فرض عين من هذه الحيثية ، وإلا فأين الدعوة في قوله (فبقلبه) ؟ .

وفي البحر المحيط ‹٢› : « والظاهر أن قوله (منكم) يدل على التبعيض ، قاله الضحاك والطبرى ...

وذهب الزجاج إلى أن (من) لبيان الجنس وأتى على زعمه بنظائر من القرآن وكلام العرب ، ويكون متعلق الأمر جميع الأمة ، يدعون جميع العالم إلى الخير : الكفار إلى الإسلام والعصاه إلى الطاعة ، وظاهر هذا الأمر الفرضية » .

٢ ـ وذهب الجمهور من العلماء ‹٣› : إلى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ، وقالوا : إن " مِنْ " فى قوله (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ...) للتبعيض ، أى ليكن من هذه الأمة بعضها يدعو إلى الخير ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ثم يعللون ذلك بأن الآمرين الناهين يجب أن يكونوا علماء ، وليس كل الناس علماء ، ودليلهم يؤيد أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر غير واجب على جميع الأمة ، بل يكون على كاهل العلماء وحدهم .

---

١ ـ ابن كثير : ١ / ٣٩٠ .

٢ ـ البحر المحيط : ٣ / ٢٠ .

٣ ـ انظر : البيضاوى ٢ / ٣٤ ، وروح المعانى ٤ / ٢١ ، وأحكام القرآن للجصاص ٢ / ٣٥ ، وأحكام القرآن للقرطبى ٤ / ١٦٥ ، والكشاف ٢ / ١٢٢ .

يقول الزمخشرى فى هذا : " لا يصلح إلا لمن علم المعروف والمنكر ، وكيف يترتب الأمر فى إقامته ، وكيف يباشر ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وربما عرف الحكم فى مذهبه ، وجهله فى مذهب آخر ، وقد يغلظ فى موضع اللين ، ويلين فى موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً أو على من الإنكار عليه عبث " <١> .

ويقول عبد القادر عودة : " إن وضع واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على عاتق الجاهل لن يؤدى إلا إلى الأضرار التى يتوقعونها ، لأن الجاهل بطبيعة الحال ، لا يأمر ولا ينهى إلا فيما هو ظاهر لا خلاف فيه ، كالأمر بالصلاة والصيام ، وكذا ينهى عن الفاحشة والسرقة وغير ذلك " <٢> .

ويقول البيضاوى : " إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية ، لأنه لا يصلح له كل أحد ، إذ للمتصدى له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة ، كالعلم بالأحكام ، ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها ، والتمكن من القيام بها <٣>.

ويتبين بذلك أن هذا الواجب لا يلزم إلا القادرين عليه فقط كالعلماء ، لأنه يتطلب كفاءة وخبرة فى الدعوة إلى اللّٰه تعالى ، مع القدرة على التمييز بين ما يصلح منها وما لا يصلح ، وأن يفقه ويعلم ، فإن الجاهل ربما دعا إلى الباطل ، أو أمر بالمنكر ، ونهى عن المعروف ، وربما عرف الحكم فى مذهب وجهله فى آخر ، وقد يغلظ فى موضع اللين ، أو يلين فى موضع الشدة ، أو ينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً فى الباطل ، فثبت أن هذا التكليف متوجه إلى العلماء ، ولا شك أنهم من الأمة " <٤> .

---

١ ـ انظر : الكشاف ١ / ٤٥٢ .

٢ ـ انظر : التشريع الجنائى ١ / ٤٩٥ .

٣ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل / المعروف بتفسير البيضاوى ٢ / ٣٤ (مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ، بيروت) .

٤ ـ انظر : الفخر الرازى ٨ / ١٦٧ .

ونظير هذه الآية الكريمة السابقه قوله تعالى :

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ <١>

فهذا الواجب على سبيل الكفاية ، متى قام به البعض سقط عن الباقين ، أى ليقم بذلك بعضكم ، وهذا يفيد أن الواجب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يجب على البعض دون الكل .

ويقرر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يجب علي كل واحد بعينه ، بل هو على الكفاية ، كما دل عليه القرآن الكريم ، ولما كان الجهاد من تمام ذلك ، كان الجهاد أيضاً من فروض الكفاية <٢> .

ويقول الألوسى : " إن العلماء اتفقوا على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية ، ولم يخالف فى ذلك إلا النّزر اليسير " <٣> .

أما ابن العربى فيقول : إن الآيتين السابقتين <٤> من سورة آل عمران ، دليل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية ، لأن الآية الأولى <٥> توجب وجود طائفة من الأمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

أما الآية الثانية <٦> فتدل على أنه عمل يتعلق بالأمة كلها .

---

١ ـ سورة التوبة : ١٢٢ .
٢ ـ الحسبة فى الإسلام لابن تيمية ٦٦ .
٣ ـ روح المعانى ٤ / ٢١ .
٤ ـ سورة آل عمران : ١٠٤ ، ١١٠ .
٥ ـ سورة آل عمران : ١٠٤ .
٦ ـ سورة آل عمران : ١١٠ .

فعلم من ذلك أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإن كان فرضاً على الأمة كافة ، لكن يسقط عنها إذا قام به بعض أفراد الأمة <١> .

وهذا من باب حمل المطلق على المقيد .

وإذا قال العلماء بأنه واجب ، وأنه فرض عين على سائر الأمة ، فإنه لا يراد به أن كل واحد منهم مكلف به ، سواء كان عالماً أو جاهلاً ، ومطالب بأن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، إنما المقصود منه أن يكون سائر أفراد الأمة الإسلامية مشتغلين به ، بحيث يكون كل فرد مطالباً بأن يعد نفسه لمعرفة الحلال والحرام ، فإذا أنس من نفسه هذه المعرفة ، وأصبح قادراً على التمييز بين الحق والباطل ، صار مكلفاً بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا ما يفيده كلام مؤلف " فواتح الرحموت " <٢> .

ولكن أكثر العلماء يرون أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الأمة كافة ، ولكنه يسقط عنها إذا قام به بعض أفرادها ، ويعللون ذلك القول بأن كل شخص لا يستطيع أن يحمل أعباءه ، فمحال أن يجب على كل فرد ، لكن هذه الحجة داحضة ، لأن حكما من أحكام الشريعة لا يجب على كل أحد إلا إذا كان يستطيع القيام به ويطيقه ، ويقتضى هذا الأصل أن لا يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجباً على الأمة جميعاً ، بل ينبغى أن يجب على من يكون أهلاً له فحسب <٣> .

---

١ ــ أحكام القرآن لابن العربى ٢ / ١٢٢ .

٢ ــ انظر : فواتح الرحموت / عبد العلى الانصارى ١ / ٦٣ .

٣ ــ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر / جلال الدين العمرى : ٦٧ .

كما يرى الإمام الشاطبى وغيره من العلماء :

" أن فرض الكفاية لا يجب على الجماعة بأسرها ، بل إنما يفرض على من يستطيع أداءه ، ويقول " إن الطلب وارد على البعض دون البعض ، كيف كان ، ولكن على من فيه أهلية القيام بذلك الفعل المطلوب ، لا على العموم جميعاً " ‹١› .

ومما يحتج به عندهم الآية الكريمة :

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ‹٢›

فهى تصرح بأن ذلك واجب على طائفة دون الجماعة عامة ‹٣› .

وقد حسم هذه المسألة **الدكتور عبد الله دراز** فى تعليقه على الشاطبى بما يفيد : " أن فرض الكفاية " فى قوله تعالى :

(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) الآية .

ليس معناه أن القادرين هم الذين يجب عليهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دون سواهم ، وإنما معناه أن المتأهلين من العلماء الذين يميزون الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، ملزمون بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أما من سواهم من غير المتأهلين فإن عليهم واجباً آخر تجاه هؤلاء ويتمثل فى تيسير سبيلهم ، وحثهم ومعاونتهم على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإذا لم يؤد

---

١ ـ الموافقات فى اصول الشريعة للشاطبى ١ / ١٧٦ .

٢ ـ سورة آل عمران : ١٠٤ .

٣ ـ الموافقات فى أصول الشريعة للشاطبى ١ / ١٦٧ .

العلماء واجبهم ، ولم يؤد غير العلماء واجبهم فى التعاون معهم ، فإن الجميع يكون آثماً ، ومحاسباً أمام الله تعالى عن تقصيره فيما وجب عليه <١> .

وبهذا الذى قاله دكتور عبد الله دراز يكون موافقاً تمام الموافقة لما نص عليه الشاطبى حيث يقول :

" قد يصح أن يقال : إنه واجب على الجميع على وجه من التجويز ، وهو أن القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة ، فهم مطالبون بها ، فبعضهم قادر عليها مباشرة ، وذلك من كان أهلاً لها ، وأما الباقون ، وإن لم يقدوا عليها ، فإنهم يكونون قادرين على إقامة القادرين ، فمثلاً من كان قادراً على الولاية ، فهو مطالب بإقامتها ، ومن لا يقدر عليها مطالب بأمر آخر ، وهو إقامة القادر عليها ، وإجباره على القيام بها فالقادر إذاً مطالب بإقامة الفرض ، وغير القادر مطالب بتقديم العون والمساعدة لذلك القادر ، إذ لا يتوصل إلى قيام القادر إلا بإقامته ، من باب " ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " .

وبهذا الوجه يرتفع مناط الاختلاف فلا يبقى للمخالفة وجه ظاهر <٢> .

وخلاصة ما قاله الشاطبى :

أنه يجب على الجميع القيام بالأمر بالمعروف والنهى من المنكر ، لأنه فرض عليهم ، ولأن بعضهم قادر على مالا يقدر عليه غيره .

فيجب عليه معاونتهم ومساعدتهم . وقد يكون هناك غير قادر ، فيجب عليه أن يقدم من تكون له الكفاءة ، والقدرة على هذا الواجب ، كما أنه يجب عليه أن يقدم إلى الولاية ، أو الحكم من هو أهل لذلك .

---

١ ـ الموافقات فى أصول الشريعة التعليق الثانى ١ / ١٧٦ .

٢ ـ المصدر السابق ١ / ١٧٨ ، ١٧٩ .

أما **الشيخ محمد عبده** فيرى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عين حتم على كل مسلم كما تدل عليه الآية ‹١› فى الظاهر المتبادر وغيرها من الآيات كقوله تعالى :

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ‹٢›

فلابد للإنسان فى حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا سيما فى أمهات المنكرات المفسدة للاجتماع كالكذب ، والغدر ، والخيانة ، والحسد والغش وغير ذلك .

فهو ليس من فروض الكفاية التى يتواكل فيها الناس كصلاة الجنازة مثلاً‹٣›.

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على هذا القول فرض عين على من يستطيع أداءه كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، ويجب على الجميع التعاون ، وعدم الإهمال أو التقصير فى القيام بهذه المهمة العظيمة ، والصحيح أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مشترطة بالعلم ، فهذه المهمة من الواجب أن يقوم بها العلماء القادرون على أداء واجبهم ، لأن ذلك أنفع للأمة الإسلامية . حتى لا يكثر العبث فى طريق الدعوة إلى الله وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ‹٤›

---

١ ــ سورة آل عمران : ١٠٤ .

٢ ــ سورة المائدة : ٧٩ .

٣ ــ انظر : تفسير المنار ٤ / ٣٤ ــ ٣٨ .

٤ ــ سورة يوسف : ١٠٨ .

أما إذا انتشر المنكر ، وعم الفساد ، ـ والعياذ بالله ـ ولم يتمكن علماء الأمة وحدهم من مواجهة المنكر وإزالته ، انتقل الواجب إلى كل فرد من أفراد الأمة ، بأن يقوموا مع علمائهم فى دفع المنكر وإزالته ، على أن يتقدمهم العلماء ، وعامة الناس تبع لهم ، يشدون من أزرهم ، ويقوون من عزيمتهم ، وذلك حتى لا يهدم صرح الإسلام ، وينتشر الضلال والفساد بين أفراد الأمة ، ويعم العقاب فيهم ، لقوله عليه الصلاة والسلام : " إن النـــاس إذا رأوا الظالم فلـم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه " ‹١› .

وأما قوله عز وجل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ‹٢›

فقــد بين المراد منها **الإمام ابن تيمية رحمه الله** بقوله : " هذه الآية الكريمة لا تقتضى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا نهيا ولا إذنا ، وعلى المؤمنين أداء هذا الواجب بكل إخلاص ، ولا يضرهم ضلالُ غيرهم إذا كانوا هم مهتدين " ‹٣› .

---

١ ـ سنن الترمذى : ٣ / ٣١٦ ، باب نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ، ٤ / ٣٢٢ / أبواب التفسير ، وقال : حديث حسن صحيح ، وانظر : تحفة الأحوذى بشرح الترمذى ٦ / ٣٨٩ / أبواب التفسير ٨ / ٤٢٣ ، وقال فى تحفة الأحوذى : وأخرجه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه .

٢ ـ سورة المائدة : ١٠٥ .

٣ـ مجموع الفتاوى ١٤ / ٤٧٩ .

ويقول **أبو السعود** : " ولا يتوهم أن فيه رخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع استطاعتهما ، كيف لا ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تفى به الطاقة " ‹١› .

ويقول الجصاص : " وليس فى الآية الكريمة دلالة على سقوط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " ‹٢› .

والمحققون من العلماء وغيرهم أفادوا بأن المسلمين إذا فعلوا كل ما كلفوا به ، ومنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإنهم بذلك لا حساب عليهم ، ولا عقاب ولا عتاب ، وإن لم يستجب المأمورون ، بحيث يكون كل منهم على وفق الشريعة الإسلامية ، وقد فعلوا كل ما كلفوا به فلا يضرهم تقصير غيرهم .

كما قال تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ‹٣›

فإذا لم يمتثل المخاطبون فلا عتب على الفاعل لكونه أدى ما عليه ، فإنما عليه الأمر والنهى لا القبول ‹٤› .

ثم إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإن كان من فروض الكفاية ، لكن قد يتعين على المسلم إذا علم من شخص منكراً ، لا يعلم به غيره ، فإنه يجب عليه أن يغير هذا المنكر ، وقد ذكر النووى أمثلة ، من ذلك :

---

١ ـ تفسير أبى السعود المسمَّى " إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " ٣ / ٨٨ .

٢ ـ انظر : أحكام القرآن للجصاص ٢ / ٥٩٢ .

٣ ـ سورة الإسراء : ١٥ .

٤ ـ انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ٢ / ٢٢ ، ٢٣ / وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

من يرى زوجته أو ولده أو غلامه يفعل المنكر ، ففي هذا يتعين عليه أن يغيره ، وليس له أن يقول : مادام التغيير من فروض الكفاية فلا شيء عليَّ ، لأن مثل هذه الحالات مستثنى من الحكم العام ، كما يجب أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى وإن غلب على ظنه أن أمره ونهيه لا يفيد ذلك .

امتثالاً لقول الله سبحانه وتعالى :

وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ <١>

وحسبه أنه حينما يأمر وينهى يكون قد استجاب لما شرعه الله تعالى وأمر به ، وليس مكلفاً بعد ذلك بقبول الناس بالعمل بمقتضى ما يأمر به أو ينهى عنه <٢> .

فالله سبحانه وتعالى يقول :

مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ <٣>

ويقول :

<٤>

والقرآن العظيم يذكرنا بقوم يحاولون منع غيرهم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيقول تعالى :

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ <٥>

---

١ ـ سورة الذاريات : ٥٥ .

٢ ـ شرح النووي على صحيح مسلم ٢ / ٢٣ ، ٢٤ / وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٣ ـ سورة المائدة : ٩٩ .

٤ ـ سورة العنكبوت : ١٨ .

٥ ـ سورة الأعراف ١٦٤ ـ ١٦٦ .

فهؤلاء فرق ثلاث : الفرقة الأولى أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر . والفرقة الثانية سكتت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع عدم ارتكابها للمنكر . والفرقة الثالثة ارتكبت المنكر مما حرم الله عليهم من الصيد يوم السبت ، فصرح القرآن الكريم بنجاة الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ، ولم يذكر حال الفرقة الساكتة ، إما لأنهم اندرجوا مع الذين ظلموا أنفسهم ، أو أن القرآن الكريم سكت عنهم تهويناً لشأنهم (١) .

وكما بين سبحانه وتعالى لنا أن من لا يأمر ولا ينهى يكون كمرتكب المنكر ، ويكون سىء الفعل ، كما بينه فى موضع آخر من القرآن ، وهو قوله عز وجل :

لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ
وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٢)

ففى هذه الآية الكريمة يوبخ الله تعالى علماء اليهود والنصارى ـ الربانيين والأحبار ـ ويذمهم عن تقاعسهم وجبنهم عن أداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وإذا كان هذا شأن بعض أهل الكتاب فشأن المنافقين كذلك ، حيث يقول تعالى فيهم :

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٣)

---

١ ـ انظر : فى ظلال القرآن ٣ / ١٣٨٥ / بتصرف .

٢ ـ سورة المائدة : ٦٣ .

٣ ـ سورة التوبة : ٦٧ .

فهذه صفاتهم الذميمة التى ذمهم الله بها ، عكس المؤمنين الذين مدحهم الله بقوله فيهم :

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ‹١›

فهؤلاء المؤمنون بعضهم أولياء بعض بالنصرة والتأييد، والمعونة والمساعدة فى السراء والضراء ، ووقوف بعضهم إلى جانب البعض الآخر فى الشدائد ، وكذلك يتجهون إلى إعلاء كلمة الله تعالى ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لتحقيق ما أمرهم الله به ، كإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وهذا من أساس الإيمان ‹٢› . ولا يقال : إنه من اللازم أن يكون الآمر الناهى كاملاً فى العلم والعمل ، لأن واجبه الامتثال وإن كان مقصراً فى علمه وعمله بما يأمر به .

وصحيح أن الواجب يحتم عليه أن يلتزم بواجب الأمر والنهى ، وعليه أن يعظ نفسه أولاِ ، ويعمل بموجب الكتاب والسنة المطهرة ، لأنه إن فعل ذلك يستجاب له حينما يأمر غيره وينهاه ‹٣› .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مهمة عظيمة ، لذا نجد أن المجتمعات الإسلامية التى تهتم بهذا الواجب الكبير يستقيم أمرها ، وتصلح أحوالها ، أما التى تهمل هذا الواجب فإن المعاصى تكثر فيها ، وتعمها الآثام والأفعال الشنيعة ، وينتشر

---

١ ـ سورة التوبة : ٧١ .

٢ ـ انظر : فى ظلال القرآن ٣ / ١٦٧٥ .

٣ ـ شرح النووى على صحيح مسلم ٢ / ٢٣ / وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فيها الفساد والضلال ، فإذا حصل ذلك عم عقاب الصالح المستقيم ، والطالح المرتكب للآثام ، لأن من لا يأخذون على يد الظالم يوشك أن يعمهم الله بعقابه ، مصداقاً لقوله عز وجل :

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ <١>

وقال سيد قطب : " وإنه لتحذير شديد ، وتهديد عنيف ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، ويتبعون نهجاً غير نهجه ، ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس ، وتختل فيها الموازين ، وينتكث فيها النظام ، فيختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخبيث ، وتفسد أمور الجماعة وحياتها ، فلا يأمن على نفسه أحد ، ولا يقف عند حده أحد ، ولا يتميز فيها الخير من الشر ، وهى فترة شقاء للجميع ، يصيبهم الله بعذاب أليم فى الدنيا والآخرة جزاء المخالفة عن أمره ، والابتعاد عن نهجه الذى ارتضاه <٢>.

وفى الحديث الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام :

" مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نَجَوْا ونَجوْا جميعاً " <٣> .

---

١ ـ سورة النور : ٦٣ .

٢ ـ فى ظلال القرآن ٤ / ٢٥٣٥ ، ٢٥٣٦ ، بتصرف .

٣ ـ صحيح البخارى شرح فتح البارى ٥ / ١٣٢ / كتاب الشركة / باب هل يُقرع فى القسمة ؟ والاستهام فيه ، و ٥ / ٢٩٢ / كتاب الشهادة / باب القرعة فى المشكلات .

وقال عليه الصلاة والسلام : " والذى نفسى بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ اللّٰه أن يبعث عليكم عقاباً منه فتدعونه فلا يستجيب لكم " ‹١› .

وبناء على ما سبق فإن القادرين والمطيقين لإزالة المنكر مع سلامة العافية ، إذا علموا ظلم وفسوق العاصى وعصيانه ، ولم يكفوه عن الظلم ، بقول أو فعل ، قارب أن يعمهم اللّٰه تعالى بعقاب منه ، إما فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، أو فيهما معاً ، لتضييع فرض اللّٰه تعالى بلا عذر ، ولذا فالواجب على الدعاة الساعين لتحصيل مرضاة اللّٰه أن تكون لهم العناية العظيمة بهذا الواجب الذى يعود به النفع العظيم والخير الكبير على المجتمع الإسلامى ، إذا تحققت الدعوة إلى اللّٰه عز وجل بإخلاص وتعاون الجميع لتحكيم شريعة اللّٰه تعالى ، ونشر دينه الذى ارتضاه لعباده ، ويجب عليهم ألا يهابوا ، ولا ينزعجوا ممن ينكر عليهم ، لأنه سبحانه وتعالى وعد جنوده بالنصر والتأييد كما يشير إليه قوله :

وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ‹٢›

وهذا وعد عظيم ، ولا يخلف اللّٰه وعده .

وعلى الدعاة أن يلاحظوا أن الاختبار والابتلاء لا حق بهم على قدر إصرارهم وتمسكهم بالدعوة إلى دين اللّٰه الحنيف الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأن ما نالهم من الأذى دليل على قوة إيمانهم ، فعليهم بالصبر والثبات ، وتحمل ما يقع على عاتقهم من الأذى والمحن ‹٣› .

---

١ ـ سنن الترمذى : ٣ / ٣١٦ ، ٣١٧ / أبواب الفتن / باب ما جاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقال: هذا حديث حسن . وانظر : تحفة الأحوذى بشرح الترمذى ٦ / ٣٩١ .

وذكر المنذرى هذا الحديث فى " الترغيب والترهيب " ، ونقل تحسين الترمذى وأقره ، ورواه البزاز والطبرانى فى الأوسط .

٢ ـ سورة العنكبوت : ٦٩ .

٣ ـ انظر : فى ظلال القرآن ٣ / ١٦١٣ .

والقرآن العظيم يصور لنا ذلك فيقول تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ
وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ ‹١›

أجل سيواجه الدعاة إلى الله عز وجل حتماً العداء والاضطهاد ، لأن أعداء الإسلام يريدون أن يكون المسلمون بعيدين عن هدى الله ، وأن يتبعوا أهواءهم ، فيفعلوا كل ما يشتهون من المنكر ، ولذلك فالصراع قائم بين الحق والباطل ، ولكن الله تعالى مكـــن المؤمنين فى الأرض لإقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ
وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ ‹٢›

وليعلم دعاة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن المثوبة من الله تعالى على قدر الجهد والمشقة ، وكذا يجب عليهم أن ينتبهوا إلى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يـترك من أجل قريب أو صديق ، ولا يداهن فيه بكلام حسن للحاكم أو المحكوم عليه ، ولا يخاف الداعية على منصب أو جاه ، أو منزلة عند سلطان أو عند الناس ، عند أمره أو نهيه ، فمن واجبهم نصحهم وإرشادهم إلى الخير ، وإلى طريق الحق ، وكذلك واجب المأمورين أن يتقبلوا النصح والإرشاد ، لأنه يخلصهم من هوى النفس وغواية الشيطان ، ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم فى دنياهم وآخرتهم ، وينجيِّهم من الضرر المحقق الذى يلحقهم ‹٣› .

---

١ ـ سورة العنكبوت : ١ ـ ٣ .

٢ ـ سورة الحج : ٤١ .

٣ ـ انظر : هامش صحيح مسلم بشرح النووى ٢ / ٢٤ / وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى ظلال القرآن ٣ / ١٦١٣ .

وينبغى للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب ، وأقرب إلى أن يكون الأمر مدعاة إلى الهدايه والاستقامة ، لأن للرفق ثمرات حسنة ، أما الغلظة فتؤدى إلى عكس المراد ، ولذلك حينما ألزم الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام . بالذهاب إلى فرعون الطاغية الجبار ، أمرهما أن يخاطباه بالرفق واللين ، عسى أن يكون الأمر هذا مدعاة لهدايته وإرشاده ، فقال تعالى :

اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى <١>

وإذا كان سبحانه وتعالى قد أمر موسى وهارون عليهما السلام بالقول اللين ، والتلطف فى الخطاب ، فإن غيرهما ليس بأفضل من موسى وهارون ، والموجه إليه الخطاب ليس بأخبث من فرعون <٢> .

وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانهُ ، ولا ينزع من شىء إلا شانه " <٣> .

مما سبق يتبين لنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . واجب على المسلمين ، وأخص منهم الداعين إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظه الحسنة ، وبخلافه يحدث الضلال وينتشر الفساد و يحجب الناس عن قبول الحق ولا يتحقق المراد ، ويجب التسليم بأن واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الأساس الذى بنيت عليه الأمة الإسلامية ، وهو أصل الدين وعز المسلمين <٤> .

---

١ ـ سورة طه : ٤٣ ، ٤٤ .

٢ ـ أصول الدعوة / لعبد الكريم زيدان ، مكتبة المنار الإسلامى/ ص ٤٦٢ .

٣ ـ صحيح مسلم ٤ / ٢٠٠٤ / كتاب البر والصلة والآدب / باب فضل الرفق .

٤ ـ انظر : أحكام القرآن / لابن العربى ١ / ٢٩٣ ، بتصرف .

ولا شك أن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر هو مهمة نبوية ، وبها تقوم تعاليم الإسلام الحنيف ، وتشترك الأمة الإسلامية فيه مع رسولها محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول سبحانه وتعالى :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ‹١›

وقال تعالى مادحاً المهتدين بهدى النبى صلى الله عليه وسلم :

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ‹٢›

فالفلاح عنوان الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، كما قال تعالى :

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ‹٣›

---

١ ــ سورة آل عمران : ١١٠ .

٢ ــ سورة الأعراف : ١٥٧ .

٣ ــ سورة آل عمران : ١٠٤ .

يقول الفخر الرازى : " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله تعالى صفات حاصلة فى سائر الأمم " <١> .

ويقول القرطبى : " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كانا واجبين فى الأمم المتقدمة ، وهو فائدة الرسالة والخلافة والنبوة " <٢> .

أما سيف الدين الآمدى فيقول : " ما من أمة إلا وقد أمرت بالمعروف كاتباع أنبيائهم وشرائعهم ، ونهت عن المنكر كنهيهم عن الإلحاد وتكذيب أنبيائهم <٣> .

أما حكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا ترتب عليه ضرر فأبادر بالقول بأن واجب المؤمنين القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يخافون فى سبيل ذلك لوم لائم ، ولا عتب عاتب ، ولا غضب غاضب ، وذلك ليس من الضرر كما قال تعالى :

﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴾ <٤>

يقول ابن كثير رحمه الله :

" لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله تعالى ، وإقامة حدوده ، وقتال أعدائه ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك رادّ ، ولا يصدهم عنه صادّ ، ولا يصرفهم عنه لوم لائم <٥> .

---

١ ـ التفسير الكبير ٣ / ٣٧ .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ١ / ٤٧ .

٣ ـ الإحكام فى أصول الأحكام ١ / ٣٠٨ .

٤ ـ سورة المائدة : ٥٤ .

٥ ـ انظر : ابن كثير ٢ / ٧٠ .

وجاء فى الصحيح : " عن عبادة بن الصامت قال : " بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقومَ ، أو نقول بالحقِّ حيثما كنا ولا نخاف فى الله لومة لائم " <١> .

ويقول القرطبى : " أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر : أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه ، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذى لا يتعدى إلى الأذى ، فإن ذلك لا ينبغى أن يمنعه من تغييره " <٢> .

ويقول الغزالى : " لو تُرِكَت الحِسْبَةُ <٣> بلوم لائم ، أو باغتياب فاسق أو شتمه ، أو تعنيفه ، أو سقوط منزلة من قلبه أو قلب أمثاله لم يك للحِسْبَةِ وجوب أصلاً إذ لا تنفك الحِسْبَةُ عنه وإذا خاف من يباشر الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر أن يصيبه الأذى من ذلك ، أو يتعدى الأذى إلى المختصين به فليتركها ، لأن إيذاء المسلمين محذور ، كما أن السكوت عن المنكر محذور أيضاً <٤> .

---

١ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٣ / ١٩٢ / كتاب الأحكام / باب كيف يبايع الإمام الناس ؟ .

قوله " فى المنشط والمكره " بفتح الميم المعجمه وسكون النون بينهما أى فى حالة نشاطنا وفى الحالة التى نكون فيها عاجزين عن العمل بما نؤمر به / فتح البارى ١٣ / ٧ .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ٤ / ٤٨ .

٣ ـ (الحِسْبَة) مصدر احتسابك الأجر على الله ، تقول : فعلته حِسْبَة .

والاحتساب طلب الاجر ، والاسم : الحِسْبَة ـ بالكسر ـ وهو الأجر .

والحِسْبَة : اسم من الاحتساب ، كالعدة من الاعتداد ، والاحتساب فى الاعمال الصالحات ، وعند المكروهات : هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها ، طلباً للثواب المرجو منها . (اللسان " حسب ") ١ / ٣١٠ ـ ٣١٧ .

٤ ـ إحياء علوم الدين : للغزالى ٢ / ٢٢٣ .

وللمنكر درجات قد قسمها ابن القيم رحمه الله وهى كما يلى :

١ ـ أن يزول المنكر ، ويخلف ضده ، وحكمه مشروع .

٢ ـ أن يقل المنكر ، وإن لم يزل بجملته ، وحكمه مشروع .

٣ ـ أن يخلف المنكر ما هو مثله ، ويكون هذا موضع اجتهاد .

٤ ـ أن يخلف المنكر ما هو أشد ضرراً منه ، وحكمه حرام .

ثم ضرب بعض الأمثله فقال :

إذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشِّطْرَنج <١> كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة ، إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، كالرمى ، وسباق الخيل ونحو ذلك .

وكذا إذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب ، أو سماع مكاء وتصدية <٢> ، فإن نقلتهم إلي طاعة الله فهو المراد ، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم إلي ما هو أعظم من ذلك <٣> .

---

١ ـ الشطرنج : ـ بكسر الشين ، وسكون الطاء ، وفتح الراء ، وسكون النون ـ لعبة هندية تلعب على رقعة ذات أربعة وستين مربعاً ، وتمثل دولتين متحاربتين باثنتين وثلاثين قطعة ، تمثل الملكين والوزيرين والخيالة والقلاع والفيلة والجنود .

(المعجم الوسيط ـ شطر) ١ / ٤٨٢ .

٢ ـ المكاء والتصدية : التصغير والتصفيق ، قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون (الطبرى ١٣ / ٥٢٤) " المحقق " .

٣ ـ إعلام الموقعين ٣ / ٤ ، ٥ .

ثم **يروى ابن القيم** ما سمعه من شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول : مَرَرْتُ أنا وبعض أصحابى فى زمن التتار ‹١› بقوم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي ، فأنكرت عليه ذلك ، وقلت له : إنما حرم اللّٰه الخمر ، لأنها تصد عن ذكر اللّٰه وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفس ، وسبى الذرية ، وأخذ الأموال ، فدعهم ‹٢› .

إن موقف **ابن تيمية** يُعد منهجاً سديداً فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنه نظر إلى المفاسد التى تترتب على إنكار الرجل ، فرأى أن صرف هؤلاء عن منكرهم يؤدى إلى الإضرار بمصلحة المسلمين وانتهاك حرماتهم ، فمنع الرجل الذى أنكر عليهم ذلك المنكر، وذلك لأنه قد يؤدى إلى ضرر أكثر بالمسلمين .

وأما إذا تعارضت المصالح والمفاسد فيجب الترجيح بينها ، مثلاً :

أ ـ إن حصلت مصلحة أعظم من المفسدة ، وجب الأمر والنهى عليه .

ب ـ أما إذا كانت المفسدة أعظم من المصلحة ، فلا يجب عليه الأمر والنهى ، بل قد يحرم .

---

١ ـ التَّتار (أو التَّتر) اسم شعب يختلف مدلوله باختلاف العصور ، وأطلق ابن الأثير فى " الكامل " هذا الاسم على أسلاف جنكيز خان . ويستدل من الوثائق الكثيرة المحفوظة فى المكتبة العامة فى لينتجراد بروسيا أن الشعوب التى تتحدث بالتركية فى القديم لم يكن يطلق عليهم العثمانيون والروس اسم (تتر) فحسب ، بل كانوا يطلقون هم على أنفسهم أيضا اسم (التتر) وقد ذاع اليوم استعمال اسم (تتر) ويوجد منذ سنة ١٩٢٠م جمهورية مستقلة استقلالاً ذاتياً ، هى جمهورية الاتحاد السوفيتى الاشتراكى التترى ، وعاصمتها قازان .

(دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ٤ / ٥٧٦) .

٢ ـ إعلام الموقعين ٣ / ٤ ، ٥ .

جـ ـ ولكن إذا حصل التساوى والتكافؤ بين المعروف والمنكر ، لم يأمر بالمعروف ، ولم ينه عن المنكر ، لأن درء المفاسد أولى من جلب المنافع .

د ـ وأما إذا اختلط المعروف بالمنكر ، فإنه يميز المعروف عن المنكر ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر مطلقاً ، بحيث لا يتضمن الأمر بالمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول منكر فوقه ، وكذا لا يتضمن النهى عن المنكر حصول ما هو أشد منه ، أو فوات معروف أكبر منه (١) .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما ، لأنه تارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهى ، وتارة لا يصلح أمر ولا نهى حيث كان المعروف والمنكر متلازمين ، وذلك فى الأمور المعينة الواقعة .

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتى يتبين له الحق ، فلا يقوم على الطاعة إلا بعلم ونية ، وإذا تركها كان عاصياً .

فترك الواجب معصية ، وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية (٢) .

لأن من لم يغير المنكر عند رؤيته أو علمه به يكون من الآثمين ، مصداق ذلك أن الله سبحانه وتعالى ذم بنى اسرائيل وأبعدهم عن رحمته ، لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، كما أشار إليه قوله تعالى : لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (٣)

١ ـ انظر : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر / لابن تيمية ٣٣ ، ٣٤ / تحقيق محمد السيد الجليند ، وأصول الدعوة / لعبد الكريم زيدان ٤٦٢ ـ ٤٦٤ .

٢ ـ المصدران السابقان ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

٣ ـ سورة المائدة : ٧٨ ، ٧٩ .

وفى الآية الكريمة دليل أن من لم يقم بواجب إزالة المنكر يقع عليه العذاب لا محالة ، بسبب السكوت عن المنكر المنتشر .

وقـد **قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه** :" يا أيها الناس إنكم تقرأون " هذه الآية :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ <١>

وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه " <٢> .

قال ابن كثير فى تفسير الآية الكريمة : يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ، ومخبراً أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس ، سواء كان منه قريباً أو بعيداً ، أى يجازى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وليس فى الآية دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذا كان فعل ذلك ممكناً <٣> .

وأما المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه" . فهو أنه إذا لم يمنع الظالم عن ظلمه مع القدرة والاستطاعة على منعه من الظلم والفساد ، يوشك ويتقارب أن يعمهم الله بعقاب منه ، إما فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معاً ، لتضييع فرض الله تعالى بلا عذر <٤> .

---

١ ـ سورة المائدة : ١٠٥ .

٢ ـ سنن الترمذى ٣ / ٣١٦ / أبواب الفتن / باب ما جاء فى نزول العذاب إذا لم يغيروا المنكر ٤ / ٢٢٢ / أبواب التفسير . وقال : حسن صحيح ، وانظر : تحفة الأحوذى بشرح الترمذى ٦ / ٣٨٩ ، وأخرجه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، ٨ / ٤٢٣ .

٣ ـ ابن كثير ٢ / ١٠٩ .

٤ ـ تحفه الأحوذى بشرح الترمذى ٦ / ٣٨٩ .

أما القرطبى فيقول : مفسراً الآية الكريمة <١> : إن الخطاب فيها لجميع المؤمنين ، أى عليكم أهل دينكم ، فكأنه قال : ليأمر بعضكم بعضاً ، ولْيَنْه بعضكم بعضاً .

وهو دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يضركم ضلال المبتعدين عن الحق ، بعد الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر <٢> .

وليس معنى الآية ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذ ليس من الاهتداء تركهما مع القدرة عليهما ، بل ذلك فيه الضلال الذى أشارت إليه الآية الكريمة من قوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ <٣>

فلا يتوهم البعض أن الرخصة فى تركهما مع الاستطاعة ، ولكن من جملة الاهتداء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حسبما تفى الطاقة <٤> .

فلا يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا إذا حصل ما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك حينما سأله : " متى ندع الأئتمار بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ قال :" إذا ظهر فيكم ما ظهر فى بنى إسرائيل ، إذا كانت الفاحشه فى

---

١ ـ سورة المائدة : ١٠٥ .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٣٤٤ .

٣ ـ سورة المائدة : ١٠٥ .

٤ ـ انظر : تفسير أبى السعود ٣ / ٨٧ ، ٨٨ ، ومدارج السالكين / باب القربة / قول الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ...) ٣ / ١٩٨ ، ١٩٩ ، وتذكرة الدعاة للبهى الخولى / ص ٢٢٢ .

كباركم <١> ، والملك فى صغاركم <٢> ، والعلم فى رذالتكم " <٣> .

ففى مثل هذه الأحوال يباح ترك القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا ذنب ولا حرج فى تركهما .

وكذلك إذا لم يقبل الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واتبعوا أهواءهم ، وآراءهم ومعتقداتهم الباطلة ، فالآمر الناهى فى سعة من تركهم <٤> .

لقوله عز وجل :

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ <٥>

وقد أفاد العلماء أن المسلمين إذا فعلوا كل ما كلفوا به ، ومنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا يضرهم تقصير غيرهم ، وإن لم يستجب المأمورون بذلك . كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ <٦>

---

١ ـ قوله : (إذا كانت الفاحشه فى كباركم) أى أن الفاحشة تنتشر وتفشو إلى أن توجد أيضاً فى الكبار والفاحشة كل ما يشتد من الذنوب والمعاصى وكثيراً ما ترد بمعنى الزنى ، وهى كل خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال .

٢ ـ قوله:(الملك فى صغاركم) أى إن الملك يكون فى صغار الناس سناً ، غير مجربين للأمور أو ضعافهم عقلاً .

٣ ـ قوله : (والعلم فى رذالتكم) أى إذا كان العلم فى الفساق .

مسند الإمام أحمد ٣ / ١٨٧ ، وبنحوه فى مجمع الزوائد ٧ / ٢٨٦ / كتاب الفتن / باب فيمن داهن وسكت عن الحق وأهل زمانه ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه عمار بن سيف ووثقه العجلى وغيره ، وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات وفى بعضهم خلاف ، وذكره ابن ماجه فى سنن ٢ / ١٣٣١ / كتاب الفتن .

وقال فؤاد عبد الباقى : فى الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات .

٤ ـ أحكام القرآن / للجصاص ٢ / ٣٨ .

٥ ـ سورة الشورى : ٤٨ .

٦ ـ سورة المائدة : ٩٩ .

ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لكونه لا يفيد فى ظنه بل يجب عليه فعله ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، لأنه استجاب لهذا الواجب المشروع ، ولكنه ليس مكلفاً بقبول الناس بالعمل بهذا الأمر أو النهى ‹١› .

والله سبحانه وتعالى يقول :

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ‹٢›

ويقول عز من قائل :

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ‹٣›

وحينما يأمر وينهى يكون قد استجاب لأمر الله تعالى ، وليس مكلفاً بقبول الناس بالعمل بوجوب ما يأمرهم به ، أو ينهاهم عنه ، لقوله تعالى :

وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ
وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ‹٤›

يقول سيد قطب : " على الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها ، وأن تتناصح وتتواصى وأن تهتدى بهدى الله الذى جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها ، ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئاً أن يضل الناس حولها مادامت هى قائمة على هدى الله .

---

١ ـ انظر : هامش صحيح مسلم بشرح النووى ٢ / ٢٣ / وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٢ ـ سورة الأعلى : ٩ ـ ١١ .

٣ ـ سورة الذاريات : ٥٥ .

٤ ـ سورة العنكبوت : ١٨ .

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها فى دعوة الناس كلهم إلى الهدى ، والهدى هو دينها وشريعتها ونظامها .

فإذا هى أقامت نظامها فى الأرض بقى عليها أن تدعوا الناس كافة ، وأن تحاول هدايتهم ، وبقى عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم ، ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التى منها أخرجتهم .

وكون الأمة المسلمة مسئولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت ، لا يعنى أنها غير محاسبة على التقصير فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما بينها أولاً ، ثم فى الأرض جميعاً .

وأول المعروف إعلان الإسلام لله وتحكيم شريعته ، وأول المنكر الجاهلية والاعتداء عل سلطان الله وشريعته .

وليس المراد أن المؤمن غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذا اهتدى هو بذاته ، كما لا يراد أن الأمة المسلمة غير مكلفة بإقامة شريعة الله فى الأرض ، إذا اهتدت بذاتها ، وضل الناس حولها .

فهذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة المسلمة كفاح الشر ، ومقاومة الضلال والفساد ، ومحاربة الطغيان والاعتداء على ألوهية الله ، واغتصاب سلطانه ، وتعبيد الناس لشريعة غير شريعة الإسلام ، وهو المنكر الذى لا ينفع الفرد ولا يمكن الأمة المسلمة من الهداية ، وهذا المنكر قائم (١) .

---

١ ـ فى ظلال القرآن ٢ / ٩٩٢ ، بتصرف يسير .

قال عليه الصلاة والسلام : " يُجاءُ بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتابه فى النار <١> ، فيدورُ كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أى فلان ما شأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولاآتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه <٢> .

والنبى صلى الله عليه وسلم أوضح معنى الآية السابقة <٣> كما جاء فى رواية أبى ثعلبة الخشنى قال : سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم **فقال** : " بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شُحًّا مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً الصبرُ فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم <٤> .

---

١ ـ الأقتاب جمع قِتْب بكسر القاف وسكون المثناة بعدها موحدة ، هى الأمعاء ، واندلاقها خروجها بسرعة ، يقال : اندلق السيف من غمده إذا خرج من غير أن يسله أحد / فتح البارى شرح صحيح البخارى ١٣ / ٥٢ / كتاب الفتن / باب الفتنة التى تموج كموج البحر .

٢ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٦ / ٣٣١ / كتاب بدء الخلق / باب صفة النار وأنها مخلوقة ، ١٣ / ٤٧ / كتاب الفتن / باب الفتنة تموج كموج البحر .

٣ ـ سورة المائدة : ١٠٥ ، وهى قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسكم لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) الآية .

٤ ـ سنن الترمذى ٤ / ٣٢٢ / أبواب التفسير ، وقال عنه : حسن غريب ، وأخرجه أبو داود ٤ / ١٢٣ / كتاب الملاحم / باب الأمر والنهى ، وسنن ابن ماجه ٢ / ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، وانظر : تحفه الأحوذى شرح الترمذى ٨ / ٤٢٥ ، ٤٢٦ / أبواب التفسير ، وانظر : المستدرك على الصحيحين ٤ / ٣٢٣ .
وقال : حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

أما إذا لم يجد نفعاً للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لما يترتب على ذلك من وقوع فتنة وذلك فى الزمان الذى يتعذر فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا مناص من الإنكار بالقلب ، والاشتغال بإصلاح النفس ، كما قال صلى اللّٰه عليه وَسلم : " يوشك أن يأتى زمان يغربل الناس فيه غربلة تبقى حُثَالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا ، وشبك بين أصابعه ، فقالوا : وكيف بنا يارسول اللّٰه ؟ قال : تأخذون ما تعرفون ، وتذرون ما تنكرون ، وتقبلون على أمر خاصتكم ، وتذرون أمر عامتكم <١> .

---

١ ـ المستدرك على الصحيحين ٤ / ٤٣٥ / كتاب الفتن والملاحم وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

والحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الفتن / باب التثبت فى الفتنة ٢ / ١٣٠٧ ، وفى سنن أبى داود ٤ / ١٢٣ ، ١٢٤ / كتاب الملاحم / باب الأمر والنهى .

قال أبو داود : هكذا روى عن عبد اللّٰه بن عمر وعن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم من غير وجه .

قوله : " يغربل الناس فيه غربلة تبقى حُثَالة من الناس قد مرجت عهودهم " . أى يذهب بخيارهم ويبقى أراذلهم ، كما يفعل من يغربل الطعام بالغربال ، ويجوز أن تكون من الغربلة وهى القتل / سنن ابن ماجه ٢ / ١٣٠٧ / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى ، وقوله : (الحثالة) : الردىء من كل شىء والمراد أراذلهم .

قوله : (مرجت) بكسر الراء ، أى اختلفت وفسدت .

قوله : (على أمر خاصتكم) أى من يختص بكم من الأهل والخدم ، أو على إصلاح الأحوال المختصة بأنفسكم . انظر : سنن أبى داود ٥ / ٥١٢ ، ٥١٣ / تحقيق عزت عبيد الدعاس ، وعادل السيد . / وسنن ابن ماجه ٢ / ١٣٠٧ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

المجتمع الإسلامي كما يصوره الفصل الرابع

يترتب على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منافع جمة تعود على المجتمع الإسلامى ، كما يترتب على تركهما مضار كثيرة تؤدى إلى تدهور المجتمع الإسلامى وهلاكه .

ومما تقدم يتبين لنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أقوى أسباب استقرار المجتمع الإسلامى وسعادته وفلاحه وفوزه ونجاحه ، لأنهما يعملان على نشر كل الفضائل ، ويمحوان الرذائل والمفاسد ، وهما من أهم المقاصد التى جاء بها الإسلام وحث على الالتزام بها ، ولذا يجب القيام بهما على الوجه المشروع من العلم والرفق والصبر والاستطاعة وغير ذلك .

وإذا أخل بهذا الواجب المشروع أثم الجميع ، وابتعدوا عن تعاليم الإسلام . وبذلك يتبين أن من أسباب استقرار المجتمع الإسلامى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنه من أبرز الخطوط فى الدعوة الإسلامية ، وفيهما إصلاح الأمة الإسلامية فى الدنيا والآخرة .

وقد حث سبحانه وتعالى عباده على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكذلك السنة المطهرة ، لما لهما من أثر بين فى إصلاح الأفراد والجماعات ، وقد رأينا أن المجتمعات التى تهتم بها تستقيم أمورها ، وتنصلح أحوالها ، أما الأخرى التى تهمل هذا الواجب ، فإن المعاصى والآثام تنتشر فيها وتعمها ، ويسارع إليها الفساد والدمار ، لأن عقاب الله تعالى يشمل الصالح والطالح ، ولا ينجو منه أحد ، لأنه أهمل واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى هو من أقوى أسباب استقرار المجتمع الإسلامى وسعادته وفلاحه ، وفوزه ونجاحه ، ولأنهما يعملان على نشر كل الفضائل ويقمعان كل الرذائل .

الباب الثاني

السمع والطاعة والحذر من أهل الكتاب

الفصل الأول : طاعة الله ورسوله واجبتان .

الفصل الثاني : طاعة أولي الأمر واجبة في غير معصية .

الفصل الثالث : صور من غدر اليهود والنصارى .

الفصل الأول

طاعة الله وطاعة رسوله واجبتان

إن السمع والطاعة شعبتان من شعب الإيمان ، ومبدآن من مبادىء الإسلام ، وفيها صلاح المجتمع الإسلامى في الدين والدنيا والآخرة ، وطاعة اللّٰه سبحانه وتعالى واجبة على جميع خلقه ، وهي من أكبر مظاهر العبودية له ، لأنها تربط المخلوق بخالقه ، وتحصل للمؤمنين رضا اللّٰه ورضوانه ، فيسعدون في دنياهم وأخرتهم .

أما تعريف كل من السمع والطاعة :

فالسمع : حِسُّ الأذن ، وهو قوة في الأذن تدرك بها الأصوات .

وقد يراد به القبول والعمل بما يُسمع ، لأن الإنسان إذا لم يَقبل ويَعمل فهو بمنزلة من لم يسمع . ‹١›

ومنه قوله تعالى :

إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ‹٢›

أى ما تُسمع إلا من يؤمن بها .

وكذلك قولنا : في الصلاة بعد الرفع من الركوع : " سمع اللّٰه لمن حمده " معناه : أجاب حمده وتقبله .

ومنه الحديث : (اللهم إنى أعوذ بك من دعاء لا يسمع) ‹٣› أى لا يستجاب ولا يعتدّ به ، فكأنه غير مسموع .

وحديث أبى أمَامة قال : " قيل : يارسول اللّٰه ، أىُّ الدعاءِ أسمع ؟

١ ـ اللسان (سمع) ٨ / ١٦٢ ـ ١٦٨ ، وبصائر ذوى التميز ٣ / ٢٥٧ .

٢ ـ سورة النمل : ٨١ .

٣ ـ سنن الترمذى ٥ / ١٨١ / أبواب الدعاء / وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه / وانظر : تحفه الأحوذى بشرح سنن الترمذى ٩ / ٤٥٣ / وانظر : سنن ابن ماجه ١/٩٢ / باب الانتفاع بالعلم والعمل به .

قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلاة المكتوبة " ‹١› .

ومعناه : أيُّ الساعات أوفق لاستماع الدعاء فيه ، وأولى بالاستجابة . ‹٢›

ويُعَبَّر بالسمع عن الأُذُن ، نحو قوله تعالى :

خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ‹٣›

ويعبر به عن الفهم والطاعة ، كما تقول : اسمعْ ما أقول لك ، ولَمْ تَسْمع ما قلتُ ، أى لم تفهم .

ومنه قوله تعالى :

وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ‹٤›

أى فهمنا .

وقوله :

قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ‹٥›

أى فهمنا ولم نأتمر لك .

وقوله :

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ‹٦›

أى قالوا فهمنا ، وهم لا يعملون بموجبه ، وإذا لم يعملوا بموجبه فهم في حكم من لم يسمعوا . ‹٧›

---

١ ـ سنن الترمذى ٥/١٨٨/أبواب الدعاء/ وقال : حديث حسن / وانظر : تحفة الأحوذى بشرح الترمذى ٩/٤٧١ ، ٤٧٢ .

٢ ـ انظر : اللسان (سمع) ٨ / ١٦٢ ـ ١٦٨ ، وبصائر ذوى التمييز ٣ / ٢٥٧ .

٣ ـ سورة البقرة : ٧ .

٤ ـ سورةالبقرة : ٢٨٥ ، والنساء : ٤٦ .

٥ ـ سورة البقرة : ٩٣ ، والنساء : ٤٦ .

٦ ـ سورة الأنفال : ٢١ .

٧ ـ انظر : اللسان (سمع) ٨ / ١٦٢ ـ ١٦٨ ،/ ومفردات الراغب (سمع) ٢٤٨ / وبصائـــر ذوى التمييز ٣ / ٢٥٧ .

أما الطاعة :

فهى الانقياد والائتمار ، والطَّوْعُ كذلك ، وضده : الكَرْه (بفتح فسكون) ومنه قوله تعالى :

وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ‹١›

وقوله :

ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ‹٢›

والطاعة مثل الطَّوْع وأكثر ما تقال في الائتمار لما أُمر والارتِسام فيما رُسِم .

قال تعالى :

وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ ‹٣›

أى أطيعوا .

وقال :

طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ ‹٤›

أى أطيعوا . وقد طاع له يَطُوعُ ، وأطاعَهُ يُطِيعُهُ .

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ‹٥›

---

١ ـ سورة آل عمران : ٨٣ .

٢ ـ سورة فصلت : ١١ .

٣ ـ سورة النساء : ٨١ .

٤ ـ سورة محمد : ٢١ .

٥ ـ سورة النساء : ٥٩ .

ومن الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : " لا طاعة في معصية ، إنما الطاعة في المعروف " <١> أى طاعة ولاة الأمر لا تجب إذا أمَروا بما فيه معصية ، كالقتل ، أو الظلم .

والطاعة لا تسلم لصاحبها ولا تخلص إذا كانت مشوبة بالمعصية ، وإنما تصلح الطاعة وتخلص مع اجتناب المعاصى ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحَبَّ وكَرِه ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " <٢> .

والسمع والطاعة واجبان لله ـ عز وجل ـ على جميع الخلق لأنه تعالى ما خلق الخلق إلا للعبادة ، الجامعة لمعرفته ، والإنابة إليه ، ومحبته والإخلاص له ، فبذكره تعالى تطمئن القلوب ، وبرؤيته في الآخرة تَقَرُّ العيون .

قال تعالى :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ <٣>

أى خلقهم مُعَدِّين ليعبدوا الله ، فمن حقه أن يُعْبد ويُوحَّد ويطاع ، لأنه المُوجِد من العدم إلى الوجود ، والخالق والرزاق والمحيى والمميت والقادر والقاهر <٤> .

---

١ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٣ / ٢٣٣ / كتاب أخبار الآحاد .

٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووى ١٢ / ٢٢٦ / وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية .

٣ ـ سورة الذاريات : ٥٦ .

٤ ـ انظر : جامع البيان ٢٧/ ٨ (بتحقيق : محمود محمد شاكر / وأحمد شاكر) . والبحر المحيط ١٤٢/٨.

وجميع الخلق مطالبون بإخلاص العبودية له ، والاستعانة به دون سواه حيث يقول سبحانه وتعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ‹١›

ويرى **الشنقيطى** أن اللّه تعالى أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى " لا إله إلا اللّه " ، لأن معناها مركب من أمرين : نفى وإثبات ، فالنفى خلع جميع المعبودات غير اللّه في جميع أنواع العبادات .

أما الإثبات : فهو إفراد رب السموات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع .

فمعنى " إياك نستعين " أى لا نطلب العون إلا منك وحدك ، لأن الأمر كله بيدك . ‹٢›

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله** :" الآية الكريمة تشير إلى توحيد اللّه ، ووجوب إفراده بالعبادة ، والاستعانة به على العبادة وغيرها .

" فإذا علم أن العبد لابد له في كل وقت وحال من مُنْتَهىً يطلبه هو إلهه ، ومنتهىً يطلب منه هو مستعانه ، وذلك هو صَمَدَه الذي يَصْمد إليه في استعانته وعبادته ، تبين أن قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ، كلام جامع محيط أولا وآخرا ، لا يخرج عنه شيء " .

إلى أن قال رحمه اللّه : " والعبد مفتقر دائماً إلى التوكل على اللّه ، والاستعانة به ، كما هو مفتقر إلى عبادته ، فلابد أن يشهد دائماً فقره إلى اللّه ، وحاجته في أن يكون معبوداً له ، وأن يكون معينا له ؛ فلا حول ولا قوة إلا باللّه ، ولا ملجأ من اللّه إلا إليه " ‹٣› .

---

١ ـ سورة الفاتحة : ٥ .

٢ ـ انظر : أضواء البيان ١ / ٣٤ ، ٣٥ .

٣ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية ١ / ٥٦ .

ثم استطرد رحمه الله ، فذكر أن تعلق العبد بما سوى الله مَضرة عليه إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله ، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته أضره وأهلكه ؛ وكذلك من النكاح واللباس ؛ وإن أحب شيئاً حبا تاماً بحيث يُخَالِلهُ فلابد أن يسأمه ؛ أو يفارقه .

واعلم أن كل من أحب شيئاً لغير الله فلابد أن يضره محبوبه ، ويكون سبباً لعذابه ‹١› .

كما قال تعالى :

أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ‹٢›

وكما قال :

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ‹٣›

وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق ؛ فلما قال : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ، كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته ، وكان في عبادة ما سواه ؛ والاستعانة بما سواه مضرته وهلاكه وفساده ، كما قال تعالى : أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ‹٤›

---

١ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية ١ / ٢٨ .

٢ ـ سورة الفرقان : ٤٣ .

٣ ـ سورة مريم : ٨١ ، ٨٢ .

٤ ـ سورة الملك : ٢٠ ، ٢١ .

وإن لله عز وجل حقوقاً على عباده كثيرة ، لا يستحقها سواه ، أليس هو الله رب العالمين ، وقد أنشأهم من العدم إلى الوجود ، ورعاهم أجنة في بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، ثم رزقهم من الطيبات ، وسَخَّر لهم الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، وآتاهم من كل ما سألوه ، وسخر لهم ما في الأرض جميعاً ، وأرسل الرسل إليهم مبشرين ومنذرين ليعلموهم الكتاب ويرشدوهم إلى كل ما فيه صلاحهم في دنياهم وآخرتهم ، وقد أنزل معهم الكتاب الذي فيه النور والهداية والخير ... فإذا كان الأمر كذلك فمن حقه سبحانه وتعالى على العباد أن يعبدوه وحده ، ولا يشركوا به ، وألا يسألوا غيره ، وألا يستعينوا بأحد سواه ، روى البخاري من حديث معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : " هل تَدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : " حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم سار ساعة ، ثم قال : " يامعاذ بن جبل " قلت:لبيك رسول الله وسعديك ، فقال : " هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ؟ " قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : " حق العباد على الله أن لا يعذبهم " <١> .

ويدخل في العبادة التوكل على الله والدعاء له وحده ، والخشية منه والإنابة إليه ، والتوبة والاستغفار ، وكل الأعمال والأقوال الصالحة التي أمرنا الله بها من صلاة وزكاة وحج وصوم وغيره . <٢>

---

١ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٠/ ٣٩٧ ، ٣٩٨ / كتاب اللباس / باب إرداف الرجل الرجل / وصحيح مسلم بشرح النووى ١ / ٢٣٢ / كتاب الإيمان / باب حق الله على العباد وحق العباد على الله .

ومعنى " لبيك " : إجابة لك بعد إجابة للتأكيد ، وقيل : معناه : قرباً منك وطاعة لك ، وقيل : معناه : أنا مقيم على طاعتك .

ومعنى " سعديك " أى ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة ، وإسعاداً بعد إسعاد / انظر هامش صحيح مسلم بشرح النووى ١/٢٣١ / والنهاية لابن الأثير (سعد) ٢ / ٣٦٦ .

٢ ـ مجموع الفتاوى ١ / ٧٠ ، ٧١ .

ولا شك أن أول ما يجب لله ، تبارك وتعالى ، على خلقه توحيده وإخلاص الدين له وحده ، وهو الأساس الأول من أسس الإسلام ، والدعامة الأولى من دعائم الإيمان . ومعظم آيات الذكر الحكيم تدعو إلى التوحيد ، وتوجه الأنظار إليه بصور مختلفة من الأساليب المعجزة البليغة ، منها قوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

‹١›

وكذلك السنة النبوية فيها الكثير من الأحاديث الدالة على وجوب اعتقاد وحدانية الله سبحانه وتعالى ، كما قال عليه الصلاة والسلام : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " ‹٢› .

إن الشهادتين هما أصل الدين ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً رسول الله . والإله : من يستحق أن يَأْلَهه العباد ، ‹٣› ويدخل فيه حبه وخوفه ، فما كان من توابع الألوهية فهو حق محض لله ، وما كان من توابع أمور الرسالة فهو حق لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ‹٤› وإذن فدين الإسلام مبني على أصلين :

---

١ ـ سورة النحل : ٣٦ .

٢ ـ صحيح مسلم ١ / ٥٢ / كتاب الإيمان / باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله الا الله ، محمد رسول الله .

٣ ـ يألَهُه العبـاد : يعبدونه ، يقال : ألِهَ فلان ـ بكسر اللام ـ يَألَه ـ بفتحها ـ إلاَهةً وأُلوهةً وأُلوهيّة ، إذا عَبَد . [اللسان ـ أله] ١٣ / ٤٦٧ ـ ٤٧١ .

٤ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية ١ / ٧٦ .

" أن نعبد الله وحده لا شريك له ، وأن نعبده بما شرعه من الدين ، وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب ، أو أمر استحباب وقبول ، وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل فلا يقبل غيره " <١> .

قال تعالى :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ <٢>

وقال عز وجل :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

<٣>

قال سيد **قطب** : " إنه الإيمان الشامل الذي جاء به هذا الدين ، ويتجلى أثر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله دون التفرقة بين أحد منهم في السمع والطاعة ، فالسمع لكل ما جاء لهم به الرسل من عند الله ، والطاعة لكل ما أمروا به ، لأنه لا إسلام بلا طاعة لأمر الله تعالى ، ولا إيمان بدون تنفيذ شرائعه ، ثم طلب الغفران يأتي بعد تقديم الاستسلام وإعلان السمع والطاعة ابتداء بلا عناد أو نكران ، ثم يَعْقُب ذلك اليقين بأن المصير إلى الله فلا ملجأ من الله إلا إليه " . <٤>

---

١ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية ١ / ١٨٨ ، ١٨٩ .

٢ ـ سورة آل عمران : ٨٥ .

٣ ـ سورة البقرة : ٢٨٥ .

٤ ـ في ظلال القرآن ١ / ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

أما طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم : فهى تبع لطاعة اللّٰه تعالى ، بل هي جزء لا يتجزأ منها ، لأنه عليه الصلاة والسلام مبلغ عن ربه تعالى ، وهو القدوة الحسنة للأمة ، كما يشير إليه قوله عز وجل :

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ
يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا 〈١〉

ومن ثَمَّ فإن طاعته صلى اللّٰه عليه وسلم فيها الصلاح والفلاح ، والفوز والنجاة للفرد والمجتمع ، فالسمع والطاعة للرسول صلى اللّٰه عليه وسلم واجبان ، لأنه الواسطة بينا وبين اللّٰه تعالى ، وهو المبلغ عن اللّٰه تعالى ، المؤدى رسالة اللّٰه لخلقه ، فطاعته صلى اللّٰه عليه وسلم من طاعة اللّٰه ، ومن هنا أمرنا سبحانه وتعالى بالإيمان به ، ووجوب اتباعه ، وتوقيره وتأييده ، كما يقول سبحانه وتعالى :

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ
شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا
〈٢〉

ومحبة الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم تبدأ بالاتباع والطاعة ، قال عز وجل :

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ

〈٣〉

---

١ ـ سورة الأحزاب : ٢١ .

٢ ـ سورة الفتح : ٨ ، ٩ .

٣ ـ سورة آل عمران : ٣١ ، ٣٢ .

فهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادّعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة الإسلامية ، بأنه كاذب حتى يتبع الشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعنى قوله : (يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) أى يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول .

ومعنى قوله : (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى باتباعكم لرسوله صلى الله عليه وسلم يحصل لكم هذا ، وكذلك تحصل لكم شفاعته يوم القيامة .

وأما قوله : (قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) فهو أمر عام بطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن زعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه فهو كاذب حتى يتابع الرسول النبي الأميّ خاتم الرسل ورسول الله إلى الجن والإنس <١> .

إنها محبة تسمو فوق كل محبة ، وترتفع بصاحبها إلى ذروة الإيمان ، فهذا ثانى الخلفاء ، والناطق بالحق والصواب ، يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا والذي نفسى بيده ، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك " فقال له عمر : فإنه الآن ، والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " الآن ياعمر " <٢> .

---

١ ـ انظر : ابن كثير ١ / ٣٥٨ .

٢ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١١/٥٢٣ / كتاب الأيمان والنذور / باب كيف كان يمين النبى صلى الله عليه وسلم ؟ وقال سعد قال النبى صلى الله عليه وسلم " والذى نفسى بيده " .

قوله : (لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك) أى لا يكفى ذلك لبلوغ الرتبة العليا حتى يضاف إليه ما ذكر . ، وقوله : (الآن ياعمر) أى الآن عرفت فنطقت بما يجب (فتح البارى ١١ / ٥٢٨) .

وهذا الحديث الصحيح يحدد سمات المسلم الحق بأنه من اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم حق الاتباع ، وكان هواه تبعاً لما جاء به عليه الصلاة والسلام .

وقد حَثَّ الله سبحانه وتعالى على وجوب طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل :

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ‹١›

فمن أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به ونهى عنه فقد أطاع الله ، لأن طاعته تبع له ، وهو مرسل من عنده ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وما ذاك إلا لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى كما وصفه عز من قائل :

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ‹٢›

ويبين سبحانه وتعالى أن من أعرض وعصى رسوله صلى الله عليه وسلم فليس عليه منهم ضرر ، وإنما عليه البلاغ المبين ، لأن من تبعه صلى الله عليه وسلم سعد وفاز ونجا ، وللنبي صلى الله عليه وسلم من الأجر نظير ما حصل له ، ولكن من عصاه وأعرض عنه ، خاب وخسر وهلك ، وليس عليك يامحمد من أمره شيء . ‹٣›

---

١ ـ سورة النساء : ٨٠ .

٢ ـ سورة النجم : ٣ ، ٤ .

٣ ـ انظر : ابن كثير ١ / ٥٢٨ .

وقد ذَكَّر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته ، ومتابعته ومناصرته عليه الصلاة والسلام ، والقيام بنشر دينه ، وإبلاغه عنه وقبوله منه ، فقال تعالى :

وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ‹١›

وقال جل شأنه :

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ‹٢›

قال ابن كثير رحمه الله : " هذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إسلامهم " ‹٣› .

وأيدها قوله صلى الله عليه وسلم " بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في معروف فمن وَفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك " ‹٤› .

---

١ ـ سورة المائدة : ٧ .

٢ ـ سورة الحديد : ٨ ، ٩ .

٣ ـ ابن كثير : ٢ / ٣٠ .

٤ ـ صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١ / ٦٤ / كتاب الإيمان .

وفي الصحيح أن البيعة كانت على السمع والطاعة ، فعن جُنادةَ بن أبى أمية ، قال : " دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان " ‹١› .

وقد وعدَ الله سبحانه وتعالى كل من يطيعه ويطيع رسوله صلى الله عليه وسلم بالفوز العظيم ، والجزاء الكبير ، والنعيم المقيم في الجنة ، كما توعَّد من يعصى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالعذاب المهين في نار جهنم ، قال تعالى :

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾
وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ
نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ
‹٢›

---

١ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٣ / ٥ / كتاب الفتن / باب قول النبى صلى الله عليه وسلم " سترون بعدى أموراً تنكرونها " .
قوله : " فبايعناه " ، أى ليلة العقبة . وقوله : " فى منشطنا " بفتح الميم والمعجمه وسكون النون بينهما : أى فى حالة نشاطنا . وقوله : (فى مكرهنا) أى فى الحالة التى نكون فيها عاجزين عن العمل بما نؤمر به . وقوله : (وأثرة علينا) أى والمراد أن طواعيتهم لمن يتولى عليهم لا تتوقف على إيصالهم حقوقهم بل عليهم الطاعة ولو منعهم حقهم . وقوله : (لا ننازع الأمر أهله) أى الملك والإمارة . وقوله : (إلا أن تروا كفرا بواحاً) أى ظاهراً باديا . وقوله : (عندكم من الله فيه برهان) فالبرهان نص آية وخبر صحيح لا يحتمل التأويل (انظر : فتح البارى ١٣ / ٨) .
٢ ـ سورة النساء : ١٣ ، ١٤ .

وقال :

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ‹١›

كما توعَّد من يتبع طريقاً غير طريق الشريعة الإسلامية التي جاء بها النبي صلى اللّٰه عليه وسلم بعد ماظهر له الحق ، واتضح له بها الطريق المستقيم ، بالخذلان والاستدراج ودخول نار الجحيم ، قال عز وجل :

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ‹٢›

ولذا وجب على جميع الخلق أن يختاروا الطريق المستقيم الذي بَيَّنه لنا الشرع على لسان رسولنا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم باتباعه ، والاهتداء بهداه ، والسير على منهجه ، ومن يَخْتر غير هذا الطريق المستقيم فقد ضل عن طريق الحق ، واتبع منهاجاً وطريقاً مضاداً ومعانداً لما بينه لنا رسولنا صلى اللّٰه عليه وسلم ، وكذلك الشأن فيمن يأخذ بعضاً ويترك البعض الآخر ، أو ينكر منهجه ، فكل هؤلاء اقتضت حكمة اللّٰه تعالى أنهم يصلون نار جهنم ، وساءت مصيرا .‹٣›

كما حَذَّر اللّٰه ـ سبحانه وتعالى ـ من عاقبة مخالفة اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم ومعصيتهما فيقول عز وجل :

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ‹٤›

---

١ ـ سورة الفتح : ١٧ .

٢ ـ سورة النساء : ١١٥ .

٣ ـ انظر : جامع البيان للطبرى ٩ / ٢٠٤ / بتحقيق محمود محمد شاكر / وأحمد شاكر ، وفى ظلال القرآن ٢/٧٥٩ بتصرف .

٤ ـ سورة المائدة : ٩٢ .

فبعد أن أمر جل شأنه بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وامتثال ما يأمران به ، وينهيان عنه ، حَذَّر من عاقبة مخالفتهما ومعصيتهما .

فعلي جميع الخلق أن يكونوا مطيعين دائماً ، حذرين من المخالفة ، لأن الحذر مدعاة إلى عمل الحسنات واتقاء السيئات <١> ثم أخبر الله تعالى أنه ليس على من أرسله إليهم بالإنذار والتخويف غير إبلاغهم الرسالة التي أرسل إليهم بها ، ثم بيان المنهج الذي أمروا أن يسلكوه ، وأما العقاب على التولية والإعراض والانتقام بالمعصية فعلى المرسَل إليه دون الرسل <٢> .

ولقد حَذَّر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين من مخالفة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما توعد عليها بأشد العذاب فقال تعالى :

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ <٣>

وأوجب على عباده المؤمنين أن يردّوا كل أمر يتنازعون فيه من الأحكام وغيرها إلى رسوله صلى الله عليه وسلم في حياته ، وبعد موته ، إلى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأن هذا من الإيمان فقال عز وجل :

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ <٤>

---

١ ـ انظر : البحر المحيط ٤ / ١٥ .

٢ ـ جامع البيان للطبرى ١٠/ ٥٧٥ / بتحقيق محمودمحمد شاكر ، وأحمد شاكر .

٣ ـ سورة النور : ٦٣ .

٤ ـ سورة النساء : ٥٩ .

فهذا من الدلائل على وجوب طاعــة نبيــه صـلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ‹١›

فقد أقسم سبحانه وتعالى بنفسه أنه لا يؤمن أحد حتى يحكمٍّ الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور ، فما حكم به صلى الله عليه وسلم فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهراً وباطناً . وإذا حكّم الناس الرسول صلى الله عليه وسلم أطاعوه في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكم به ، بل ينقادون له في الظاهر والباطن ويُسلمّون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ، ولا مدافعة ، ولا منازعة ، ولا مخالفة . ‹٢›

كما قال عليه الصلاة والسلام : " والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " .

وقال **ابن حجر** : أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ، ورجاله ثقات ، ‹٣› وقد صححه النووى في آخر الأربعين ‹٤› .

---

١ ــ سورة النساء : ٦٥ .

٢ ــ انظر : ابن كثير ١ / ٥٢٠ ، وتفسير المنار ٥ / ٢٣٦ / بتصرف ،

٣ ــ فتح البارى شرح صحيح البخارى ١٣ / ٢٨٩ .

٤ ــ شرح الأربعين حديثاً النووية لابن دقيق العيد ١٠٧ ، وقال حديث حسن صحيح ، ورويناه فى كتاب الحُجَّةِ بإسناد صحيح ، وذكره البغوى فى شرح السنة ١ / ٢١٣ ، ومشكاة المصابيح ١٦٧ .

أما سبب نزول الآية <١> السابقة فقد أخرج البخارى بسنده من حديث عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما (أن رجلاً من الأنصار <٢> خاصم الزبير عند النبي صلى الله عليه وسلم في شراج الحَرَّة التي يسقون بها النخل ، فقال الأنصاريُّ : سَرِّح الماء يَمُرّ ، فأبى عليه : فاختصما عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير : اسق يازُبَيرُ ، ثم أرسل

---

١ ـ سورة النساء : ٦٥ .

٢ ـ قوله : (أن رجلاً من الأنصار) زاد فى روايه شعيب " قد شهد بدرا " وفى روايه عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهرى عند الطبرى فى هذا الحديث أنه من بنى أمية بن زيد وهم بطن من الأوس ، ووقع فى رواية يزيد بن خالد عن الليث عن الزهرى عند ابن المقرى فى معجمه فى هذا الحديث أن اسمه حميد ، قال ابو موسى المدينى فى (ذيل الصحابة) لهذا الحديث طرق لا أعلم فى شىء منها ذكر حميد إلا فى هذه الطريق .

وليس فى البدريين من الأنصار من اسمه حميد ، وحكى ابن بشكوال فى مبهماته عن شيخه أبى الحسن بن مغيث أنه ثابت بن قيس بن شماس قال : ولم يات على ذلك بشاهد .

قال ابن حجر : وليس ثابت بدرياً ، وحكى الواحدى أنه ثعلبة بن حاطب الأنصارى الذى نزل فيه قوله تعالى (ومنهم من عاهد الله ...) الآية ولم يذكر مستنده وليس بدرياً أيضاً .

قال ابن حجر : نعم ذكر إسحاق فى البدريين ثعلبة بن حاطب وهو من بنى أمية بن زيد وهو ، عندى غير الذى قبله ، لأن هذا ذكر ابن الكلبى أنه استشهد بأحد ، وذاك عاش إلى خلافة عثمان ، وحكى الواحدى أيضاً وشيخه الثعلبى والمهدى أنه حاطب بن أبى بلتعة وتعقب بأن حاطباً وإن كان بدرياً لكنه كان من المهاجرين ، لكن مستند ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق سعيد بن عبد العزيز عن الزهرى عن سعيد بن المسيب فى قوله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية ، قال : " نزلت فى الزبير بن العوام وحاطب بن ابى بلتعة اختصما فى ماء " الحديث وإسناده قوى مع إرساله ، فإن كان سعيد بن المسيب سمعه من الزبير فيكون موصولاً ، وعلى هذا فيؤول قوله : " من الأنصار " على إرادة المعنى الاعم كما وقع ذلك فى حق غير واحد . وأما قول الكرمانى بأن حاطباً كان حليفاً للأنصار ففيه نظر، وأما قوله " من بنى زيد " فلعله كان مسكنه هناك . وذكر الثعلبى بغير سند أن الزبير وحاطباً لما خرجا مرا بالمقداد قال : لمن كان القضاء ؟ قال حاطب : قضى لابن عمته ، ولوى شقه ، ففطن له يهود فقال : قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ويتهمونه ، فى صحته نظر . ويترشح بأن حاطباً كان حليفاً لآل الزبير بن العوام من بنى أسد وكأنه كان مجاوراً للزبير . (فتح البارى ٥/ ٣٥ ، ٣٦).

الماء إلى جارك ، فغضب الأنصارى فقال : أن كان ابن عمتك ، فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر ، فقال الزبير : والله إنى لأحسبُ هذه الآية نزلت في ذلك <١> .

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) الآية .

وكثير من آيات القرآن ورد فيها الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم مقروناً بطاعة الله تعالى ، من ذلك ما نقرأ في سورة الأنفال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ <٢>

---

١ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٥/٣٤ / كتاب المساقاة / باب سكر الأنهار ، وباب شُرب الأعلى قبل الأسفل ٣٨ ، وباب شرب الأعلى إلى الكعبين ٣٩ ، و٨/٢٥٤ كتاب التفسير باب (فلا وربك يؤمنون ...) .

قوله : (فى شراج الحرة) بكسر المعجمة والجيم : جمع شَرْج ، بفتح أوله وسكون الراء ، مثل بحر وبحار ، ويجمع شروج ، وقيل : بفتح الراء ، وقيل : شرجة والمراد بها مسيل الماء ، وإنما أضيف إلى الحرة لكونها فيها ، والحرة موضع معروف بالمدينة ، وهى فى خمسة مواضع : المشهور منها اثنتان حرة واقم ، وحرة ليلى . وقيل : هو نهر عند الحرة بالمدينة ، فاغرب وليس بالمدينة نهر ، قال أبو عبيدة : كان بالمدينه واديان يسيلان بماء المطر فيتنافس الناس فيه فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعلى فالأعلى ./ فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/٣٦ .

قوله : (يرجع الى الَجدْر) أى يصير إليه ، والجدر بفتح الجيم وسكون الدال المهملة هو المسناة ، وهو ما وضع بين شربات النخل كالجدار ، وقيل : المراد الحواجز التى تحبس الماء . (فتح البارى ٥ / ٣٧) .

٢ ـ سورة الأنفال ٢٠ ، ٢١ .

والآيتان الكريمتان تحثان على طاعة الله عز وجل ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيما أمرا ونهيا ، وتحذران من الإعراض عن أوامر الله تعالى وأوامر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وتنهيان عن التشبه بالمشركين والمنافقين الذين إذا دُعوا إلى التصديق والإذعان كانوا بمعزل عنه ‹١› ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ‹٢›

فقد أمر الله سبحانه بالاستجابة لله وللرسول بالطاعة إذا دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم لما يحييهم من الحق والإيمان والقرآن والسير على هديهما .‹٣›

وقال تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾

‹٤›

إن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لما أمر المؤمنين في الآية الأولى بالثبات عند القتال ، والصبر على مبارزة الأعداء ، وعدم الفرار ، وأن يذكروا الله كثيراً ويستعينوا به ، ويتوكلوا عليه ، ويسألوه النصر على أعدائهم وأعداء الإسلام ــ

---

١ ــ انظر : جامع البيان ١٢/٤٥٧ ، ٤٥٨ / بتحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر ، والتفسير الواضح / لمحمد محمود حجازى ١٠ / ٦٩ .

٢ ــ سورة الأنفال : ٢٤ .

٣ ــ انظر : جامع البيان ١٢/٤٦٥ ، والكشاف للزمخشرى ٢ / ١٥١ .

٤ ــ سورة الأنفال : ٤٥ ، ٤٦ / وقوله : (وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) أى دولتكم . يقال : هبت له ريح النصر ، إذا كانت له دولة . ويقال : الريح له اليوم ، يراد له دولة . انظر : تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ١٧٩ .

دعاهم في الآية التي تليها إلى طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عند الحرب ، فيأتمروا بما أمرهم به الله ورسوله ، وينتهوا عما نهياهم عنه ، وألا يتنازعوا فيما بينهم ويختلفوا ، حتى لا يكون ذلك سبباً في تخاذلهم وفشلهم وذهاب قوتهم ووحدتهم . ‹١›

وكذلك يجب رد الحكم عند الاختلاف والتنازع إلى الله ورسوله ، ومصداق ذلك قوله عز وجل

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ ‹٢›

قال **ابن كثير رحمه الله** : " هذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه يجب أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة ، كما قال تعالى :

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ ‹٣›

فما حكم به الكتاب والسنة ، وشهدا له بالصحة ، فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، ولهذا قال تعالى :

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ ‹٤›

أي أحسن عاقبة .

---

١ ـ انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٣١٦ بتصرف .

٢ ـ سورة النساء : ٥٩ .

٣ ـ سورة الشورى : ١٠ .

٤ ـ سورة النساء : ٥٩ .

فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليها في ذلك ، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر ، ذلك لأن التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والرجوع إليهما في فصل النزاع ، خير وأحسن عاقبة ومآلا وجزاء . <١>

يقول **القرطبي** مفسراً الآية الكريمة السابقة : <٢>

" ردُّوا ذلك الحكم إلى كتاب الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالسؤال في حياته ، أو بالنظر في سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم " <٣> .

أما مفتي الديار السعودية **رحمه الله الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ** فيقول : " إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القوانين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ، في الحكم بين العالمين ، والرد إليه عند المتنازعين . <٤>

إن رد كل ما يتنازع فيه الناس من الأحكام وغيرها ، كأصول الدين وفروعه إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم ، أصلح لهم في دنياهم وآخرتهم لأن ذلك يدعوهم إلى الألفة والمحبة ، وترك الاختلاف والتنازع والفرقة ، ولأن ذلك أحسن وأحمد عاقبة ومآلا وجزاء <٥> .

وهذا هو شرط الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولا عبرة مطلقاً بما يضعه البشر أنفسهم ، من موازين أو قوانين يضعونها فيكون فيها الخلل <٦> .

---

١ ـ انظر : ابن كثير ١ / ٥١٨ .

٢ ـ سورة النساء : ٥٩ .

٣ ـ الجامع لاحكام القرآن ٥ / ٢٦١ .

٤ ـ تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ ، ١ .

٥ ـ انظر : جامع البيان للطبرى ٨ / ٥٠٦ / بتحقيق محمود محمد شاكر ، وأحمد شاكر .

٦ ـ تحكيم القوانين : للشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ ، ١ .

ثم قال **الشيخ محمد بن إبراهيم آل شيخ** : إن من حقوق الرسول صلى الله عليه وسلم طاعته ومحبته ، وتوقيره ، ونصره ، وتحكيمه ، والرضى بحكمه ، والتسليم له ، واتباعه ، والصلاة عليه ، وتقديمه على النفس والأهل والمال والولد والناس أجمعين ، كما جاء في الصحيح : عن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتي أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين "<١> .

والمراد بالمحبة حب الاختيار لا حب الطبع ، وهو التعظيم والإجلال .

ولقد قرن الله اسم رسوله باسمه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، قرنه به في المحبة فقال :

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ <٢> الآية

وفي الرضا ، فقال :

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ <٣>

---

١ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١ / ٥٨/ كتاب الإيمان / حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان .

٢ ـ سورة التوبة : ٢٤ .

٣ ـ سورة التوبة : ٦٢ .

فهذا ونحوه هو الذي يستحق رسولُ الله بأبى هو وأمى <١> .

وأخرج مسلم بسنده من حديث عدى بن حاتم : " أن رجلا خطب عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بئس الخطيب أنت ، قل : ومن يعصى الله ورسوله " <٢> .

وقال عليه الصلاة والسلام : " كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا يارسول الله ، ومن يأبى ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى "<٣>

---

١ ـ انظر : مجموع الفتاوى ١ / ٦٨ .

قوله : (بئس الخطيب أنت) إنما أنكر عليه لتشريكه فى الضمير المقتضى للتسوية ، وأمره بالعطف تعظيماً لله بتقديم اسمه سبحانه وتعالى .

قال النووى :

والصواب أن سبب النهى أن الخطب شأنها البسط والإيضاح ، واجتناب الإشارات والرموز ، ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم أعادها ثلاثاً ليفهم ، وأما تشريك الضمير فيضعف بأشياء ، منها أن مثل هذا الضمير قد تكرر فى الأحاديث الصحيحة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقوله صلى الله عليه وسلم :" أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما" وغير ذلك من الأحاديث ، وإنما ثنى الضمير ههنا لأنه ليس خُطبة وعظ وإنما هو تعليم ، فكلما قل لفظه كان أقرب إلى حفظه ، بخلاف خطبة الوعظ ، فإنه ليس المراد حفظها ، وإنما يراد الاتعاظ بها .

ومما يؤيد هذا ما ثبت فى سنن أبى داود بإسناد صحيح :" عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : علمنا رسول الله صلي الله عليه وسلم خطبة الحاجة :" أن نحمد الله ونستعيه ونستغفره ، وأن نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله واشهد ان محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدى الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً " / سنن ابى داود ٢ /٢٣٩/ كتاب النكاح / باب فى خطبة النكاح ، وانظر : هامش صحيح مسلم بشرح النووى ١٥٩/٦ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

٢ ـ صحيح مسلم ٢/ ٥٩٤ / كتاب الجمعة / باب تخفيف الصلاة والخطبة .

٣ ـ صحيح البخارى ، بشرح فتح البارى ٢٤٩/١٣ / كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الله تعالى (واجعلنا للمتقين إماما) .

قوله : (كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى) بفتح الموحدة ، أى امتنع ، وظاهره أن العموم مستمر لأن كلا منهم لا يمتنع من دخول الجنة ، ولذلك قالوا : " ومن يأبى ؟ " فبين لهم أن إسناد الامتناع إليهم عن الدخول مجاز عن الامتناع عن سنته ، وهو عصيان الرسول صلى الله عليه وسلم (فتح البارى ١٣ / ٢٥٤) .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، حيث يقول عز وجل :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ‹١›

ويقول :

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ‹٢›

ويطول بنا الحديث لو أننا تتبعنا كل ما ورد في القرآن الكريم من الآيات الدالة على وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي أشار إليها ابن تيمية رحمه الله ، بأنها أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن . ‹٣›

---

١ ــ سورة الأنبياء : ١٠٧ .

٢ ــ سورة التوبة : ١٢٨ .

٣ ــ مجموع الفتاوى لابن تيمية ١ / ٦٧ .

المجتمع الإسلامي كما يصوره الفصل الأول -

تبين لنا مما سبق أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحتم على الأمة الإسلامية طاعة الله تعالى ، وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحذر كل التحذير من عصيان الله تعالى ، وعصيان رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك العقل السليم يحتم هذه الطاعة ، لأنه عز وجل خالق الخلق ورازقهم ، وباعثهم يوم القيامة ، ومحاسبهم على جميع أعمالهم ، ومجازيهم عليها إما بالجنة أو النار ، ولذا يجب أن يُخاف ويخشى ، ويطاع فيما يأمر به أو ينهى عنه .

والمتدبر لكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه يجد أنه تعالى لم يأمر إلا بكل خير وصلاح لهم ، في دنياهم وآخرتهم ، وكذا لم ينه إلا عن كل شر لهم ، فيه وبال عليهم في دنياهم وآخرتهم ، لأنه وحده جل جلاله هو العالم بما يصلح أمورهم ، وما يفسدها .

فالعقائد التي أمرهم الله تعالى بها ، وعلى رأسها عقيدة التوحيد ، وكذا العبادات والتكاليف التي كلفهم بها ، من صلاة وزكاة ، وصوم وحج وذكر الله تعالى ، ومكارم الأخلاق التي أمرهم بالتخلق بها ، من الصدق ، والوفاء والإحسان ، وجميع أنواع البر وحسن الخلق ، وطاعة الله وطاعة رسوله ، والمعاملات التي شرعها الله لهم في حسن العلاقات بين الأفراد والجماعات والأمم ، كل هذه لا تصلح أمور الأفراد والجماعات إلا بها ، ومن ثم يجب طاعة الله تعالى فيها ليتحقق استقرار المجتمع الإسلامي .

والمطلع على تاريخ البشرية منذ أقدم العصور إلى يومنا الحاضر ، يتأكد من أن الأمم التي لم تلتزم بطاعة الله وطاعة رسله ،عليهم الصلاة والسلام،قد هلكت وتلاشت وأبادها الله تعالى كما يصور لنا القرآن الكريم حالهم في قوله تعالى :

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾

<١>

وبناء على ذلك فإنه بالنظر إلى الأمة الإسلامية ، لن يقوم مجتمعها الإسلامي ، ولن يكتب له الاستقرار والأمن ، والحضارة والازدهار ، إلا بالتمسك بطاعة الله تعالى في كل ما أمر به ، أو نهى عنه ، وبطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأن طاعته صلى الله عليه وسلم جزء لا يتجزأ من طاعة الله عز وجل ، لأنه مبلغ عن ربه ، ولا ينطق عن الهوى ، فمن يطيعه فكأنما أطاع الله ، ومن يعصيه فكأنما عصى الله تعالى ، قال عز من قائل :

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ <٢>

ولنأخذ أمثلة من المعاصي والكبائر التي حرمها الله تعالى ، وتوعد مرتكبها بالعذاب الأليم ، كتحريم قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، والزنا ، والقذف ، وشرب الخمر ، والسرقة ، وأكل الربا ، وأكل أموال اليتامى ، وغير ذلك .

فلو نظرنا إلى المجتمعات التي تفشت فيها هذه الجرائم ، ولم يؤخذ على يد الظالم ، وجدناها مجتمعات فاشلة ، منحطة دنيئة ، غير مستقرة ، ولا آمنة على دمائها ، وأعراضها ، وأموالها ، توشك أن تنهار ، ويأكل بعضها بعضاً ، وذلك عكس المجتمعات الإسلامية التي اجتنبت هذه الجرائم ، وخافت العقوبات والزواجر التي حدها الله تعالى ، وأطاعته فيما أمر به ، وانتهت عما نهى عنه ، فتلك هي المجتمعات القوية المتماسكة المستقرة الآمنة على أنفسها ، وأعراضها ، وأموالها .

---

١ ـ سورة الطلاق : ٨ ، ٩ .

٢ ـ سورة النساء : ٨٠ .

الفصل الثاني
طاعة أولي الأمر واجبة
في غير معصية

أولو الأمر هم أئمة المسلمين ، القائمون بتنفيذ الأحكام الشرعية ، وإقامة العدل بين الرعية ، فكأنهم في ذلك نائبون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا كانت طاعتهم واجبة في غير معصية .

إذ بهذه الطاعة يستقيم أمر المجتمع الإسلامي ، ويلتئم شمله ، ويتعاون الولاة مع الرعية على أمور الحياة ، كالتعاون على البر والتقوى ، ونشر الفضيلة ، وقمـــع الرذيلة وغيرها ، فيمضى المجتمع نحو الأفضل والأكمل والأحسن بكل أفراده ، في ثبات واستقرار ، ولتكون أهدافه على النحو الذي يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وتكون المصالح ميسورة ، ويتجنب الضلال والفتن ، وعوامل الخذلان ، وأسباب التنازع والشقاق والاختلاف ، وحتى لا تقع معصية أولى الأمر الذين أمر الله تعالى بطاعتهم قال عز وجل :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ‹١›

وقد اختلف علماء التفسير في المراد بقوله : (أُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ) ، أى الذين أمر الله تعالى بطاعتهم على أقوال : ‹٢›

١ ـ الأمراء .

٢ ـ أهل العلم والخير .

٣ ـ العلماء .

---

١ ـ سورة النساء : ٥٩ .

٢ ـ انظر : جامع البيان ٨ / ٤٩٧ / وابن كثير ١ / ٥١٧ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى ٢ / ٩٥ ، والفتوحات الإلهية بتوضيح الجلالين ١ / ٢٩٥ .

٤ ـ الصحابة رضوان الله عليهم .

٥ ـ أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

ونقل **ابن حجر رحمه الله** ما رجحه الإمام الشافعى رحمه الله : من أنهم الأمـراء ، واحتـج له بأن قريشاً كانوا لا يعرفون الإمارة ، ولا ينقادون إلى أمير ، فأمروا بالطاعة لمن ولى الأمر . (١)

واختار **الطبرى رحمه الله** حمـل الآيـة علـى العموم وإن نزلت في سبب خاص (٢) .

فقد ورد في الصحيح من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى إذ بعثهُ النبي صلى الله عليه وسلم في سَرِيَّة . (٣)

وهي سريةُ الأنصارى،كما ورد في الصحيح من حديث على رضى الله عنه قـال : " بَعثَ النبي صلى الله عليه وسلم سَرِيَّة ، فـاستـعـمل رجـلاً من الأنصـار وأمرهم أن يُطيعوه ، فغضب فقال : أليس أمركم النبي صلى الله عليه وسلم أن تطيعونى ؟ قالوا : بلى . قال : فاجمعوا لى حطباً ، فجمَعوا . فقال : أو قد وانارا ً ، فـأوقـدوها . فقـال :ادخلوهـا ، فهـمُّوا ، وجعلَ بعـضـهم يمسك بعـضــاً ويقولون : فَـررْنا إلى النبى صلى الله عليـه وسلم من النار . فـمـازالوا حـتى خَمَدتِ النار ، فسكن غَضبه .

---

١ ـ انظر : فتح البارى ٨ / ٢٥٤ .

٢ ـ جامع البيان ٨ / ٤٩٧ / " بتحقيق محمود محمد شاكر ، وأحمد شاكر " .

٣ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٨ / ٢٥٣ / كتاب التفسير / باب (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ذوى الأمر .

فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة ، والطاعةُ في المعروف " <١> .

ويعلل ابن حجر رحمه الله هذا بقوله : « موقف كل من الفريقين ، مَن هَمَّ منهم باقتحام النار ومن أبى ، أى رفض ، أن الذين هموا أن يطيعوه وقفوا عند امتثال الأمر بالطاعة ، والذين امتنعوا عارضه عندهم الفرار من النار ، فناسب أن ينزل في ذلك ما يرشدهم إلى ما يفعلونه عند التنازع ، وهو الرد إلى الله وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، أى إن تنازعتم في جواز الشيء وعدم جوازه فارجعوا إلى الكتاب والسنة » . <٢>

وذكر الطبرى وابن كثير رحمهما الله :

أن هذه الآية <٣> نزلت في قصة جرت بين عمار بن ياسر مع خالد بن الوليد ، وكان خالد أميراً فأجار عمارٌ رجلا بغير أمره فتخاصما ، وذلك حينما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سريَّة عليها خالد بن الوليد ، وفيها عمار بن ياسر ، فساروا قِبلَ القوم الذين يريدون ، فلما بلغوا قريباً منهم عرَّسوا ـ أى نزلوا من السفر آخر الليل ، يجلسون للاستراحة ، ثم يثورون مع انفجار الصبح سائرين ـ وأتاهم ذو العيينتين أى الجاسوس ، فأخبرهم ، فأصبحوا قد هربوا إلا رجلاً جمع متاعهم ، ثم أقبل يمشى في ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد ، فسأل عن عمار بن ياسر ، فأتاه فقال : ياأبا اليقظان ، إنى قد أسلمت

---

١ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٥٨/٨/ كتاب المغازى / باب سرية عبد الله بن حُذافة السهمى وعلقمة بن مُجزِّز المُدْلجىّ ، ويقال لها : إنها سريةُ الأنصارى / وكتاب الأحكام ١٢٢/١٣/ باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية .

والسرية ، بفتح المهملة وكسر الراء وتشديد التحتانيّة ، هى التى تخرج بالليل ، وسميت بذلك لأنها تخفى ذهابها . وهى قطعة من الجيش تخرج منه وتعود إليه ، وهى من مائة إلى خمسمائة (انظر : فتح البارى ٥٦/٨) .

٢ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٢٥٤ .

٣ ـ سورة النساء : ٥٩ .

وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا ، وإني بقيت ، فهل إسلامي نافعي غداً ، وإلا هربت ؟ فقال عمار : بل هو ينفعك ، فأقم ، فأقام ، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحداً غير الرجل ، فأخذه وأخذ ماله ، فبلغ عماراً الخبر ، فأتى خالداً ، فقال : خلِّ عن الرجل فإنه قد أسلم ، وهو في أمان مني . فقال خالد : وفيم أنت تجير ؟ فاستبَّا وارتفعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : فأجاز أمان عمار ، ونهاه أن يجير الثانية على أمير ، فلما استبأ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال خالد ؛ يارسول الله أتترك هذا العبد الأجدع يسبني ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياخالد ، لا تسب عماراً ، فإنه من سب عماراً سبه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله ومن لعن عماراً لعنه الله . فغضب عمار فقام فتبعه خالد حتى أخذ بثوبه فاعتذر إليه ، فرضي عنه <١> فأنزل الله تعالى قوله (أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ) الآية .

والأولى تقديم السبب الأول عن الثاني لورود القصة في الصحيح .

وأعاد الفعل في قوله : (وأطيعوا الرسول) إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة ، ولم يعده في أولى الأمر ، إشارة إلى أنه يوجد فيهم من لا تجب طاعته إذا كانت في معصية الخالق .

وذكر بعضهم أنه أعاد الفعل في قوله : (وأطيعوا الرسول) لأن له صلى الله عليه وسلم استقلال الطاعة ، ولا يأمر إلا بطاعة الله ، ولأنه معصوم في ذلك .

ومن ثم لم يعده في قوله (وأُولِى الأمر منكم) إيذانا بأنه لا استقلال لهم فيها ، ولأنهم لا ينفردون بالطاعة ، بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم في غير معصية <٢> .

---

١ ــ انظر : الطبرى ٨ / ٤٩٩ / " المحقق " وابن كثير ١ / ٥١٨ .

٢ ــ انظر : روح المعاني للألوسى ٥ / ٦٥ .

قال ابن حجر :

السّر في إعادة العامل في " الرسول " دون " أولى الأمر " مع أن المطاع فـي الحـقيـقة هو اللّٰه تعالى كَوْنُ الذي يُعرف به ما يقع به التكليف هما القرآن والسنة ، فكأن التقدير : أطيعوا اللّٰه فيما نص عليكم فى القرآن ، وأطيعوا الرسول فيما بيَّن لكم من القرآن وما ينصه عليكم من السنة .

أو المعنى : أطيعوا اللّٰه فيما يأمركم به من الوحي المتعبد بتلاوته ، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن . <١>

وقوله (فإن تنازعتم في شىء) أى فإن تنازعتم أيها المؤمنون أنتم وأولو الأمر منكم في أمر من أمور الدين (فردوه) أى فارجعوا فيه (إلى اللّٰه) أى إلى كتابه (والرسول) أى إلـــى سنته عليه الصلاة والسلام ، وكأنه قيل : فإن لم يعملوا بالحـــق فلا تطيعــوهم وردوا ما اختلفتم فيه إلى حكم اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم . <٢>

لكن طاعة أولى الأمر إنما تكون واجبة في غير معصية لقوله عليه الصلاة والسلام :

" السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة " <٣> .

ولقوله صلى اللّٰه عليه وسلم " اسمعوا وأطيعوا وإن استعملَ عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة " <٤> .

---

١ ـ انظر : فتح البارى ١٣ / ١١١ .

٢ ـ انظر : روح المعانى ٥ / ٦٦ ، وفتح البارى ١٣ / ١١٢ .

٣ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٣ / ١٢٢ / كتاب الأحكام / باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكنْ معصية .

٤ ـ المرجع السابق ١٣ / ١٢٢ / كتاب الأحكام / باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكنْ معصية .

فطاعة أولى الأمر واجبة في غير معصية الله ، لأنها تبع لطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في الحدود المعروفة المشروعة من عند الله ، والتي لم يرد نص بحرمتها ، أو لا تكون من المحرم عندما يُرَدُّ الحكم إلى مبادىء الشريعة الإسلامية عند الاختلاف فيه ‹١› لقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ‹٢›

ولذا وجب على العلماء وغيرهم عند الاختلاف والتنازع رد ذلك إلى الله ورسوله ، أى إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن كثير رحمه الله : " هذا أمر من الله بأن كل شىء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه يجب أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة "‹٣› كما يشير إلى ذلك قوله عز وجل :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ‹٤›

قال القرطبى رحمه الله :

" ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالسؤال عنه في حياته ، أو بالنظر في سنته بعد وفاته . ‹٥›

---

١ ـ انظر : فى ظلال القرآن ٢ / ٦٩١ ، ٦٩٢ .

٢ ـ سورة النساء : ٥٩ .

٣ ـ ابن كثير ١ / ٥١٨ .

٤ ـ سورة الشورى : ١٠ .

٥ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٥ / ٢٦١ .

وإن طاعة أولى الأمر واجبة على جميع الرعية في الحدود المشروعة التي لم يرد فيها التحريم ، وحتى لو جاروا عليهم تجب لهم الطاعة ، لأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم وظلمهم ، ولأن في طاعتهم المحافظة على الجماعة ، واتفاق الكلمة ، ولَمِّ الشمل وعدم الفرقة والتنازع والاختلاف ، بل يكون الاتحاد والألفة والمحبة ، ودَرْء الفتن والضلال ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " مَن رأى من أميره شيئاً يكرهُهُ فليْصبِرْ ، فإنه ليس أحَدُ يفارقِ الجماعَة شبِراً فيموت الإمات ميتة الجاهلية " <١> .

والمراد بميتة الجاهلية حالة الموت كموت أهل الجاهلية على الضلال ، حيث لم يكــن لهم إمام مطاع ، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك ، وليس المراد أنه يموت كافراً ، بل يموت عاصياً ، ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره ، ومعناه أنه يموت مثل موت الجاهلى وإن لم يكن هو جاهلياً ، أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير ، وظاهره غير مراد . <٢>

---

١ ــ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٣ / ١٢١ / كتاب الأحكام / باب السمع والطاعة ما لم تكنْ معصية ، وكتاب الفتن ١٣ / ٥ / كتاب الأحكام / باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : " سترون بعدى أموراً تنكرونها " .

٢ ــ انظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى ١٣ / ٧ / كتاب الفتن / باب قول النبى صلى الله عليه وسلم " سترون بعدى أموراً تنكرونها " .

الفصل الثاني المجتمع الإسلامي كما يصوره

مما تقـدم يتبين لنـا أن الله تعالى ، أمرنا بطاعة أولى الأمر في غير معصية ، لأنهم القائمون بتنفيذ أوامر الله تعالى ، وأحكام الشريعة ، من إقامة العدل ، ورفع الظلم ، وتوحيد صفوف المسلمين ، لأنهم نائبون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد بينّ لنا صلى الله عليه وسلم أن طاعتهم واجبة على الرعية ، ما لم يأمروا بمعصية ، وأن طاعتهم واجبة حتى لو جارُوا في أحكامهم ، لأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من الأضرار الكثيرة أضعافُ ما يحصل من جَوْرهم وظلمهم .

وقد رأينا أن طاعة أولى الأمر تقوِّى دعائم المجتمع الإسلامى ، وتوحِّد صفوف الأمة الإسلامية ، وتشيع الاستقرار والأمن ، وتجعل المجتمع الإسلامى كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضاً ، وتجعله ينصرف بكل قواه نحو البناء والتعمير .

وأما التمرد عليهم فبه تنحل قوى المجتمع الإسلامى ، ويتفرق شمل الأمة المسلمة ، ويتصدع بنيانها ، وتدب الفوضى والفساد والضلال في أو صالها ، بل يجر هذا التمرد إلى التقاتل والتناحر بين الأفراد والجماعات ، وهيهات أن تستقر حياة المجتمع حينما يقف فيه الحكام في جانب ، ويقف المحكومون في جانب آخر .

الفصل الثالث

صور من غدر اليهود والنصارى

لقد كان تاريخ أهل الكتاب على امتداده حافلاً بالمنكرات ، مليئاً بالمخازى ، وقد وصفهم القرآن الكريم ، ولا سيما في السور الأربع الطول ـ البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ـ بنقضهم للمواثيق والعهود ، وشدة خيانتهم وعداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وغدرهم بهم ، وقتلهم الأنبياء والعلماء بغير حق ، وقولهم الزور ، وأكلهم السحت ـ الرشوة ـ ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيدهم له وللمسلمين ، وسعيهم الدءوب في إثارة الشكوك والفتن بين المسلمين وغيرهم ، وإشعال نيران الحروب كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

فكان جزاء هذه الأفعال الشنيعة الخسيسة أن غضب الله عليهم ولعنهم ، وجعل قلوبهم قاسية كما قال تعالى :

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ <١>

والمغضوب عليهم هم اليهود ، لقوله تعالى فيهم :

مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ <٢>

أى أبعدهم من رحمته تعالى وغضب عليهم غضباً لا يرضى بعده <٣> .

والضالون : النصارى ، لقوله تعالى :

قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ <٤>

أى خرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال <٥> .

---

١ ـ سورة الفاتحة : ٧ .

٢ ـ سورة المائدة : ٦٠ .

٣ ـ ابن كثير : ٢ / ٦٠٢ .

٤ ـ سورة المائدة : ٧٧ .

٥ ـ ابن كثير : ٢ / ٦١٧ .

ولقد كان من مظاهر غضب الله تعالى على اليهود أن ضرب عليهم الذلة والمسكنه إلى يوم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى :

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١﴾

* أما نقضهم العهود والمواثيق فقد ذكر القرآن الكريم صوراً منه في عدة مواضع :

قوله عز وجل :

وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٢﴾

---

١ ـ سورة البقرة : ٦١ .

٢ ـ سورة البقرة : ٨٣ ، ٨٤ .

ونقل الطبرى رحمه الله ما قاله ابن زيد وهو :

لما رجَع موسى عليه السلام من عند ربه بالألواح قال لقومه من بنى إسرائيل : إن هذه الألواح فيها أمر الله الذي أمركم به ، ونهيه الذي نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذ بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ويطلع علينا فيقول : هذا كتابى فخذوه ؛ فما لَه لا يكلمنا كما كلمك أنت ياموسى فيقول هذا كتابى فخذوه ؟ ! وقرأ قول الله تعالى :

لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً ‹١›

قال فجاءت غضبة من الله ، فجاءتهم صاعقة فصعَقتهم ، فماتوا أجمعين . قال : ثم أحياهم الله بعد موتهم ، وقرأ قول الله تعالى : فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ‹٢›

فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله ، فقالوا : لا . فقال : أى شيء أصابكم ؟

قالوا : أصابنا أنّا متِنا ثم حَيينا ! قال : خذوا كتاب الله . قالوا : لا .

فبعث الله ملائكته فَنتقت ‹٣› الجبل فوقهم ، فقيل لهم : أتعرفون هذا ؟ قالوا نعم ، هذا الطور ! قال : خُذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم .

---

١ ـ سورة البقرة : ٥٥ .

٢ ـ سورة البقرة : ٥٥ ـ ٥٦ .

٣ ـ نتقت الجبل : رفعته وقلعته من موضعه . وأصل النتق والنتوق : كل شيء قلعته بين موضعه ، فرميت به . ومنه قوله تعالى : (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) [الأعراف : ١٧١] وانظر : اللسان (نتق) .

قال :«فأخذوه بالميثاق» وقرأ قول الله :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ
وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا

حتى بلغ قوله : وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ‹١›

قال : ولو كانوا أخذوه أول مرة ، لأخذوه بغير ميثاق . ‹٢›

وذكر سبحانه وتعالى حادثة رفع الطور فوقهم فقال :
وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ‹٣›

"وكان هذا سبب أخذ الميثاق عليهم". ‹٤›

ومن صور غدرهم أن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق بأن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يحسنوا إلى آبائهم وأمهاتهم ، بفعل المعروف والقول الحسن ، وخفض جناح الذل من الرحمة ، وحسن معاملتهم ، والرأفة بهم والدعاء لهم بالخير ، وأن يصلوا قرابتهم وذوى أرحامهم ، ويعرفوا حقهم عليهم ، وأن يعطفوا على اليتامى ، ويعطوا المساكين حقوقهم التي فرضها الله عليهم في أموالهم ، وأن يقولوا للناس حسنا ، بأن يأمروهم بالمعروف ، وينهوهم عن المنكر ، وأن يقيموا الصلاة ، ويؤدوها بحقوقها الواجبة عليهم فيها ، من إتمام الركوع ، والسجود ، والتلاوة ، والخشوع ،

---

١ ـ سورة البقرة : ٨٣ ـ ٨٥ .

٢ ـ جامع البيان للطبرى ٢ / ١٥٦ ، ١٥٧ / بتحقيق : محمود محمد شاكر ، وأحمد محمد شاكر .

٣ ـ سورة البقرة : ٦٣ ، ٦٤ .

٤ ـ جامع البيان ٢ / ١٥٦ ـ ١٥٩ .

والإقبـــــال فيها على الله تعالى ، وأن يؤتوا الزكاة في أموالهم ، فنقضـوا هذا الميثاق الذي أخـــذه الله عليهم ، ونكثوا عهده ، وخالفوا أمره في ذلك كله ، وتولوا عنه معرضين ، إلا من عصمه الله منهم ، فوفّى بالميثاق . <١>

وقد سجل القرآن الكريم عليهم هذا كله في قوله سبحانه وتعالى :

وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ <٢>

ومن صور غدرهم أن قبيلتى الأوس والخزرج <٣> ـ وهم الأنصار ـ كانوا في الجاهلية مشركين عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكان يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وكان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، وكانت الحرب إذا نشبت بين الأوس والخزرج قاتل كل فريق مع حلفائه ، ويظاهره على إخوانه من اليهود حتى يتسافكوا دماءهم بينهم ، وقد حَرَّم الله عليهم في التوراة سفك الدماء ، وافترض عليهم فداء أسراهم ، والتوراة بأيديهم يعرفون فيها ما لهم وما عليهم .

---

١ ـ انظر : جامع البيان / للطبرى / المحقق / ١ : ٣٨٨ ـ ٣٩٤ ، وابن كثير ١ / ١١٩ بتصرف .

٢ ـ سورة البقرة : ٨٣ .

٣ ـ الأوس والخزرج : قبيلتان ، وأمهما قَيْلة ، نُسبا إليها ، وهما ابنا حارثة بن ثعلبة من اليمن ، ومن هاتين القبيلتين الأنصار . [اللسان ـ خزرج ـ أوس] .

وكان يترتب على هذه الحروب أن يقتل اليهودى من قبيلة أخاه اليهودى من قبيلة أخرى ، ويخرجون اليهود من القبيلة الأخرى من بيوتهم ، وينتهبون كل ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال وغيرها ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتدى كل فريق منهم أساراه من الفريق الآخر ، عملاً بحكم التوراة .

وقد أنكر الله سبحانه وتعالى عليهم هذه الأعمال الشنيعة التي فيها نقض للميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة ‹١› ، كما يشير إليه قوله عز وجل :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

‹٢›

---

١ ـ انظر : سيرة ابن هشام ٢ / ٥٤٠ ، ٥٤١ / بتصرف .

٢ ـ البقرة : ٨٤ ، ٨٥ .

قال ابن كثير مفسراً الآيتين الكريمتين :

فقوله : (وإذْ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم) يفيد النهى عن أن يقتل بعضهم بعضاً ، وأن يخرجه من منزله ، وأن يظاهر عليه المشرك .

وقوله : (ثم أقررتم وأنتم تشهدون) أى ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وعلى صحته وأنتم تشهدون به .

وقوله : (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) أى أنبأهم الله بذلك من فعلهم هذا ، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فداء أسراهم .

وقوله : (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) أنبأهم أنهم افتدوا أسراهم بحكم التوراة ، ولكنهم قتلوا بعضهم في الحرب التي نشبت بينهم ، وأخرجوا البعض الآخر . وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله . ‹١›

الموضوع الأول :

ومن صور غدر اليهود ، ونقضهم للمواثيق وعدم الالتزام بما عاهدوا عليه ما أخرجه **الإمام أحمد** بسنده : عن ابن عباس قال : " حضرتْ عصابةٌ ‹٢› من اليهود نبيَّ اللهِ صلى الله عليه وسلم يوماً فقالوا : ياأبا القاسم ، حَدِّثنا عن خلالٍ نسألُك عنهنَّ ، ولا يعلمهن إلاّ نبيّ ، قال : سلونى عما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمةَ اللهِ وما

---

١ ـ انظر : ابن كثير ١ / ١٢٠ ، ١٢١ .

٢ ـ العصابة : الجماعة من الناس أو الخيل أو الطير ، والجمع : عصائب . [المعجم الوسيط ـ عصب] .

أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه : لَئِنْ حدثتكم شيئاً فعرفتموه لَتُتَابِعُنِّي على الإسلام ، قالوا : فذلك لك ، قال : فسلوني عما شئتم ، قالوا : أخْبِرنا عن أربع خلالٍ نسألك عنهنّ : أخبرنا أيُّ الطعام حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنَزَّل التوراة ، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ كيف يكون الذكر منه ؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم <١> ؟ ، ومن وليُّه من الملائكة ؟ قال : فعليكم عهد الله وميثاقة لئن أنا أخبرتكم لَتُتَابِعُنِّي ؟ قال : فأعطَوْه ما شاء من عهدٍ وميثاقٍ ، قال : فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، هل تعلمون أن إسرائيلَ يعقوبَ عليه السلام مرض مرضاً شديداً وطال سقمه ، فنذر لله نذراً ، لئن شفاه الله تعالى من سقمه لَيحَرِّمَنَّ أحبَّ الشراب إليه وأحبَّ الطعام إليه ، وكان أحبُّ الطعام إليه لحمانَ الإبل ، وأحبُّ الشراب إليه ألبانَها ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهدْ عليهم ، فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق ، فأيُّهما علا كان له الولد والشَّبه بإذن الله ، إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله ؟ وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله ، قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهدْ عليهم ، فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبي الأميَّ تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهدْ ، قالوا : وأنت الآنَ فَحَدِّثْنا مَن وَلِيُّك من الملائكة ؟ فعندها نجا معك أو نفارقك ، قال : فإن وليي جبريل عليه السلام ، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليُّه ، قالوا : فعندها نفارقك ، ولو

---

١ ـ المقصود ما هى الصفة التى ينام عليها النبى ؟ وهى أن تنام عيناه وقلبه يقظان .

كان وليُّك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك !! قال : فما يمنعكم من أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدوّنا ! قال : فعند ذلك قال الله عز وجل :

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

<١>

فعند ذلك :

(فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ) <٢> الآية <٣>

---

١ ـ سورة البقرة : ٩٧ ـ ١٠١ .

٢ ـ سورة البقرة : ٩٠ .

٣ ـ مسند الإمام أحمد ٤ / ١٧٦ ـ ١٧٧ / شرحه وصنع فهارسه : " أحمد محمد شاكر " قال المحقق : إسناده صحيح ، وابن سعد فى الطبقات ١ / ١١٥ ، ١١٦ ، ورواه أحمد مختصراً ٤ / ١٥٧ ، ورواه أحمد أيضاً ٤ / ١٦١ .

وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨ / ٢٤١ ـ ٢٤٣ ، مطولاً ، وقال : رواه أحمد ، والطبرانى ، ورجالهما ثقات .

وانظر : ابن كثير فى تفسيره ١ / ١٢٩ .

أما وجه الدلالة من الحديث : فإن اليهود كانوا قد وعدوا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بالدخول في الإسلام ومتابعته إن وجدوا كل ما يخبرهم عنه موافقاً لما عندهم ، وقد وجدوا أن كل ما قاله لهم صلى الله عليه وسلم موافق لما عندهم ، وواقع في كتابهم : التوراة ، وقد أخبرهم به أنبياؤهم ، ولكنهم غدروا ونقضوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم ، ولم يوفوا بوعدهم وعهدهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا من طبيعتهم وخيانتهم للمواثيق والعهود التي التزموا بها ، ولكنهم نقضوها .

يقول **الطبرى رحمه الله** تعالى : " أجمع أهل التأويل أن هذه الآية :

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ‹١›

نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدوٌّ لهم ، وأن ميكائيل وليٌّ لهم " . ‹٢›

ومن غدر اليهود وبهتانهم ما حدث لعبد الله بن سلام منهم :

فقد أخرج **البخارى** بسنده ، عن أنس قال : " سمع عبد الله بن سَلَام بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أرضٍ يَخترف ‹٣› ، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى سائلكَ عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبيٌّ : فما أوَّلُ أشراطِ الساعة ؟ وما أوَّل طعامِ أهل الجنة ؟ وما يَنزِعُ الولدَ إلى أبيه أو أمه ؟ قال : أخبرَنى بهنَّ جبريلُ آنِفاً . قال : جبريل ؟ قال : نعم . قال : ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية :

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ‹٤›
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ

---

١ ـ سورة البقرة : ٩٧ .

٢ ـ جامع البيان /للطبرى ٢ / ٣٧٧ / بتحقيق / محمود شاكر ، وأحمد شاكر .

٣ ـ قوله : (يحترف) بالخاء المعجمة والفاء ، أى يجتنى من الثمار (فتح البارى ٧ /٢٥٢) .

٤ ـ سورة البقرة : ٩٧ .

أما أول أشراط الساعة فنار تحشرُ الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أولُ طعـام أهلِ الجنة فزيادةُ كبدِ الحوت ‹١› ، وإذا سبقَ ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولدَ ، وإذا سبقَ ماءُ المرأة نَزَعت ، قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، يارسول الله ، إن اليهودَ قومٌ بُهُت ‹٢› ، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهَم يَبْهتونى . فجاءت اليهود ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أيُّ الرجل عبدُ الله فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابنُ خيرنا ، وسيدُنا وابن سيدنـا ، قـال : أرأيتم إن أسلم عَبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذهُ الله من ذلك .

فخرج عبدُ الله فقال : أشهدُ أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله .

فقالوا : شرُّنا وابن شرِّنا ، وانتقَصوه . قـال : فهذا الذي كنتُ أخافُ يارسول الله " ‹٣› .

وهذا من غدر اليهود وخيانتهم ، قال ابن حجر رحمه الله : وسبب عداوة اليهود لجبريل أنه أُمر باستمرار النبوة فيهم حسب ظنهم ، فنقلها لغيرهم ، وقيل : لكونه يطلع على أسرارهم . وأصح منهما ماحكاه الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن سبب عداوة اليهود لجبريل أن نبيهم أخبرهم أن بختنصر سيخرب بيت المقدس ، فبعثـوا رجلاً ليقتله فوجـده شاباً ضعيفاً ، فمنعه جبريل من قتله ، وقال له : إن كان الله أراد هلاككـم على يـده فلن يسلط عليه ، وإن كان غيره فعلى أى

---

١ ـ قوله : (فزيـادة كبد الحوت) الزيادة هى القطعة المنفردة كالمعلقة فى الكبد ، وهى فى المطعم فى غاية اللذة ، ويقال : إنها أهنأ طعام وأمراه (فتح البارى ٧ / ٢٧٢) .

٢ ـ قوله : (قوم بهت) بضم الموحدة والهاء ، ويجوز إسكانها جمع بَهيت ، كقضيب وقضب ، وقليب وقلب ، وهو الذى يبهت السامع بما يفتريه عليه من الكذب (فتح البارى ٧ / ٢٧٣) .

٣ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٨ / ١٦٥ / كتاب التفسير / باب قوله : (من كان عدواً لجبريل) . ٧/٢٧٢ / كتاب المناقب / باب ٥١ .

وذكر ابن حجر فى رواية : " فقلت يارسول الله ألم أخبرك أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور " .

وفى رواية " فانتقصوه فقال : هذا ما كنت أخاف يارسول الله " انظر : فتح البارى ٧ / ٢٥٣ .

حق تقتله ؟ فتركــه ، فكبر بختنصر وغزا بيت المقدس فقتلهم وخرَّبه ، فصاروا يكرهون جبريل لذلك . (١)

وأما مظاهر فتنة اليهود وضلالهم وقتلهم الأنبياء بغير حق فقد ذكر القرآن الكريم في غير موضع منه هذه الجريمة البشعة قال عز من قائل :

﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢)

فقد كان اليهود يقتلون رسل الله الذين ابتعثهم الله لهدايتهم وإرشادهم لما فيه الخير لهم والصلاح بغير حق يستوجبون به القتل ، بل لأنهم أنكروا ما جاءوا به من الهدى والنور ، وجحدوا نبوتهم ، فأمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم كما أخبر القرآن :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة هذه الجريمة البشعة ، وللمبالغة في التقريع والتوبيخ لهم إغراقاً في التشنيع عليهم ، والمعنى : فإن كنتم يامعشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله إليكم فلم قتلتم أنبياء الله بغير حق ، وقد حُرم في التوراة عليكم قتلهم ؟ وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (٤)

---

١ ـ انظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ١٦٦ بتصرف يسير .

٢ ـ سورة البقرة : ٦١ .

٣ ـ سورة البقرة : ٩١ .

٤ ـ سورة آل عمران ٢١ ، ٢٢ .

ويذم الله ـ عز وجل ـ أهل الكتاب بما ارتكبوا من المآثم في تكذيبهم بالقرآن استكباراً وعناداً وإبعاداً عن الحق ، واستنكافاً عن اتباعه ، ومع هذا قتلوا من قتلوا من الأنبياء بغير حق ، حينما بلغوهم عن الله شرعه ، بغير سبب ولا جريمة منهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق وأمروهم بالمعروف ، مثل ما كانوا يقتلون من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر من الحكماء الذين يرشدون الناس إلى حسن المعاملة والفضائل مع أن مرتبتهم في الهداية والإرشاد تلي مرتبه الأنبياء ، وأثرهم في ذلك يلي أثرهم ، وأقْبِحْ بذلك جرماً ، وكفى به إثماً . وقد ضرب الله تعالى عليهم الذلة والصغار ، وألزمهم اياهما أينما كانوا ، بقوله عز من قائل :

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ‹١›

فقد حَقَّ على اليهود غضب الله ، وألزموا بالجزية قدراً وشرعاً كما قال تعالى :

قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ‹٢›

---

١ ـ سورة آل عمران : ١١٢ .

٢ ـ سورة التوبة : ٢٩ .

فأخبر اللّه تعالى أنه يُبْدلهم بالعزّ ذلاً ، وبالنعمة بؤساً ، وبالرّضا عنهم غَضَباً ، جزاء منه لهم على كفرهم بآيات اللّه ، وقتلهم أنبياءه ورسله ، اعتداءً وظلماً منهم بغير حق ، وعصيانا له تعالى ‹١› وقال أيضاً :

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا

‹٢›

* وأما تحريفهم لكلام اللّه تعالى فذلك بتغيره وتبديله ، وإن القرآن الكريم ذكر هذا التحريف في عدة مواضع منها الموضع الأول قوله تعالى :

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ‹٣›

وذكر **الطبرى** في تفسير هذه الآية رأيين :

١ ـ ما قاله ابن زيد في قوله : (يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ) ، قال : التوراة التي أنزلها عليهم ، يُحرِّفونها ، يَجعلونَ الحلال فيها حراماً ، والحرامَ فيها حلالاً ، والحق فيها باطلاً ، والباطلَ فيها حقّاً ، وإذا جاءهم المِحقّ برِشوة أخرجُوا له كتابَ اللّه ، وإذا جاءهم المبِطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب ، يعنى المحَّرف ، لا كتاب اللّه الصادق ، فهو فيه محقّ . وإن جَاء أحدُ يسألهم شيئاً ليس فيه حقٌّ ولا رشوة أمروه بالحق . ‹٤›

---

١ ـ جامع البيان ٢ / ١٣٧ .

٢ ـ سورة النساء : ١٥٥ .

٣ ـ سورة البقرة : ٧٥ .

٤ ـ جامع البيان / للطبرى ٢ / ٢٤٦ .

فقال تعالى عنهم :

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ‹١›

٢ ـ وما قاله **محمد بن إسحاق** ، فيما بلغه عن بعض أهل العلم : قالوا لموسى : ياموسى ، قد حيل بيننا وبين رؤية الله ، فأسمعنا كلامه حين يكلمك ، فطلب ذلك موسى عليه السلام من ربه ، فقال له : نعم ، مُرْهُمْ فَلْيَتَطَهَّرُوا أو ليطهروا ثيابَهم وليصوموا ، ففعلوا ، ثم خرج بهم حتى أتى الطُّورَ ، فلما غشيهُم الغَمام أمرهم موسى أن يسجدوا فوقعوا سُجَّداً ، وكلَّمه ربه ، فسمعوا كلامه تبارك وتعالى ، يأمرهم وينْهاهم ، حتى عَقلوا عنه ما سمعوا ، ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل ، فلما جاءهم حَرَّف فريق منهم ما أمرهم به وقالوا حين قال موسى لبنىَ إسرائيل : إن اللّه قد أمركم بكذا و كذا ، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم اللّه عز وجل : إنما قال : كذا وكذا ، خلافاً لما قال اللّه لهم ، فهم الذين عنى اللّه عز وجلّ لرسوله صلى الله عليه وسلم ‹٢› .

ثم قال **الطبرى** : وأولى التأويلين بالآية الكريمة من أن اللّه تعالى إنما عنىَ بذلك من سمع كلامهَ من بنى إسرائيل سماعَ موسى عليه السلام إياه منه ، ثم حَرّف ذلك وبدَّل ، من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إياه " . ‹٣›

---

١ ـ سورة البقرة : ٤٤ .

٢ ـ انظر : جامع البيان فى تفسير القرآن / للطبرى ٢ / ٢٤٦ ، ٢٤٧ " المحقق " والسيرة النبوية / ابن هشام / تحقيق : مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ٢ / ٥٣٧ .

٣ ـ تفسير الطبري ٢ / ٢٤٧ " المحقق " .

ثم قال رحمه الله : لكنه جل ثناؤه أخبر عن خاصّ من اليهود ، كانوا أعطوا ـ من مباشرتهم سَماعَ كلام الله ـ ما لم يُعطه أحدٌ غير الأنبياء والرسل ، ثم بدلوا وحرفوا ما سمعوا من ذلك . فلذلك وصفهم بما وصفهم به ، للخصوص الذي كانَ خصّ به هؤلاء الفريق الذي ذكرهم في كتابه .

وهذا إخبارٌ من الله جل ثناؤه عن إقدامهم على البَهْتِ ، ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى عليه السلام ، وأن بقاياهم من مُناصبتهم العداوة لله ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بغياً وحسداً على مِثل الذي كان عليه أو ائلهم من ذلك الجحود والعناد والكفر <١> .

* أما الموضع الثاني ففي قوله تعالى :

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا

<٢>

يقول **ابن كثير رحمه الله** : " يتأولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصداً منهم وافتراء " <٣> .

---

١ ـ جامع البيان / للطبرى ٢ / ٢٤٨ ، ٢٤٩ " المحقق " .

٢ ـ سورة النساء : ٤٦ .

٣ ـ ابن كثير ١ / ٥٠٧ .

ويقول **الرازى رحمه الله** : في كيفية التحريف وجوه منها :

١ ـ أنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر .

٢ ـ أن المراد بالتحريف إلقاء الشُّبَه الباطلة والتأويلات الفاسدة ، وصرف اللفظ من معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية ، كما يفعله أهل البدعة في زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم ، وهذا هو الأصح .

٣ ـ أنهم كانوا يدخلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويسألونه عن خبر فيخبرهم ليأخذوا به ، فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه . ‹١›

* والموضع الثالث قوله تعالى :

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ‹٢›

قال ابن كثير رحمه الله : " فسدت فُهومُهم وسوء تصرفهم في آيات الله ، وتأوّلوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا ما لم يقل . عياذاً بالله من ذلك " ‹٣› .

---

١ ـ التفسير الكبير / للفخر الرازى ١٠ / ١١٧ ، ١١٨ .

٢ ـ سورة المائدة : ١٣ .

٣ ـ ابن كثير ٢ / ٣٣ .

* أما الموضع الرابع ففى قوله عز وجل :

مِنَ ٱلَّذِينَ
هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ
ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ
يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟
وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
‹١›

قال ابن كثير رحمه الله : نزلت فى أقوام من اليهود قتلوا قتيلا ، وقالوا تعالوا نتحاكم إلى محمد . فإن حكم بالدية فاقبلوه ، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه .

والصحيح أنها نزلت في اليهوديّيْن اللذين زنيا . وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم ، فحرّفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة ، والتحميم ‹٢› والإركاب على حمارين مقلوبين ، أى تحوّل وجوههما من قبل دُبرُ الحمار . فلما وقعت الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه ، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه ، واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبيٌّ من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك . ‹٣›

---

١ ـ سورة المائدة : ٤١ .

٢ ـ قوله : (التحميم) أن يصب على الوجه ماء حار مخلوط بالرماد ، والمراد به تسخيم الوجه بالحميم وهو الفحم . (فتح البارى ٢ / ١٢٩) .

٣ ـ ابن كثير ٢ / ٨٥ .

وقد وردت هذه الحادثة في الصحيح : " عن ابن عمر رضى اللّٰه عنهما قال : " أتى رسولُ اللّٰه صلى الله عليه وسلم بيهودي ويهودية قد أحَدثا <١> جميعاً ، فقال لهم : ما تجدون في كتابكم ؟ قالوا إن أحبارنا أحدَثوا <٢> تحميمَ الوجهِ والتجبية <٣> ، قال عبدُ اللّٰه بن سَلام : ادعُهم يارسول اللّٰه بالتوراة ، فأتىَ بها ، فوضَع أحدهم يده على آية الرجم ، وجَعلَ يقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له ابن سلام : ارفع يدك فإذا آيه الرجم تحت يده ، فأمَر بهما رسول اللّٰه صلى الله عليه وسلم فُرجما ، قال ابن عمَر : فرُجما عند البَلاط <٤> ، فرأيت اليهوديَّ أجْنأ <٥> عليها <٦> .

---

١ ـ قوله : (أحدَثا) زنيا ، أى افعلا أمراً فاحشاً . (فتح البارى ١٢ / ١٢٩) .

٢ ـ قوله : (أحدَثوا) أى ابتكروا . (فتح البارى ١٢ / ١٢٩) .

٣ ـ قوله : (التجبية) بفتح المثناة وسكون الجيم وكسر الموحدة بعدها ياء آخر الحروف ساكنه ثم هاء اصلية : من جبهت الرجل أذا قابلته بما يكره من الأغلاط فى القول والفعل .

وقيل بوزن تذكرة ومعناه : الإركاب منكوساً ، وفسرت التجبية فى الحديث بأنهما يجلدان ويحمَّم وجوههما ، ويحملان على دابة مخالفا بين وجوههما . (فتح البارى ١٢ / ١٢٩) .

٤ ـ قوله : (البلاط) بفتح الموحدة وفتح اللام ما افترش به الدور من حجارة وأجر وغير ذلك . والمراد به موضع معروف عند باب المسجد النبوى كان مفروشاً بالبلاط ، وقيل البلاط بالمدينة ما بين المسجد والسوق . (فتح البارى ١٢ / ١٢٨) .

٥ ـ قوله : (أجْنأ عليهما) ضبطت بالحاء المهملة ثم نون بلفظ الفعل الماضى أى أكب عليها يقال : أحنت المرأة على ولدها حنوا ، وحنَت بمعنى ، وضبطت بالجيم والنون : جنأ على الشىء جنأ ظهر عليه والصحيح بالجيم والهمزة (فتح البارى ١٢ / ١٢٩) .

٦ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٢ / ١٢٨ / كتاب الحدود / باب الرجم فى البلاط ، و ١٢ / ١٦٦ كتاب الحدود / باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورُفعوا إلى الإمام .

فهذه بعض أمثلة من طبائع اليهود الدنيئة وسجاياهم الخسيسة ، وفساد قلوبهم ، وامتلائها بالحقد والحسد والبغضاء على الإسلام والمسلمين ، وكذبهم وغدرهم وعصيانهم الله الذي فضلهم على العالمين في زمانهم وقتلهم الأنبياء والعلماء بغير حق ، وقولهم الزور ، وتحريفهم لكتابهم ، فكان جزاء هذا كله أن غضب الله عليهم ولعنهم وأبعدهم عن رحمته لأنهم ضلوا وأضلوا عن طريق الحق ، وقد قال تعالى مخبراً عنهم :

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ

<١>

في هذه الآيات النهى عن الغلو في الدين ـ وهو تجاوز الحد في اتباع الحق ، كما فعل النصارى في رفع عيسى عليه السلام منزلتة الرسالة والنبوة فجعلوه الهاً ، وكل ذلك من الغلو المذموم <٢> .

---

١ ـ سورة المائدة : ٧٧ ـ ٨١ .

٢ ـ انظر : فتح القدير : ٢ / ٦٥ ، وروح المعاني : ٦ / ٢١٠ .

وقوله : (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) .

نهى للمؤمنين عن اتباع اليهود والنصارى لأنهم ضلوا في شريعتهم ، وذلك قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، فقد أضلوا كثيراً من الناس ممن تبعهم ووافقهم فيما دعوا إليه من البدعة والضلالة ، وضلوا عن الطريق المستقيم بعد البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بعد وضوح الحق فيها ثم بخير سبحانه وتعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أنه طرد الكافرين من بني اسرائيل في قوله : (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا أو كانوا يعتدون) .

أى طرد الكافرين من بني اسرائيل على لسان داود نبيه ، وعلى لسان عيسى ابن مريم عليهما السلام بسبب عصيانهم ومجاوزتهم حدود الله واعتدائهم على خلقه .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « لعنوا في التوراة والانجيل والزبور ، والفرقان » . ثم بين الله حالهم في زمانهم ، فقال عنهم (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه بئس ما كانوا يفعلون) . أى كانوا لا ينهى أحد منهم احداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، وقد ذمهم الله تعالى على فعل هذا ليحذر المؤمنين أن يتبعوا سمتهم السيئة في ذلك . ‹١›

وقوله : (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون) .

الخطاب للنبى صلي الله عليه وسلم أو لكل من تصلح منه الرؤية البصرية ، أى ترى يا محمد كثيراً من بنى اسرئيل . ويرى من شاهدهم .

والضمير (منهم) لأهل الكتاب . ‹٢›

---

١ ـ انظر ابن كثير : ٢ / ٦١٧ ، ٦١٨ ، وتفسير ابى السعود : ٣ / ٦٩ ، وفتح القدير : ٢ / ٦٥ .

٢ ـ روح المعانى : ٦ / ٢١٣ ، وتفسير ابى السعود ٣ / ٧٠ بتصرف .

(لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم) أى بتلك الموالاة للكافرين وترك موالاة المؤمنين التى اعتقبتهم نفاقاً في قلوبهم ، وسخط الله عليهم مستمرٌ إلى يوم المعاد ، ثم اخبر عنهم أنهم (في العذاب هم خالدون) أى عذاب جهنم خالدون وباقون فيه أبد الآبدين . <١>

وقوله : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون) .

لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبى وما انزل إليه ، ولكن كثيراً من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله ورسوله منطوون على النفاق مفرطون فيه . <٢>

وأما شدة عداوة اليهود لرسوله صلى الله عليه وسلم فقد صَرَّح بها القرآن الكريم في أكثر من موضع ، وأشارت إليها السنة النبوية . ومنها أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : السام عليك ، أى الموت .

كما جاء في الصحيح من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : دخل رَهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السامُ عليك ففهمتُها فقلتُ : عليكم السامُ واللعنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلاً ياعائشة ، فإن الله يحبُّ الرفق في الأمر كله ، فقلت : يارسول الله أو لم تسمعْ ما قالوا : ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقد قلت : عليكم . <٣>

وكان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم " رَاعِناَ " ، ويقصدون بها الرعاية والمراقبة لمقصد الخير وحفظ الجانب ، ولكن اليهود اغتنموها لموافقة كلمة سيئة عندهم ، معناها اسمع لا سمعتَ ، وهى من الرعونة أى الحمق ، لأنهم كانوا إذا أرادوا أن يحمقوا إنساناً قالوا : رَاعِناً ، يعنى يا أحمق .

---

١ ـ ابن كثير : ٢ / ٦٢٢ ، وتفسير ابى السعود ٣ / ٧٠ بتصرف .

٢ ـ المرجع السابق .

٣ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١١ / ٤١ ، ٤٢ / كتاب الإستئذان / باب كيفَ الرَّد على أهل الذَّمة بالسلام ١٠ / ٤٤٩ / كتاب الأدب / باب الرفق فى الأمر كله .

قوله : (السامُ عليك) يريدون الموت العاجل . قال ابن شهاب : والسامُ : الموت . (فتح البارى ١٠ / ١٤٣ / كتاب الطب / باب الحبةِ السوداء) .

فلما سمع اليهود هذه اللفظه من المسلمين قالوا فيما بينهم : كنا نسبّ محمداً سراً ، فأعْلِنُوا بها الآن ، فكانوا يأتون رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ويقولون له : رَاعِناً يامحمد ، ويضحكون فيما بينهم ، فسمعها سعد بن معاذ رضى اللّه عنه ، وكان ممن يعرف لغتهم ، ففطن لها ، ثم قال لليهود : لئن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم لأضربنَّ عنقه ، فقالوا له : أو لستم تقولونها ؟ فأنزل اللّه تعالى قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ <١>

فنهى سبحانه وتعالى المؤمنين أن يقولوا هذه الكلمة لئلا يجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم أن يقولوا بدلا منها : " انْظرْناَ " أى انظر إلينا ، أو انتظر وتأنَّ بنا <٢> وبلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يقولون له : سمعنا يامحمد ما تقول ، ولكننا عصينا ، فلا نؤمن ولا نطيع ، كما يشير إليه قوله عز وجل :

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ <٣>

قال سيد قطب : " كانت لليهود هذه الجرأة على مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم ، ففى ظاهر اللفظ أنهم يقولون : اسمع غير مأمور بالسمع ، ورَاعِناً : أى انظر إلينا نظرة رعاية لحالنا ، أو نظرة اهتمام لوضعنا ، ويقصدون : اسمع ــ لا سمعتَ ، ولا كنت سامعاً ! ورَاعِناً : يعنون بها الوصف بالرعونة .

---

١ ــ سورة البقرة : ١٠٤ .

٢ ــ انظر : معالم التنزيل / للبغوى ١ / ١٠٢ بتصرف .

٣ ــ سورة النساء : ٤٦ .

وهذا من سوء أدبهم ، والتوائهم ، وتحريفهم للكلم عن مواضعه ومعانيه ، فهم لا يواجهون الحـق بهذه الصراحة ، وهذه الاستقامة ، ولو أنهم واجهوه هكذا بالألفاظ الصريحـة التي لا التواء فيهـا : (سمعنا وأطعنا . واسمع وانظرنا) لكان هذا خيراً لهم ، وأقوم لطبيعتهم ، وأنفسهم وحالهم ، لكن واقع الأمر أنهم بسبب كفرهم مطرودون من هداية الله فلا يؤمن منهم إلا القليل ‹١› .

وقـد وصمـهم الله تعالى بفعلتهم الشنيعة التي كانوا بها يحرفون الكلم ، ويتـأولونه على غير تأويله ، ويفسرونـه بغـير مراد الله تعالى افتراء منهم وكذباً ، وأنهم كانوا يؤذون رسـول الله صلى الله عليه وسلم بالقول القبيح فوصفهم الله بقوله عز وجل :

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ‹٢›

ومن عداوة أهل الكتاب ـ **اليهود والنصارى** ـ أنهم حاولوا أن يفتنوا النبي صلى الله عليه وسلم عن دينه ، ذكر ابن اسحاق أن كعب بن أسد ، وابن صلُوبا ، وعبد الله بن صُوريا ، وشاس بن قيس ، قال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فإنما هو بشر ، فأتوه فقالوا : يامحمد ، إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم وأنا إن اتبعناك اتبعك يهود ، ولم يخالفونا ، وأن بيننا وبين

١ ـ في ظلال القرآن ٢ / ٦٧٦ بتصرف .

٢ ـ سورة التوبة : ٦١ .

٣ ـ انظر : سيرة ابن هشام ٢ ٥٦٧ .

قومنا خصومة ، أفنحاكمهم إلي فتقْضى لنا عليهم ، ونؤمن بك ونصدقك ؟ فأبى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ذلك <١> فأنزل اللّٰه تعالى :

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

<٢>

أمر اللّٰه تعالى نبيه صلى اللّٰه عليه وسلم أن يحكم بين اليهود بحكم اللّٰه الذى أنزله إليه في كتابه ـ القرآن الكريم ـ .

وقوله (**ولا تتبع أهواءهم**) .

أى أهواء اليهود الذين احتكموا إليه في الزانيين المحصنين . <٣>

وأمر منه تعالى لنبيه صلى اللّٰه عليه وسلم بلزوم العمل بكتابه الذى أنزل إليه .

وقوله (**واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل اللّٰه إليك**) .

أى احذر يا محمد ، من هؤلاء اليهود الذين جاءوك محتكمين إليك أن يصدّوك عن بعض ما أنزل اللّٰه إليك من حكم كتابه ، وحملك على ترك العمل به .

وقوله (**فإن تولو فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم**) .

---

١ ـ انظر : سيرة ابن هشام ٢ ٥٦٧ .

٢ ـ سورة المائدة : ٤٩ ، ٥٠ .

٣ ـ انظر : ٣٢١ ـ ٣٢٢ من الرسالة .

أى فإن أعرض هؤلاء اليهود الذين اختصموا إليك يا محمد ، وتركوا العمل بما حكمت به وقضيت فيهم بالحق ، من أجل أن الله يريد أن يتعجل عقوبتهم في الدنيا ببعض ما قد سلف من ذنوبهم .

وقوله : **(وإن كثيراً من الناس لفاسقون)** .

أى إن كثيراً من اليهود لتاركوا العمل بكتاب الله ، وخارجون عن طاعته إلى معصيته .

وقوله : **(أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)** .

يقول الحق تعالى لنبيه صلي الله عليه وسلم : أيبغى هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك يا محمد ولم يرضوا بحكمك ، إذ حكمت بينهم بالقسط ، ولكن يبتغون ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون من الضلال والجهل والتفاضل مما يصنعونه بآرائهم وأهوائهم ، وعن حكم الله يعدلون ولا يرضون .

فيقول لهم موبخاً ، ومستجهلاً فعلهم هذا ، ومن هذا الذى هو أحسن حكماً من الله ، إن كنتم موقنين أن لكم رباً ، وكنتم أهل توحيد واقرار به . <١>

ومن العجب والتناقض الذي يدل على حَيل اليهود وحقدهم على النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، ويستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، ويقولون لهم : إنه سيُبعث نبى في آخر الزمان ، نقاتل معه قتال عاد وإرم <٢> ، فلما

---

١ ـ جامع البيان : ١٠ / ٣٩٢ ـ ٣٩٤ ، وابن كثير : ٢ / ٥٨٩ ـ ٥٩٠ بتصرف .

٢ ـ أما عاد : فهم عقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

وقيل للأولين منهم : عاد الأولى ، وهم قوم هود عليه السلام .

وأما إرم : فهو تسمية لهم باسم جدهم ، وقيل لهم ولمن بعدهم : عاد الأخرى . وقيل : " إرم " اسم بلدتهم وأرضهم التى كانوا فيها . والأول أصح ، وكانت عاد ذات أجرام وقوة ، وكان الرجل منهم يأتى الصخرة العظيمة ، فيحملها ويلقيها على الحيّ فتهلكهم . وانظر : الكشاف ٤ / ٣٤ ، ٢٥٠ .

بعثه الله من العرب ـ قريش ـ كفروا به وحسدوه ، وجحدوا ماكانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن مَعْرور ، أخو بني سلَمة : يامعشر يَهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تسفتحوَن علينا بمحمد ونحن أهل شرك ، وتخبرونا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفة ، فقال سَلام بن مِشْكم ، أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكره لكم <١> فأنزل الله في ذلك قوله :

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ <٢>

ولقد كان اليهود بالمدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين إليها دائبي السعي في الوقيعة بين المسلمين ، ولا سيما الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ ففي كتب السيرة والتفسير ذكر : أن رجلاً منهم يسمى شاس بن قيس ، وكان شيخاً عظيم الكفر ، شديد الضِّغْن على المسلمين ، كثير الحسد والعداوة لهم ـ مَرَّ على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، وإصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : اجتمع الملأ من بني قَيْلَة <٣> بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار ، فأمر شاباً من يهود كان معهم فقال له : اعمِدْ إليهم ، فاجلس معهم ، ثم ذكرهم يوماً بُعاث <٤> وما كان قبله ،

---

١ ـ انظر : سيرة ابن هشام ٢ / ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ . وابن كثير ١ / ١٢٤ . [اللسان ـ عوده ـ أرم ١٢ / ١٣ ـ ١٦] .

٢ ـ سورة البقرة : ٨٩ .

٣ ـ قَيْله : بالقاف المفتوحة والياء الساكنة : اسم أم الأوس والخزرج قديمة ، وهى قيلة بنت كاهل / النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤ / ١٣٤ .

٤ ـ بُعاث : اسم حصن للأوس ، وعنده دارت رحى الحرب بين الأوس والخزرج فى الجاهلية وكان الظفر فيها يومئذٍ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس " حُضير بن سماك الأشهلى ، أبو أسَيْد بن حُضَير " وعلى الخزرج " عمرو بن النعمان البَياضِيّ " فقتلا جميعاً . اللسان (بعث) ١٠ / ١١٦ ـ ١١٨ وسيرة ابن هشام ٢ / ٥٥٥ .

وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار ـ وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا حتى وثب رجلان من الحيين على الرُّكَب وهما " أوس بن قيظى " أحد بني حارثة ، من الأوس ، و"جبار بن صخر" أحد بني سلمة من الخزرج ، فتقاولا فقال أحدهما لصاحبه :إن شئتم رددناها الآن جذعة ، <١> وغضب الفريقان ، وقالا : قد فعلنا ، السلاحَ ، السلاحَ موعدكم الظاهرة (الحَرَّة) ، فخرجوا إليها ، وانضمت الأوس والخزرج بعضهم إلى بعض على دعواهم في الجاهلية ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال : " يامعشر المسلمين ، الله ، الله أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس " <٢> .

---

١ ـ جذعة : جديدة كما بدأت . وإذا طفئت حرب بين قوم قال بعضهم : إن شئتم أعدناها جذعة ، أي أول ما يُبتدأ بها [اللسان ـ جذع] ٨ / ٤٧ ـ ٤٩ .

٢ ـ انظر : سيرة ابن هشام ٢ / ٥٥٥ ـ ٥٥٧ ، والطبرى ٢ / ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، وابن كثير ١ / ٥٠٧ .

وأنزل الله تعالى فى أوس بن قَيْظى ، وجَبَّار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صَنعوا بسبب مقالة شاس بن قيس ، قوله عز وجل :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ‹١›

ومن مظاهر عداوتهم للمسلمين ومكرهم بهم ما أخبرنا به القرآن الكريم ، من أن طائفة من اليهود قالت لطائفة أخرى منهم : آمنوا وصدقوا بالذي أنزل على المؤمنين ـ وهو ما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الدين وشرائع الإسلام أولَ النهار ، ثم اكفروا به آخر النهار ، فهذا أجدر أن يصدقوكم ، ويعملوا أنكم قد رأيتم في دينهم ما تكرهون فيكون سبباً في رجوعهم عن دينهم . ‹٢›

وفي ذلك يقول عز وجل :

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ‹٣›

---

١ ـ سورة آل عمران : ١٠٠ ـ ١٠٣ .

٢ ـ انظر : جامع البيان للطبرى ٦ / ٥٠٦ ـ ٥١٠ .

٣ ـ سورة آل عمران : ٧٢ .

وذكر **الطبري** ما نقل عن السدى : (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) ، كان أحبارُ قُرَى عربية اثنى عشر حبراً ، فقال بعضهم لبعض : ادخلوا في دين محمد أول النهار ، وقولوا :" نشهد أن محمداً حقّ صادقٌ " . فإذا كان آخر النهار فاكفروا ، وقولوا : " إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم ، فحدثونا أن محمداً كاذب ، وأنكم لستم على شيء ، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم " لعلهم يشكّون ، ويقولون : هؤلاء كانوا معنا أول النهار ، فما بالهم ؟ فأخبر اللّه عز وجل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بذلك . ‹١›

وقال **الرازى رحمه اللّه** : اليهود تواطئوا على إظهار الإسلام أول النهار ، ثم الرجوع عنه في آخر النهار لتشكيك ضعفة المسلمين في صحة الإسلام ، وهو أن يظهروا تصديق ما ينزل على محمد صلى اللّه عليه وسلم من الشرائع في بعض الأوقات ، ثم يظهروا بعد ذلك تكذيبه ، فإن الناس متى شاهدوا هذا التكذيب قالوا : هذا التكذيب ليس لأجل الحسد والعناد ، وإلا لما آمنوا به في أول الأمر وإذا لم يكن هذا التكذيب لأجل الحسد والعناد ، وجب أن يكون ذلك لأجل أنهم أهل الكتاب ، وقد تفكروا في أمره واستقصوا في البحث عن دلائل نبوته ، فلاح لهم بعد التأمل التام ، والبحث الوافي ، أنه كذاب ، فيصير هذا الطريق شبهة لضَعَفة المسلمين في صحة نبوته ، ولكن اللّه أخبر نبيه عن تواطئهم على هذه الحيلة .

ثم قال رحمه اللّه : إن لهذه الحادثة وجوها :

١ ـ أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم ، وما أطلعوا عليها أحداً من الأجانب ، فلما أخبر الرسول صلى اللّه عليه وسلم عنها كان ذلك إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً للنبي صلى اللّه عليه وسلم .

---

١ ـ جامع البيان ٦/ ٥٠٧ .

٢ ـ أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها أثر في قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلان لكان ربما أثرت هذه الحيلة في قلب بعض من كان في إيمانه ضعف .

٣ ـ أن القوم لما افتضحوا في هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس . ‹١›

وليس أدل على شدة عداوة اليهود للإسلام والمسلمين مما قاله عز وجل :

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ
وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

‹٢›

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)
جملة مستأنفة لتقرير ما سبق من قبائح اليهود ، وأكدت بالقسم اعتناء ببيان تحقق مضمونها ، والخطاب إما لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له إيذاناً حالهم مما لا يخفى على أحد من الناس .

وأن الطائفتين أشد عداوة للمؤمنين ، ووصفهم الله تعالى بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى وقربهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الانبياء عليهم السلام والاجتراء على تكذيبهم ومناصبتهم . ‹٣›

---

١ ـ التفسير الكبير للفخر الرازى ٨ / ٩٣ ـ ٩٥ .

٢ ـ سورة المائدة : ٨٢ .

٣ ـ تفسير ابى السعود : ٣ / ٧١ ، وروح المعانى : ٧ / ٢ بتصرف .

وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ، ومباهتة للحق ، وغمط للناس ، وانتقاص لحملة العلم ، ولهذا كانت عداوتهم للإسلام والمسلمين والرسول صلى الله عليه وسلم قد أطلّت بقرونها منذ مبعثه ، ثمّ اشتعلت نيرانها واشتد أوارها بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأصبح يساكنهم فيها ، فأخذوا يكيدون له ، ويحاولـــون قتله وسحره ودس السم له ، والرسول صلى الله عليه وسلم يعاملهم بالحسنى .

وقوله : (**ولتجدن أقربهم مودة لذين آمنوا**) إلى قوله : (**فاكتبنا مع الشاهدين**) .

قال الطبرى : « أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى ، يؤمنون به ، فلما بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم صدقوا به ، وعرفوا أن الذى جاء به هو الحق ، فأثنى عليهم » . ‹١›

(**ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون**) أى قَرُبت مودة هؤلاء الذين وصف الله صفتهم للمؤمنين من أجل أن منهم علماء وأهل اجتهاد في العبادة ، وأن منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها ، وهم لا يبعدون عن المؤمنين لتواضعهم للحق إذا عرفوه ، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه بل هم متواضعون ، بخلاف اليهود فهم على ضد ذلك . ‹٢›

وقوله :

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ

‹٣›

---

١ ـ جامع البيان : ١٠ / ٥٠١ بتصرف (المحقق) .

٢ ـ جامع البيان : ١٠ / ٥٠١ ـ ٥٠٦ باختصار وفتح القدير : ٢ / ٦٨ باختصار .

٣ ـ سورة المائدة : ٨٣ .

أى مما عندهم من البشارة ببعثة النبى صلى اللّٰه عليه وسلم ، وانهم إذا سمعوا القرآن رأيت أعينهم تفيض من الدمع ، وهذا بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم اعراضهم عنه .

ومع صحه هذا يقولون ربنا آمنا بما أنزلت وبالذى أنزل عليه ، واجعلنا عندك مع محمد صلى اللّٰه عليه وسلم وأمته الذين يشهدون يوم القيامة . ‹١›

أخرج الحاكم بسنده عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما : (فاكتبنا مع الشاهدين) .

قال : « مع محمد صلى اللّٰه عليه وسلم وأمته هم الشاهدون ويشهدون لنبيهم صلي اللّٰه عليه وسلم أنه قد بلغ ، وللرسل أنهم قد بلغوا . ‹٢›

ومع كل هذه المكائد والخيانات وصنوف الغدر عصم اللّٰه نبيه محمد صلى اللّٰه عليه وسلم لقوله :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ
مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ
مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ

‹٣›

وأما ابن كثير فيقول في تفسير الآية : « يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً باسم الرسالة ، وآمراً له بابلاغ ما أرسله اللّٰه به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، وقام به أتم قيام » . ‹٤›

---

١ ـ ابن كثير : ٢ / ٣٢٥ بأختصار ، وروح المعانى : ٧ / ٥ بأختصار .
٢ ـ المستدرك على الصحيحين : ٢ / ٣١٣ / كتاب التفسير وقال الحاكم صحيح الاسناد ووافقه الذهبى .
٣ ـ سورة المائدة : ٦٧ .
٤ ـ ابن كثير : ٢ / ٦٠٩ .

جاء في الحديث الصحيح : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « من حدثك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب ، والله يقول (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك) الآية . ‹١›

والطبرى يقول : « هذا أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بإبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتابين الذين قصصهم في هذه السورة ، وذكر فيها معايبهم ، واجتراءهم على ربهم ، وتكذيبهم على انبيائهم ، وتبديلهم كتابه ، وتحريفهم إياه ، ورداءة مطاعمهم ومآكلهم » ‹٢› .

ووعد الله تعالي نبيه صلي الله عليه وسلم بالعصمة من الناس ، « كان النبى صلي الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية » :(**والله يعصمك من الناس**) .

فاخرج النبى صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم : « ياأيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » ‹٣›

قال الشوكاني : « إن الله سبحانه وعد نبيه صلى الله عليه وسلم بالعصمة من الناس دفعاً لما يظن أنه حامل على كتمان البيان ، وهو خوف لحوق الضرر من الناس ، وقد كان ذلك بحمد الله فإنه بين لعباد الله ما أنزل إليهم على وجه التمام ، وقتل صناديد الشرك وفرق جموعهم وبدد شملهم ، وكانت كلمة الله هي العليا » . ‹٤›

---

١ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى : ٨ / ٢٧٥ / كتاب التفسير / باب (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) .

٢ ـ تفسير الطبرى : ١٠ / ٤٦٧ .

٣ ـ المستدرك على الصحيحين : ٢ / ٣١٣ / كتاب التفسير / وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووفقه الذهبى .

٤ ـ فتح القدير : ٢ / ٦٠ مختصراً .

وأمر الله رسوله صلي الله عليه وسلم أن يبلغهم ما أنزل عليه فيهم من معايبهم وتقصيرهم ، والتهجين لهم ، وما أمرهم به ، ونهاهم عنه ، ولا يشعر في نفسه حذراً منهم أن يصيبوه في نفسه بمكروه ، مما قام فيهم بأمر الله تعالى ، ولا جزعاً من كثرة عددهم وقلة عدد من معه ، وأن لا يتقى أحداً في ذات الله ، فإن الله تعالى كافيه كل أحد من خلقه ، ودافع عنه مكروة كل من يبغى إلحاق ضرر به .

واعلمه تعالي أنه إن قصر عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه فهو في تركه تبليغ ذلك وإن قل ما لم يبلغ منه ، فهو في عظيم ما ارتكب بذلك من الذنب بمنزلة من لم يبلغ من تنزيله شيئاً .

وأن نبينا صلى الله عليه وسلم قد أمتثل لأمر ربه جل جلاله وقام به على أكمل الوجوه وأتم القيام ، ولم يجعل الله لهم عليه سبيلاً إلي الضرر به والنيل منه . (١)

لقوله تعالي :

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (٢)

في هذه الآية يخبر الله تعالى عن جرأة اليهود على ربهم ووصفهم له سبحانه وتعالى بما ليس من صفاته ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وفيها توبيخ من الله تعالى لهم بذلك ، وتعريف لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن جهلهم واغترارهم ، وانكارهم جميع أياديه ونعمه ، وكثرة صفحه عنهـم وعفوه عن

---

١ ـ جامع البيان : ١٠ / ٤٦٧ « المحقق » باختصار وتصرف .

٢ ـ سورة المائدة : ٦٤ .

عظم إجرامهم ، واحتجاجاً لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه النبى المبعوث والرسول المرسل ، وكانت هذه الانباء التى انبأهم بها كانت من خفي علومهم ولا يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم دون غيرهم من اليهود ، فاطلع الله تعالى نبيه صلي الله عليه وسلم ليقرر عندهم صدقه ، ويقطع بذلك حجتهم . ‹١›

فكانوا كلما عقدوا أسباباً ليكيدوا بها النبي صلى الله عليه وسلم أبطلها الله تعالى ، وكلما أبرموا أموراً يحاربون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أطفأها الله ، ورد كيدهم في نحورهم ، وحاق بها مكرهم السيىء لأنهم كانوا دائما يسعون بالفساد في الأرض والله ينهى عن الفساد ولا يحب المفسدين‹٢›.

ونزلت الآية في فنحاص اليهودى ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : « إن الله بسط على اليهود حتى كانوا أكثر الناس أموالاً واخصبهم ناحية فلما عصوا الله ومحمداً صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف عنهم ما بسط عليهم من السعة ، فعند ذلك قال فنحاص : (يد الله مغلولة) يعنى محبوسة مقبوضة عن الرزق والبذل والعطاء ، فنسبوا الله تعالى إلى» البخل والقبض ــ تعالى الله ــ عن قولهم علواً كبيراً .

ولما قال هذه المقالة الخبيثة فنحاص ولم ينهه بقية اليهود ورضوا بقوله لاجرم أن الله أشركهم معه في هذه المقالة . ‹٣›

الله تعالى رد عليهم بقوله : (**بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء**)

أى بالبذل والإعطاء والارزاق لعباده .

---

١ ــ جامع البيان : ١٠ / ٤٥٠ باختصار .

٢ ــ انظر : ابن كثير ٢ / ٧٦ ، بتصرف .

٣ ــ الخازن وبهامشه البغوى : ٢ / ٥٨ .

وقوله (**وليزيدن كثيراً منهم**) أى علماءهم واحبارهم والمقيمين على الكفر منهم وقوله : (**ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً**) .

أى كلما نزلت عليك يا محمد أية من القرآن كفروا بها ، وازداد واشدة في كفرهم ، وغلوا في إنكارهم ومما قد عرفوا وعلموا من صحة نبوتك . ‹١›

ثم قال : (**وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين**) .

أى أنه لا تجتمع قلوبهم على المحبة والإخلاص بل على العداوة والخصومة بين فرقهم ، ولا يجتمعون على حق بل على ضلال وهم يخالفونك ويكذبونك ، ويعقدون فيما بنيهم اسباباً ليكيدوك ولكن الله تعالى يبطلها ويرد كيدهم عليهم ويحيق مكرهم السيء بهم .

ومن سجيتهم أنهم دائماً يسعون بالإفساد في الأرض بمعصية الله تعالى والكفر باياته ، والتكذيب برسله ، ومخالفة أمره وارتكاب نهيه والله لا يحب المفسدين في أرضه . ‹٢›

ومن عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم حاولوا أن يقتلوه ، وذلك حينما خرج عليه الصلاة والسلام إلى بنى النضير يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْرى للجوار الذي كان رسول صلى الله عليه وسلم عقده لهما ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف ، وقالوا : ياأبا القاسم نُعينك على ما أحببت واستعنت بنا عليه .

---

١ ـ جامع البيان : ١٠ / ٤٥٦ ، ٤٥٧ باختصار ، والخازن وبهامشه البغوى : ٢ / ٥٩ باختصار .

٢ ـ انظر : ابن كثير ٢ / ٦٠٦ ، بتصرف .

ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن ، فَمْن رجلٌ يَظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال : عمرو بن جحاش بن كعب : أنا ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء ، فانصرف عنهم (١) فأنزل الله عز وجل فيهم قوله تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ (٢)

ومن غدرهم أنهم قد سحروا النبي صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد ذلك ما أخرجه البخارى بسنده : عن عائشة رضى الله عنها قالت : سَحر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ من بنى زُريَق ، يقال له : لَبِيدُ بن الأعصم ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخيل إليه أنه كانَ يفعل الشىء وما فَعله (٣) حتى إذا كان ذات يوم ـ أو ليلةٍ ـ وهو عندى ، لكنهُ دعا ودَعا ثم قال : ياعائشة ، أشَعَرتِ أن الله أفتانى فيما

١ ـ انظر : قصة قتل عمرو بن أمية الضمرى للعامريين فى / جامع البيان ١٠ / ١٠١ ، وسيرة ابن هشام ٢ / ٥٦٣ ، ٣ / ١٩٠ ـ ١٩٢ ، وابن كثير ٢ / ٣١ .

٢ ـ سورة المائدة : ١١ .

٣ ـ المراد بالتخيل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سابق عادته من الاقتدار على الوطء ، فإذا دنا من المرأة فتر عن ذلك كما هو شأن المعقود ، وهذا ما نقله ابن حجر عن عياض (انظر : فتح البارى ١٠ / ٢٢٧) .

استَفتيتهُ فيه ؟ أتاني رجُلان <١> ، فقعَدَ أحدهما عند رأسي ، والآخرُ عند رجليَّ فقال أحدهما لصاحبهِ : ما وَجَعُ الرَّجل ؟ فقال : مَطبوب <٢> . قال : من طَبَّه ؟ قال : لَبيدُ بن الأعصــــم . قال : في أيِّ شيء ؟ قالَ : في مُشط <٣> ومُشاطة <٤> ، وجُفٍّ <٥> طلْع نخلةٍ ذكر . قال : وأين هو ؟ قال : فى بئر ذَروانَ <٦> . فأتاها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في ناس من أصحابه .

فجاء فقال : ياعائشة ، كأن ماءها نقاعة حناء <٧> ، وكأن رءوس نخلها رءوس الشياطين <٨> .

---

١ ـ أما قوله : (أتاني رجلان) ، قال ابن حجر : ووقع فى رواية عند أحمد ، والطبرى . " أتانى ملكان " وسماهما ابن سعد فى روايه منقطعة جبريل وميكائيل .
ثم قال ابن حجر : هذا احتمال ./ فتح البارى ١٠ / ٢٢٨) .

٢ ـ قوله : (مطبوب) أى مسحور ، يقال : طُب الرجل بالضم ، إذا سُحر ، يقال : كنوا عن السحر بالطب تفاؤاً ، كما قالوا للديغ : سليم (فتح البارى ١٠ / ١٢٨) .

٣ ـ قوله : (فى مُشط ومُشاطة) أما المشط : بضم الميم ، ويجوز كسرها ، وبالسكون فيهما . وقد يضم ثانيه مع ضم أوله فقط ، وهو الآلة المعروفة التى يسرح بها شعر الرأس واللحية .
وهذا هو المشهور (فتح البارى ١٠ / ١٢٩) .

٤ ـ (والمشاطة) ما يخْرج من الشعر إذا مشط . قال ابن حجر : وهذا لا اختلاف فيه بين أهل اللغة (فتح البارى ١٠ / ٢٣١) .

٥ ـ وقوله : (وجُفٍّ طلع نخلة ذكر) هو الغشاء الذى يكون على الطلع ، ويطلق على الذكر والأنثى .

٦ ـ وقوله : (فى بئر ذروان) أى بئر فى بنى زريق ، قال ابن حجر : فعلى هذا فقوله : (بئر ذروان) من إضافة الشىء لنفسه . (انظر : فتح البارى ١٠ / ٢٣١) .

٧ ـ قوله : (كأن ماءها نقاعة حناء) أى البئر ، (نقاعة حناء) بضم النون وتخفيف القاف .
والحناء معروف ، وهو بالمد أى أن لون ماء البئر لون الماء الذى ينقع فيه الحناء .
قال ابن التين : أحمر ، وقال الداودى : المراد الماء الذى يكــون من غسالة الإناء الذى تعجن فيه الحنـاء . (الفتح ١٠ / ٢٣٠) .

٨ ـ قوله :(وكأن نخلها رءوس الشياطين)شبه طلعها فى قبحه برءوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح ، ويحتمل أن يكون المراد بالشياطين الحيات ، والعرب تسمى بعض الحيات شيطاناً ، وهو ثعبان قبيح الوجه .
ويحتمل أن يكون المراد نباتاً قبيحا ، قيل : إنه يوجد باليمن (الفتح ١٠ / ٢٣٠ ، ٢٣١) .

قلت : يارسول الله ، أفلا استخرجته <١> ؟ قال : قد عافاني ، فكرهتُ أن أثيرَ على الناس <٢> منه شراً . فأمرَ <٣> بها فدفنت " <٤> .

أما حادثة السم التي وقعت للنبي صلى الله عليه وسلم على يد اليهود فقد ذكرت في الصحيحين أيضاً من حديث : " أبي هريرة قال : لما فُتحت خيبرُ أهديَت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سَمٌّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجمعوا لى من كان هاهنا من اليهود ، فجُمعوا له ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى سائلكم عن شيء ، فهل أنتم صادقونى عنه ؟ فقالوا : نعم يا أبا القاسم : فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أبوكم ؟ قالوا : أبونا فلان : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم بل أبوكم فلان ، فقالوا : صدقت وبررت <٥> . فقال : هل أنتم صادقونى عن شيء إن سألتكم عنه ؟ فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذَبنـاك عرفتَ كذِبنا كما عَرفتهَ في أبينا ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أهلُ النار ؟ فقالوا : نكون فيها يَسيرا ، ثم تخلفوننا <٦> فيها. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسئوا فيها <٧> ، واللهِ لانخلفكم فيها

---

١ ـ قوله : (أفلا استخرجته) فى رواية (فقال : لا) ، وفى رواية (أنه استخرجه) (فتح البارى ١٠/٢٣١) .

٢ ـ قوله : (فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً) المراد بالناس التعميم فى الموجودين . قال النووى : خشى من إخراجه وإشاعته ضرراً على المسلمين من تذكر السحر وتعليمه ونحو ذلك ، وهو من باب ترك المصلحة خوف المفسدة / شرح النووى ١٤ / ١٧٧ ، ١٧٨ .

٣ ـ قوله : (فامر بها فدفنت) أى البئر .

٤ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٠ / ٢٢١ / كتاب الطب / باب السحر ١١ / ١٩٢ / كتاب الدعوات / باب تكرير الدعاء / صحيح مسلم شرح النووى ١٤ / ١٧٤ ـ ١٧٨ / كتاب السلام / باب السحر .

٥ ـ قوله : (صدقت وبررت) بكسر الراء الأولى وحكى بفتحها وهو من البر (فتح البارى ١٠ / ٢٤٦) .

٦ ـ وقوله : (تخلُفوننا فيها) بضـم اللام مخففـاً أى تدخلـون فتقيمون فى المكان الذى كنا فيه (الفتح ١٠ / ٢٤٦) .

٧ ـ وقوله : (اخسئوا) هو زجر لهم بالطرد والإبعاد ، أو دعاء عليهم بذلك (الفتح ١٠ / ٢٤٦) .

أبدا <١> . ثم قال لهم : هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم فقال : هل جَعلتم في هذه الشاة سُماً ؟ فقالوا : نعم ، فقال : ما حَملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردْنا إن كنت كاذباً نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك <٢> .

وأخرج **البخاري ومسلم** بسنديهما ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه : " أن يهودية <٣> أتتِ النبي صلى الله عليه وسلم بشاةٍ مسمومةٍ فأكل منها ، فقيل : ألا نقتلها ؟ قال : لا ، فمازلت أعرفها <٤> في لَهواتِ <٥> رسول الله صلى الله عليه وسلم) <٦> وزاد مسلم <٧> بعد قوله : " فجيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فسألها عن ذلك فقالت : أردت لأقتلك . قال : ما كان الله ليسلطك عليَّ " <٨> .

---

١ ــ وقوله : (والله لا نخلفكم فيها أبدا) أى لا تخرجون منها ولا تقيم بعدكم فيها ، لأن من يدخل النار من عصاة المسلمين يخرج منها فلا يتصور أنه يخلف غيره أصلا (الفتح ١٠ / ٢٤٦) .

٢ ــ قوله : (لم يضرك) أى من السم المذكور (الفتح ١٠ / ٢٤٦) .

صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٠ / ٢٤٤ / كتاب الطب / باب ما يذكر فى سمِّ النبى صلى الله عليه وسلم . وكتاب الجزية والموادعة / باب غدر المشركين بالمسلمين هل يعفى عنهم ٦ / ٢٧٢ .

٣ قوله : (أن يهودية) هى زينب بنت الحارث امرأة سلاَّم بن مِشْكم (فتح البارى ٧ / ٤٩٧ / سيرة ابن هشام ٣ / ٣٣٧) .

٤ ــ قوله:(فمازلت أعرفها) أى العلامة كأنه بقى للسم علامة وأثر من سواد أو غيره.(شرح النووى١٤ /١٧٩) .

٥ ــ قوله : (فى لهوات رسول الله) بفتح اللام والهاء : جمع لهاة بفتح اللام وهى اللحمة الحمراء المعلقة فى أصل الحنك ، قاله الاصمعى. وقيل:اللحمات اللواتى فى سقف أقصى الفم .(شرح النووى ١٤ / ١٧٩) .

٦ ــ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٥ / ٢٣١ / كتاب الهبة / باب قبول الهدية من المشركين ، وكتاب المغازى / باب الشاة التى سُمَّت للبنى صلى الله عليه وسلم ٧ / ٤٩٧ .

٧ ــ صحيح مسلم ٤ / ١٧١٢ / كتاب السلام / باب السم .

٨ ــ قوله : (ما كان الله ليسلطك على) قال النووى : فيه بيان عصمته صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم كما قال تعالى (والله يعصمك من الناس) . المائدة : ٦٧ .

وهى معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى سلامته من السم المهلك لغيره.(شرح النووى ١٤/ ١٧٩).

ثم ذكر **ابن إسحاق** في أمر الشاة المسمومة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اطمـأن أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مِشْكم ، شاة مصلية ـ مشوية ـ وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل لها : الذّراع ، فأكثرت فيها السمّ ، ثم سمت الشاة ، وجاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتناول الذّراع ، فلاك منها مَضغةً فلم يُسغِها ، ومعه بْشر بن البراء بن معرور ، وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلَفظها ، ثم قال : إن هذا العَظْم ليخبرنى أنه مسموم ، ثم دعا بها ، فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : بلغتَ من قومى ما لم يخْف عليك ، فقلت : إن كان ملِكاً استرحتُ منه ، وإن كان نبياً فسيُخْبَرُ ، قال : فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات بشر من أكلته التي أكل . <١>

قال **الزهرى** : " فأسلمت فتركها " <٢> ، فكان عفوه صلى الله عليه وسلم عن زينب بن الحارث امرأة سلام بن مشكم ، بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، تنازلاً عن حقه في معاقبتها ، ولأنه عليه الصلاة والسلام كان يقابل السيئة بالحسنة .

ثم لما مات **بشر بن البراء** من أثر الأكلة التي أكلها من الشاة المسمومة التي جاءت بها زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم قَتَلها به قصاصاً ، وذلك بأنه عليه الصلاة والسلام دفعها إلى أولياء بشر بن البراء ، فقتلوها قصاصاً به <٣> .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ٢ / ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

٢ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤٩٧ / كتاب المغازى / باب معاملة النبى صلى الله عليه وسلم أهل خيبر . وقد جزم بذلك سليمان التيمى فى مغازيه ولفظه بعد قولها : وإن كنت كاذبا أرحت الناس منك " وقد استبان لى الآن أنك صادق ، وأنا أشهدك ومن حضر أنى على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، قال : فانصرف عنها حين أسلمت (فتح البارى ٧ / ٤٩٨) .

٣ ـ انظر :فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٤٩٧ ، وشرح النووى على صحيح مسلم ١٤/١٧٩ بتصرف .

ومثل ذلك قاله **ابن القيم** في زاد المعاد إلا أنه قال : " ربما كان قتلها من أجل غدرها ونقضها لعهد فتكون بذلك محاربة تستوجب القتل " <١> .

ووجه الجمع أنه لم يقتلها أولاً حين اطلع على سمها ، وقيل له : اقتلها ، فقال : لا ، فلما مات بشر بن البراء من ذلك سلمها لأوليائه فقتلوها قصاصاً ، فيصح قولهم : لم يقتلها ، أى في الحال ، ويصح قولهم : قَتَلها ، أى بعد ذلك <٢> .

وهذه بعض **صور غدر اليهود** للنبي صلى الله عليه وسلم تكشف عن قناعهم الخبيث ، وأفعالهم الدنيئة ضد الإسلام والمسلمين ، وقد استعد النبي صلى الله عليه وسلم لحربهم ، وإجلائهم عن المدينة بعد أن صالحهم ووادعهم حينما قدم إلى المدينة على أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على دينهم آمنون على دمائهم وأموالهم ، وكتب بذلك كتاباً جاء فيه : " إنه من تَبِعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة الحسنة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإنه لا يجير مشرك مالاقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على المؤمن ، وإن يهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظَلَم وأَثِم ، وإن بينهم النصرَ على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبِرَّ دون الإثم ، وإن بينهم النصر على من دَهم يثرب " <٣> .

ولكن قبائل اليهود ــ **بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة** ــ قد نقضوا هذا العهد وتلك الموادعة ، وأظهروا الخيانة ، والغدر بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأثاروا الفتن والقلاقل بين المسلمين ، ثم عاونوا أعداءهم ضدهم فكان لابد من تأديبهم والتخلص من شرورهم وفتنتهم .

---

١ ــ انظر : زاد المعاد فى هدى خير العباد ٢ / ١٦١ .

٢ ــ شرح النووى على صحيح مسلم ١٤ / ١٧٩ باختصار .

٣ ــ انظر : سيرة ابن هشام ٢ / ٥٠٣ ، ٥٠٤ باختصار .

ولما كانت غزوة بدر الكبرى ، وانتصر المسلمون فيها انتصاراً عظيماً ، أظهر بنو قينقاع البغى والحسد على الإسلام والمسلمين ، ثم نبذوا العهد ، فكانوا أول من نقض العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسار إليهم عليه الصلاة والسلام في السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر بأيام ، وجمعهم في سوقهم ثم قال : " يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني نبيّ مُرْسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم ، قالوا : يامحمد ، إنك ترى أناً قومُك ! لا يَغُرَّنك أنك لقيتَ قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبْتَ منهم فُرصَةً ، إناً والله لئن حاربناك لتعلمنّ أناً نحن الناس " <١> أما سبب الحرب بينهم وبين المسلمين : فإن امرأة من العرب قَدمتْ بجَلَب لها <٢> فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يُريدونها على كشف وجهها ، فأبت فعَمد الصائغ إلى طَرف ثوبها فعَقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سَوءتها ، فضَحكوا بها ، فصاحتْ ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديًا ، وشدّت اليهود على المُسلم فقَتلوه ، فاستصرخ أهل المُسلم المسلمين على اليهود ، فغَضِب المسلمون ، فوقع الشرُّ بينهم وبين بنى قينقاع <٣> .

فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لمدة خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه ، ولكن عبد الله بن أبى بن سلول كلم رسول الله فيهم وكانوا حلفاء له ، وألحَّ عليه ، فوهبهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه فيها ، فخرجوا

---

١ ـ السيرة النبوية / لابن هشام ٣ / ٤٧ ، ٢ / ٥٥٢ .

٢ ـ الجلب (بتحريك اللام) كل ما يجلب للأسواق ليباع فيها . (اللسان / جلب) ١ / ٢٦٨ ـ ٢٧٤ .

٣ ـ السيرة النبوية / لابن هشام ٣ / ٤٨ .

إلى أذْرِعَات من أرض الشام ‹١› ، وكانوا نحو سبعمائة مقاتل ‹٢› ، وقد كان لجلاء بني قينقاع وَقْعٌ عظيم وأثر كبير في نفوس اليهود ، حيث امتنعوا بعد ذلك عن المجادلة الدنيئة ، وكفوا عن رمى المسلمين بجارح الكلام ، ثم دخلت هيبة المسلمين في قلوب القبائل التي لم تدخل في الإسلام ، واتسع المجال أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم لنشر دعوة الإسلام .

وأما بنو النضير فهم قبيلة كبيرة من اليهود خرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه رضوان الله عليهم ، يستعينهم في دية القتيلين من بنى عامر ، اللذين قتل عمرو بن أُمية الضَمْرى ، للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لها ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف ، فقالوا : نفعل ياأبا القاسم ، إجلس هنا حتى نقضى حاجتك ، وخلا بعضهم ببعض ، وسَوَّل لهم الشيطان ذلك ، فتآمروا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أيكم يأخذ هذه الصخرة ، ويصعد فيلقيها عليه ؟ فقال عمرو بن جحاش : أنا ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبَرُ من السماء بما أراد القومُ ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، ولحقه أصحابه ، ثم أخبرهم بما همت به اليهود من الغدر به ، وأمرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتَّهيُّؤ لحربهم ، والسَّيْر إليهم .

فحاصرهم ستَّ ليال ، فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتَّحْريق فيها ، فنادَوه : يامحمد ، قد كنت تَنْهى عن الفساد ، وتعيبه على مَن يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها . ‹٣›

---

١ ـ أذرعات ـ بالفتح والسكون وكسر الراء وعين مهملة ـ بلد فى أطراف الشام تجاور عمّان [معجم البلدان ـ أذرعات] .

٢ ـ السيرة النبوية ٣ / ٤٨ ، ٤٩ .

٣ ـ انظر : السيرة النبوية ٣ / ١٩٠ ، ١٩١ .

وقد وقع في نفوس المسلمين من هذا الكلام شيء حتى أنزل الله تعالى :

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ‹١›

ولكن عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين أرسل إليهم : أن اثبتُوا وتمنَّعوا ، فإنَّا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربَّصوا ذلك من نَصركم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرُّعب ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجْليَهم ويكف عن دمائهم ، على أنّ لهم ما حَملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ، ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل ، فخَرجوا إلى خَيْبرَ ‹٢› ومنهم من سار إلى الشام ‹٣› وبإجلاء بني النضير عن ديارهم بالمدينة تخلص المسلمون من وكر من أوكار الخداع والمكيدة والمؤامرات ضد الإسلام والمسلمين ، ومن النفاق والغدر والخيانة والفساد والضلال .

أما بنو قريظة فكانوا يسكنون في حي من أحياء المدينة ، وهم أشد عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وأغلظهم كفراً .

وكما جاء في الصحيح :

" لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاهُ جبريلُ عليه السلام فقال : قد وضعتَ السلاحَ ، والله ما وضعناه فخرج إليهم . قال : فإلى أين ؟ قال : ها هنا . وأشار إلى قريظة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم " ‹٤› .

---

١ ـ سورة الحشر : ٥ .

٢ ـ خيبر : ناحية على ثمانية بُرد من المدينة لمن يريد الشام . ويطلق هذا الاسم على الولاية كلها ، وتشتمل على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير . وقد فتحها النبى صلى الله عليه وسلم كلها فى سنة سبع أو ثمان للهجرة [معجم البلدان ـ خيبر] .

٣ ـ انظر : السيرة النبوية / لابن هشام ٢ / ١٩٠ ، ١٩١ .

٤ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٧ / ٤٠٧ / كتاب المغازى / باب مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ، ومحاصرته إياهم .

وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين ليلة حتى جَهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعبَ .

وكان حُيَيٌّ بن أخطب قد دخل مع بنى قريظة في حصنهم ، حين رجعت عنهم قُريش وغَطفان ، وبعد أن نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهروا سبَّه ، فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثبت الأوس ، فقالوا : يارسول الله ، إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت ـ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بنى قريظة قد حاصر بنى قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبدُ الله بن أبيٍّ بن سلول ، فوهبهم له ـ فلما كلمه الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذلك إلى سعد بن معاذ <١> .

" فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سعد ، فأتى على حمار ، فلما دنا من المسجد قال للأنصار : قوموا إلى سيدكم ـ أو خيركم ـ فقال : هؤلاء نزلوا على حكمك ، فقال : تقتلُ مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم . قال : قضيت بحكم الله . وربما قال : بحكم الملك " <٢> .

---

١ ـ انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٣٥ ـ ٢٤٠ / باختصار .

٢ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٧ / ٤١١ / كتاب المغازى / باب مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ، ومحاصرته إياهم .

فلما حكم فيهم سعد بذلك خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فَخنْدق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضَرب أعناقهم في تلك الخنادق ، وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة . ولما جيء بُحيَيّ بن أخطب ليقتل ، مجموعةٌ يداه إلى عنقه ، نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يَخْذل الله يُخْذل ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب قَدر ، ومَلْحمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جَلس فضُربتْ عنقه (١) .

وبذلك خلت المدينة من جميع أوكار اليهود ، وأمن المسلمون من الطعن من خلف ، ومن نشر الفوضى وإثارة الفتن والقلاقل .

---

١ ـ السيرة النبوية / لابن هشام ٣ / ٢٣٩ ـ ٢٤١ باختصار .

وإنَّ كل ما ذكرت عن اليهود من الأفعال الشنيعة ، كنقض المواثيق ، وعدم الالتزام بالعهود ، وشدة عداوتهم للإسلام والمسلمين ، وتحريفهم لكلام اللّٰه تعالى ، وغير ذلك من الموبقات ، قد فعل النصارى مثله .

وقد سجل عليهم القرآن كل ما سبق ، وأكده ، وكذلك وضحته السنة المطهرة .

ولست بمستطيعة أن أستقصي كل عقائدهم الزائفة ، وطبائعهم الدنيئة ، كما أني لم أفعل ذلك بالنسبة لليهود لأن مثل ذلك يحتاج إلى مجلدات عديدة .

ولهذا سأكتفي ، إن شاء اللّٰه تعالى ، بدراسة موضوعين من عقائد النصارى ، وهما في غاية الخطورة :

١) عقيدتهم في اللّٰه ووحدانيته .

٢) ادعاؤهم أنهم صلبوا المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام .

أولاً : عقيدتهم في اللّٰه ووحدانيته :

لقد بعث اللّٰه سبحانه وتعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى بني إسرائيل ، فحرَّفوا رسالة اللّٰه التي انتسبوا إليها أفظع تحريف ، وشوهوها أبشع تشويه ، حتى صار مفهوم الإله عندهم باطلاً ، فزعموا أن المسيح عيسى عليه السلام هو اللّٰه تعالى ، ومرة أخرى زعموا أن اللّٰه ثالث ثلاثة ، بل إن بعضهم ألَّهَ مريم عليها السلام ، وهذا كله ضلال وكفر وافتراء ، تتنزه عنه الرسالة الإلهية .

وقد سجل القرآن عليهم هذه المزاعم الفاسدة ، والافتراءات الباطلة ، وردَّها عليهم بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة ، والأدلة الدامغة .

فقد حكى عن ادعائهم أن المسيح عيسى عليه السلام هو الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، قوله تعالى :

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ
ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ
أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ ‹١›

وهذا ذم من الله تعالى لهؤلاء الجهلة من النصارى الذين ضلّوا عن الطريق المستقيم بادِّعائهم أن المسيح هو الله ، فرية وكذباً عليه .

فمن الذي يستطيع أن يدافع عن المسيح وأمُّهُ أمر الله وقضاءه إذا أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمَّهُ ومن في الأرض جميعاً ؟ لا أحد يستطيع فعل ذلك لأنه سبحانه وتعالى هو الذي لا يُغلب ولا يقهر ، ولا يُرَدُّ له أمر ، بل هو الحيُّ الدائم القيُّوم الذي يحيى ويميت ، وهو حي لا يموت ‹٢› .

قال **الفخر الرازى** : في الآية ‹٣› سؤال وهو أن أحداً من النصارى لا يقول : إن الله هو المسيح بن مريم ، فكيف حكى الله عنهم ذلك مع أنهم لا يقولون به ؟ وجوابه :أن كثيراً من الحلولية يقولون : إن الله قد يحل في بدن

---

١ ـ سورة المائدة : ١٧ .

٢ ـ انظر : جامع البيان / للطبرى ١٠ / ١٤٦ ـ ١٤٨ .

٣ ـ سورة المائدة : ١٧ .

إنسان معين ، أو في روحه ، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال : إن قوماً من النصارى ذهبوا إلى هذا القول ، بل هذا أقرب مما يذهب إليه النصارى ، وذلك لأنهم يقولون : إن أقنوم <١> الكلمة اتحد بعيسى عليه السلام ، فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتا أو صفة ، فإن كان ذاتا فذات اللّٰه تعالى قد حلت في عيسى عليه السلام واتحدت بعيسى ، فيكون عيسى هو الإله على هذا القول .

والأقنوم عبارة عن الصفة ، فانتقال الصفة من ذات إلى ذات أخرى غير معقول ، ثم بتقدير انتقال أقنوم العلم عن ذات اللّٰه تعالى إلى عيسى يلزم خلو ذات اللّٰه تعالى عن العلم ، ومن لم يكن عالما لم يكن إلها ، فحينئذ يكون الإله هو عيسى عليه السلام على قولهم ، فثبت أن النصارى وإن كانوا لا يُصرِّحون بهذا القول إلا أن حاصل مذهبهم ليس إلا ذلك <٢> .

وممن قال بالأقانيم الثلاثة **الملكانية** <٣> **واليعقوبية** <٤> **والنسطورية** <٥>.

---

١ ـ الأقنوم : مفرد ، ويجمع على أقانيم ، والأقانيم الثلاثة عند النصارى هي : الآب ، والابن ، وروح القدس (المعجم الوسيط ـ قنم) .

٢ ـ الفخر الرازى ١١ / ١٩٠ ، ١٩١ .

٣ ـ الملكانية : هم أصحاب ملكا الذى ظهر بأرض الروم ، واستولى عليها . ومعظم الروم ملكانية . / الملل والنحل / للشهرستانى ١ / ٢٢٢ .

٤ ـ اليعقوبية : هم أتباع يعقوب البراذعى ، ويعقوب وجد فى القرن السادس الميلادى .

وإطلاق اسم اليعقوبية على أصحاب الرأى الذى يقول : " إن المسيح ذو طبيعتين لا طبيعة واحدة " .

وبسبب ذلك انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية .

وأطلق عليهم اسم اليعقوبية نسبة إلى يعقوب البراذعى الذى أعاد هذه الشيعة ، ورتبها فى القرن السادس للتاريخ المسيحى ، بعد أن كادت تتلاشى .(محاضرات فى النصرانية / محمد أبو زهرة ١٥٩).

٥ ـ النسطورية : هم أصحاب "نسطور" الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون ، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه ، وإضافته إليها إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة .

ومن النسطورية من ينفى التشبيه ، ويثبت القول بالقدر خيره وشره من العبد كما قالت القدرية (الملل والنحل / للشهرستانى / ١ / ٢٢٤) .

كلهم متفقون على أن معبودهم ثلاثة أقانيم ، وهذه الأقانيم الثلاثة هي واحد ، وهو جوهر قديم ـ ومعناه ـ اب وابن وروح القدس إله واحد ـ ثم قال رحمه الله الهندى : قالوا : الابن اتحد بإنسان مخلوق فصار هو وما اتحد به مسيحاً واحداً ، والمسيح هو إله العباد وربهم . (١)

ومنهم من قال : ظهر اللاهوت بالناسوت ، فصار ناسوت المسيح مظهر الجوهر ، لا على حلول جزء فيه ، ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة ، بل صار : هو هو .

وهذا كما يقال : ظهر المَلَكُ بصورة إنسان ، أو ظهر الشيطان بصورة حيوان . (٢)

وكما أخبر التنزيل عن جبريل عليه السلام في قوله تعالى :

فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (٣)

وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد ، أقنوم واحد ، إلا أنه من جوهرين ، وربما قالوا : طبيعة واحدة من طبيعتين فجوهر الإله القديم ، وجوهر الإنسان المحدث تركبا تركيبا كما تركبت النفس والبدن ، فصارا جوهرا واحداً ، أقنوما واحداً ، وهو إنسان كله وإله كله .

---

١ ـ انظر : إظهار الحق للشيخ رحمة الله خليل الرحمن الهندى ٣٩٤ .

٢ ـ يفهم من كلام الشيخ رحمة الله الهندى : أن اللاهوت عندهم الروح ، والناسوت هو الجسد ، حيث يقول : " وزعم قوم أن المسيح بعد الاتحاد جوهران : لا هوتى ، ناسوتى ، وأن القتل والصلب وقعابه من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، وأن مريم حملت بالمسيح وولدته من جهة ناسوته . انظر : (إظهار الحق : ٣٩٤ ، ٣٩٥) ، والملل والنحل / للشهرستانى ١ / ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

٣ ـ سورة مريم : ١٧ .

فيقال : الإنسان صار إلها ، ولا ينعكس فلا يقال : الإله صار إنسانا . كالفحمة تطرح في النار فيقال : صار الفحم نارا ، ولا يقال : صارت النار فحمة ، وهي في الحقيقة لا نار مطلقة ، لا فحمة مطلقة ، بل هي جمرة . وزعموا أن الكلمة اتحدت بالإنسان الجزئي لا الكلي . وربما عبروا عن الاتحاد بالامتزاج والادراع ، والحلول كحلول صورة الإنسان في المرآة .

وأجمع أصحاب التثليث كلهم على أن القديم لا يجوز أن يتحد بالمحدث ، إلا أن الأقنوم الثاني الذي هو الكلمة اتحدت دون سائر الأقاليم . ثم أجمعوا على أن المسيح عليه السلام ولد من مريم عليها السلام وقتل وصلب . (١)

وذكر **الألوسي** : ما روى عن محمد بن كعب القرظي : " أنه لما رفع عيسى عليه السلام اجتمع طائفة من علماء بني إسرائيل فقالوا : ما تقولون في عيسى عليه السلام ؟ فقال أحدهم : أو تعلمون أحداً يحيي الموتى إلا الله تعالى ؟ فقالوا : لا ، فقال : أو تعلمون أحداً يبرىء الأكمه والأبرص (٢) إلا الله تعالى ؟

قالوا : لا ، قالوا : فما الله تعالى إلا من هذا وصفه ، أي حقيقة الإلهية فيه " . (٣)

---

١ ـ الملل والنحل ١ / ٢٢٦ .

٢ ـ الأكمه : الذي تلده أمه أعمى [اللسان ـ كمه] ١٣ ـ ٥٣٦ .

والأبرص : المصاب بداء البَرصَ ، وهو بياض يقع في الجلد [اللسان ـ برص] .

٣ ـ روح المعاني / للألوسي ٦ / ٩٩ .

وقال الطبرى رحمه الله :

هذا احتجاج على فساد قولهم ، وتقرير أن المسيح حادث بلا شُبَه ، لأنه عليه السلام تولَّد من أم ، ولذا ذكرت الأم للتنبيه على هذا الفساد ، وأنه عليه السلام مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات . ومن كان كذلك كيف يكون إلهاً <١> ؟ قال تعالى :

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ
ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ

<٢>

شرع سبحانه وتعالى في تفصيل قبائح النصارى وإبطال مزاعمهم وأقوالهم الفاسدة ، حيث قالوا : إن مريم عليها السلام ولدت إلهاً . وهم الملكانية ، واليعقوبية ، وقيل هم اليعقوبية خاصة .

ومعنى هذا القول : « أن الله تعالى حل في ذات عيسى عليه السلام واتحد بذاته ، تعالى الله عما يقولولن علواً كبيراً .

والمسيح ابن مريم عليهما السلام قال لهم : كما أخبرنا القرآن الكريم .

(وقال المسيح يابنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) .

وهذا مزيد تقبيح لحالهم وبيان تكذيبهم للمسيح ابن مريم عليهما السلام ، وقد قال المسيح مخاطباً لهم إنى عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقى وخالقكم ، وإن من يشرك بالله شيئاً في عبادته أو يخالفه فيما يختص به من صفاته وافعاله

---

١ ـ جامع البيان / للطبرى ١٠ / ١٤٦ ، ١٤٧ .

٢ ـ سورة المائدة : ٧٢ .

ويدعى أن لأحـد من خلقـه مـثله ، فلن يدخل الجنة دار النعـيم ، وأن النار موعدهم جميعاً وليس لهم من ينصرهم وينقذهم من النار . ‹١›

فقد حكم الله سبحانه وتعالى بتكفير من يقول ويدعى من النصارى أن المسيح هو الله ـ تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس ، علواً كبيراً ـ مع أنه تقدم لهم أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله .

وأن أول كلمة نطق بها ، وهو في المهد ، كما حكى لنا القرآن الكريم :

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا
قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ‹٢›

وقد قال عيسى عليه السلام للنصارى آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم لا شريك له ، كما أشار إليه قوله تعالى :

وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ
ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ
‹٣›

وقوله :

وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ‹٤›

---

١ ـ انظر : تفسير ابى السعود : ٢ / ٦٥ ـ ٦٦ ، وروح المعانى : ٦ / ٢٠٧ .

٢ ـ سورة مريم : ٢٩ ، ٣٠ .

٣ ـ سورة المائدة : ٧٢ .

٤ ـ سورة مريم : ٣٦ .

وكذلك كفر من ادعى من النصارى أن الله ثالث ثلاثة كما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى :

لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ <١>

فهنا أكد تعالى بالقسم على كفر قائلى هذا القول من النصارى إذ غلوا في إطراء نبيهم المسيح بن مريم عليهما السلام ، غلوا ضاهوا به غلو اليهود في الكفر به ، وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتاناً عظيما ، ثم صار هو العقيدة الشائعة فيهم ، ومن عدل عنها إلى التوحيد يعد مارقاً من دينهم ، ذلك بأنهم يقولون : إن الإله مركب من ثلاثة أصول يسمونها " أقانيم " .

وهى الآب والابن وروح القدس ، ويقولون : إن المسيح هو الابن ، والله هو الآب ، وإن كل واحد من الثلاثة عين الآخر ، فينتج عن ذلك أن الله هو المسيح ، وأن المسيح هو الله بزعمهم <٢> .

ويقول سبحانه وتعالى مكذباً لهم فيما قالوا :

وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ <٣>

---

١ ـ سورة المائدة : ٧٣ ـ ٧٥ .

٢ ـ تفسير المنار ٦ / ٤٨٢ .

٣ ـ سورة المائدة : ٧٣ .

وفي تفسيرها يقول الطبرى رحمه الله :

ما لكم معبود أيها الناس ، إلا معبود واحد ، وهو الذى ليس بوالد لشيء ولا مولود ، بل هو خالق كل والد ومولود .

وإن لم ينته هؤلاء الإسرائيليون عما يقولون في أمر الله من عظيم القول ، لَيَمَسَّنّ الذين يقولون هذه المقالة عذاب أليم بكفرهم ‹١› وهناك رأى آخر يقول : إن المراد أنهم جعلوا المسيح وأمه إلهين مع الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار كما أشار إليه قوله عز وجل :

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

‹٢›

ففى هذه الآيات الكريمة يخاطب الله سبحانه وتعالى ـ عبده ورسوله عيسى عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من كان يتخذه وأمه إلهين من دون الله :

(يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ)

---

١ ـ انظر : جامع البيان / للطبرى ١٠ / ٤٨٢ ، ٤٨٣ .

٢ ـ سورة المائدة : ١١٦ ـ ١١٨ .

وهذا تهديد ووعيد للنصارى ، وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد فيرد عيسى عليه السلام : تنزيها لك يارب ، وتعظيماً وتقديساً ،أن أفعل ذلك ، أو أتكلم به :

(قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ)

أى تنزيهـــا وإجلالاً لك ، فليس لى أن قول ذلك لأنى عبد مخلوق ، وأمى أمة لك ، فهل يكون للعبد ادعاء ربوبية لنفسه ؟

أو يكون لأمة ادعاء ربوبية لنفسها ؟

وإذا تكلمت به فقد علمته لأنك تعلم خبايا النفوس .

ثم قال :

(إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ)

أى فإنك لا يخفى عليك شىء ، وأنت علام الغيوب ، فلم أقل لهم ذلك ولم آمرهم به ، فلا يخفى عليك ، ما أضمره في نفسى وإن لم أنطق به ، ولم أظهره بجوارحى ، فكيف بما نطقت به ، وأظهرتــه بجوارحـــى ، ولا أعلم أنا ما أخفيته عنى ولم تطلعنى عليه ، لأنى إنما أعلم من الأشياء ما علَّمْتَنيه، والعالم بخفايا الأمور أنت ياألله ،والتي لم يطلع عليها سواك ولا يعلمها غيرك .

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ

أى ما قلت لهم إلا الذي أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت على ما يفعلونه ، وأنا بين أظهرهم ، شاهداً عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم ، فلما قبضتنى إليك كنت الحفيظ عليهم دونى ، لأنى إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم .

(إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فإذا عذبتهم علـــى هذه المقالـــة الشنيعـــة فإنهم عبادك ، مستسلمـــون لك ، لا يمتنعون عما أردتهم به ، ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً ولا أمراً تنالهم به ، وإن تغفر لهم بهدايتك إياهم إلى التوبة والإنابة إليك فتستر عليهم .

(فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أى في انتقامك ممن أردت الانتقام منه ، فلا أحد يستطيع أن يدفعه عنه .

فـأنت الحكيم في هـداية من هديت من خلقك إلى التـوبة والإنابة وفق سـبـيل النجاة من العقاب <١> .

وأشـــار الله سبحانـــه وتعالى إلى عقيدة التثليث التي اعتنقها النصارى فقال عز وجل :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ
وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا

<٢>

---

١ ـ انظر : جامع البيان ١١ / ٢٣٢ ـ ٢٤١ ، وابن كثير ٢ / ١٢٠ ، ١٢١ .

٢ ـ سورة النساء : ١٧١ .

نهى سبحانه وتعالى النصارى عن الإفراط في شأن عيسى عليه السلام وادعاء ألوهيته .

كما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إطرائه كما كان النصارى يطرون عيسى عليه السلام فقال : " لا تُطْرونى كما أطرَتِ النصارى ابنَ مريمَ ، فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله " <١> .

ولا تصفوه عليه السلام بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد ، بل نزهوه عن جميع ذلك لأنه عبد الله ورسوله ، كما أشار إليه قوله :

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ <٢>

أى إنما هو عبد من عباد الله ، وخلق من خلقه ، مقصور على الرسالة لا يتخطاها ، وهو مكون بكلمته وأمره الذي يشير إليه قوله تعالى :

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ <٣>

من غير واسطة أب ولا نطفة ، وإنما كلمته التي ألقاها إلى مريم أى خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن الله عز وجل ، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى

---

١ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٦ / ٤٧٨ / كتاب أحاديث الانبياء / باب قول الله (واذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها) .

قوله : (لا تطرونى) بضم أوله ، والإطراء : المدح بالباطل ، تقول: أطريت فلانا: مدحته فأفرطت فى مدحه . وقوله:(كما أطرت النصارى ابن مريم) أى فى دعواهم فيه الإلهية وغير ذلك . (فتح البارى ٦ / ٤٩٠) .

٢ ـ سورة النساء : ١٧١ .

٣ ـ سورة يس : ٨٢ .

ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم ، والجميع مخلوق لله عز وجل ، ولهذا قيل : ليس إلا أنه كلمة الله وروح منه وأضافه الله إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم .

وقيل : الروح هو جبريل عليه السلام ، نفخ في جيب درعها ، فحملت بإذن الله .

وإنما أضافه إلى نفسه لأنه وجد بأمر الله تعالى وإذنه وبقدرته .

قال صلى الله عليه وسلم : " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " <١> .

ثم قال في نهاية الآية :

﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ <٢>

١ ـ صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٦ / ٤٧٤ / كتاب احاديث الأنبياء/ باب قوله :(ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) الآية ـ النساء ١٧١ .

وقوله : (على ما كان عليه من العمل) أي من صلاح أو فساد ، لكن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة ، ويحتمل أن يكون معنى قوله : (على ما كان من العمل) أي يدخل أهل الجنة الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات . (فتح الباري ٦ / ٤٧٤) .

٢ ـ سورة النساء : ١٧١ .

أمرهم سبحانه وتعالى بالانتهاء عن هذه العقيدة الباطلة الزائفة الفاسدة ، لأن الجميع تحت ملكه ، وأنهم عبيده خاضعون لتدبيره وتصريفه ، وهو الوكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد ؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً <١> وقد دحض القرآن هذا الادعاء الباطل ، وأبطل هذه الفرية الآثمة في عدة آيات من كتابه فقال : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ <٢>

وقال عز وجل :

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا

<٣>

---

١ ــ انظر : ابن كثير ١ / ٥٨٩ ، ٥٩٠ .

٢ ــ سورة الأنعام : ١٠٠ ــ ١٠١ .

قوله : (لقد جئتم شيئاً إداً) أى أمراً منكراً عظيماً . (انظر : تفسير غريب القرآن : لابن قتيبة/ ٢٧٦) .

٣ ــ سورة مريم : ٨٨ ــ ٩٥ .

والآيات الكريمة تدل على أن اليهود كانوا يزعمون أن عزيرا ابن الله ، والنصارى كانوا يدعون أن المسيح ابن مريم ابن الله ، والمشركين من العرب كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله ، وهذا كله كفر ليس بعده كفر تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

فقال عز وجل :

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ‹١›

وفي الآية الكريمة تكذيب ودحض للحجة الباطلة التي لا سند لها ولا دليل فيها فيما ادعى اليهود والنصارى من الافتراء والاختلاق فشابهت أقوال المشركين من الأمم السابقة ، قد ضلوا لضلالهم ، ولعنهم الله بكفرهم ، وأبعدهم عن رحمته ، إذ كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر وواضح لهم فيعدلون إلى الباطل والضلال ‹٢› .

ولا كفر أكبر من أن يُدَّعىَ أن لله تعالى ولداً أو صاحبةً ، فهو ينافي مقام الألوهية ، ولا يحق في عظمة الخالق العظيم ، الواحد الذي :

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ‹٣›

---

١ ـ سورة التوبة : ٣٠ .

٢ ـ انظر : ابن كثير ٢ / ٣٤٨ .

٣ ـ سورة الإخلاص : ٣ ، ٤ .

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى : عن كفر النصارى وعقائدهم الزائفة الفاسدة ، أن جهلهم ليس له ضابط ، ولا لكفرهم حد ، بل ضلالهم منتشر ، فمنهم من يعتقد المسيح عيسى ابن مريم إلهاً ، ومنهم من يعتقده شريكاً ومنهـــم من يعتقده ولدا ، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة وأقوال غير مؤتلفة <١> .

ثانياً : اعتقادهم أنهم صلبوا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام : وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله :

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
<٢>

قال سيد قطب : " إن قضية قتل المسيح عيسى عليه السلام وصلبه ، قضية تخبط فيها اليهود ، كما تخبط فيها النصارى بالظنون .

فاليهود يقولون : إنهم قتلوه ويسخرون من قوله : إنه رسول الله ، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية ! والنصارى يقولون : إنه صلب ودفن ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام .

---

١ ـ ابن كثير ١ / ٥٩١ .

٢ ـ سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨ .

والتاريخ يسكت عن مولد المسيح ونهايته ، وما من أحد من هؤلاء يقول ما يقول عن يقين .

فلقد تتابعت الأحداث سراعاً ، وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين ، إلا ما يقصه رب العالمين . <١>

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا <٢>

إذ يفاجىء القرآن بهذا الخبر القاطع والحكم اليقين وقد أزال هذا الشك والظن باليقين القاطع بقوله تعالى :

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ)

أى قد وقع في نفوس بعضهم أن الذي قتلوه وصلبوه ليس هو المسيح عيسى عليه السلام فاصبح الشك يقيناً بهذا الخبر .

بعد أن خذلهم وأذلهم بما شرعوا في تنفيذه ، ولكن ليس في المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، ولكن في شخص آخر شُبِّهَ لهم أنه المسيح عيسى عليه السلام ، وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه <٣> .

---

١ ــ في ظلال القرآن ٢ / ٨٠١ ، ٨٠٢ .

٢ ــ سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨ .

٣ ــ انظر : في ظلال القرآن ٢ / ٨٠٢ ، وتفسير المنار ٦ / ١٨ ــ ٢٠ .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : " لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين ، يعنى فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى قال : ثم قال : أيكم يلقى عليه شَبَهى فيُقتل مكانـــى ويكون معى في درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ، فقال : هو أنت ذاك فألقى عليه شَبَهُ عيسى ، ورفع عيسى من رَوْزنة <١> في البيت إلى السماء قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق فقالت فرقه : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون .

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتي بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس . <٢>

---

١ ـ الروزنة : الخرق فى أعلى السقف أو الكوة : [اللسان : (رزن)] ١٢ / ١٧٩ .

٢ ـ ابن كثير ١ / ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية بنحوه ، وكذا ذكره غير واحد من السلف أنه قال لهم : " أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيقى في الجنة " <١> .

ويقول سيد قطب رحمه الله : " والأناجيل الأربعة التي تروى قصه القبض علـــى المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامه ، كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح ، كانـــت كلها اضطهاداً لديانته ولتلاميذه ، ويتعذر معه تحقيق الأحداث ، وقد كتبت معها أناجيل كثيرة ، ولكن هذه الأناجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثانى للميلاد ، واعتبرت رسمية ، واعترف بها ، لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات ! .

ومن بينها إنجيل برنابا <٢> ، وهو يخالف الأناجيل الأربعة المعتمدة ، في قصة القتل والصلب ، فيقول :

" ولما دنت الجنود مع يهوذا <٣> ، من المحل الذي كان فيه يسوع ، سمع يســـوع دنوجَمٍّ غفير ، فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً . وكان الأحد عشر نياماً ، فلما رأى الله الخطر على عبده ، أمر جبريل وميخائيل ، ورفائيل ،

---

١ ـ قال فى تحفة الأشراف : الحديث موقوف / فى سنن النسائى " الكبرى " عن أبى كريب عن أبى معاوية ، عن الأعمش ، عنه به . / انظر : تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف / للحافظ يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن يوسف المزى المتوفى سنة ٧٤٢ هـ ./ ٤ / ٤٥٢ .

٢ ـ جاء ذكر برنابا فى رسالة أعمال الرسل التى تنسب إلى لوقا وفيه أن يوسف الذى يدعى برنابا . ومعناه ابن الوعظ وهو من قبرص ، وكانت ترسله الكنيسة للوعظ والهداية ، وكان رجلا صالحا مؤمنا ، ويزعمون أن روح القدس خاطبه حيث كان يتعبد وهو صائم ـ محاضرات فى النصرانية ط الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والإفتاء ، ط ٤ ، سنه ١٤٠٤ هـ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

٣ ـ يهوذا أحد الحواريين المخلصين من أتباع المسيح عليه السلام ، وليهوذا رسالة منسوبة إليه ، وقد قالوا : إنه مات شهيداً ببلاد العجم ـ محاضرات فى النصرانية ، ص ٨٤ .

وأوريل ، سفراءه ، أن يأخذوا يسوع من العالم ، فجاء الملائكة الأطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ، ووضعوه في السماء الثالثة ، في صحبة الملائكة التي تسبح إلى الأبد " .

ودخل يهوذا بعنف إلى الغُرفَةِ التي أصعد منها يسوع . وكان التلاميذ كلهم نياما . فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغير يهوذا في النطق ، وفي الوجه ، فصار شبيها بيسوع ، حتي إننا اعتقدنا أنه يسوع . أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم . لذلك تعجبنا وأجبنا : أنت ياسيدى معلّمنا . أنسيتنا الآن .. ؟ ..... الخ <١> .

وقال سيد قطب : وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة التي حدثت ، ولا يجد فيها سنداً يرجح رواية على رواية <٢> .

قال تعالى : وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا <٣>

أما القرآن فيقرر قراره الفصل بقوله تعالى :

وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ

ويقوله :

وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

---

١ ـ انظر : محاضرات فى النصرانيه ، للشيخ : محمد ابو زهرة ، ص ٣٠ .

٢ ـ فى ظلال القرآن ٢ / ٨٠٢ .

٣ ـ سورة النساء : ١٥٧ ـ ١٥٨ .

واختار **ابن جرير الطبرى رحمه الله** : أن شَبَه عيسى عليه السلام ألقى على جميع أصحابه <١> وقال في ذلك : لقد مكر الله سبحانه وتعالى بالذين كفروا من بنى إسرائيل حينما ادعوا أنهم قتلوه وصلبوه ، بينما الله تعالى رفعه إليه كما تشير إليه الآية من قوله :

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ
فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ
<٢>

وفي معنى " الوفاة " اختلاف ، قال بعضهم : هى وفاة نوم ، أى إنى قابضك من الأرض حَيّاً إلى جوارى ، وآخذك عندى بغير موت <٣> .

لقوله تعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
<٤>

---

١ ـ جامع البيان / للطبرى ٩ / ٦٨ .

٢ ـ سورة آل عمران : ٥٥ .

٣ ـ انظر : جامع البيان / للطبرى ٦ / ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، وابن كثير ١ / ٣٦٦ .

٤ ـ سورة الأنعام : ٦٠ .

وقال آخرون : المراد " بالوفاة " وفاة موتٍ ، واختار الطبرى : القول الأول ، ثم قال : وأولى هذه الأقوال بالصحة قول من قال : معنى ذلك : " إنى قابضك من الأرض ورافعك إلىَّ " لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ينزل عيسى ابن مريم .... ‹١› .

ولقوله تعالى :

وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ‹٢›

قال ابن كثير رحمه الله : ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير الطبرى : هو الصحيح . لأنه المقصود من سياق الآى في تقرير بطلان ما ادّعته اليهود من قتل عيسى ، وصلبه وتسليم النصارى الجهلة لهم بذلك .

فأخبر الله تعالى أن الأمر ليس كذلك ، وإنما شُبِّه لهم فقتلوا الشَّبَه ، وهم لا يتبينون ذلك ، ثم إنه رفع إليه ، وأنه باق حى ، وأنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث ‹٣› .

---

١ ـ جامع البيان ٦ / ٤٥٨ .

والأحاديث الصحيحة ستأتى بعد قليل .

٢ ـ سورة النساء : ١٥٩ .

٣ ـ انظر : ابن كثير ١ / ٥٧٧ ، بتصرف يسير .

حيث قال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ، لَيُوشِكَنَّ <١> أن ينزل فيكم <٢> ابنُ مريم حكماً <٣> عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير <٤> ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله أحد <٥> ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم :

وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا <٦>

---

١ ـ قوله : (ليوشكن) بكسر المعجمة أى ليقرين أى لابد من ذلك سريعاً (فتح البارى ٦ / ٤٩١) .

٢ ـ قوله : (ينزل فيكم) أى فى هذه الأمة ، فإنه خطاب لبعض الامة ممن لا يدرك نزوله .

٣ ـ قوله : (حكما) أى حاكما ، والمعنى أنه ينزل حاكما بهذه الشريعة فإنها باقيه لا تنسخ ، بل يكون عيسى حاكماً من حكام هذه الامة . (فتح البارى ٦ / ٤٩١) .

٤ ـ قوله : (فيكسر الصليب ويقتل الخنزير) أى يبطل دين النصرانية بأن بكسر الصليب حقيقة ويبطل ما تزعم النصارى من تعظيمه . (فتح البارى ٦ / ٤٩١) .

٥ ـ قوله : (ويضع الحرب) أى الجزية ، والمعنى : أن الدين يصير واحداً فلا يبقى أحد من أهل الذمة يؤدى الجزية ، وقيل : معنــاه أن المال يكثر حتى لا يبقى من يمكن صرف مال الجزية له فترك الجزيه استغناء عنها .

وقال : عياض : يحتمل أن يكون المراد بوضع الجزية تقريرها على الكفار من غير محاباة ، ويكون كثرة المال بسبب ذلك . (فتح البارى ٦ / ٤٩١) .

٦ ـ سورة النساء : ١٥٩ .

والحديث فى صحيح البخاريب شرح فتح البارى كتاب أحاديث الأنبياء ، باب / نزول عيسى بن مريم عليهما السلام ، ٦ / ٤٩٠ ، ٤٩١ .

وصحيح مسلم ١ / ١٣٥ / كتاب الإيمان / باب / نزول عيســى بن مريم حكمـــاً بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قال النووى رحمه الله : معنى الآية الكريمة على هذا : ليس من أهل الكتاب أحد يحضره الموت إلا آمن عند المعاينة قبل خروج روحه بعيسى ، وأنه عبد الله وابن أمته ، ولكن لا ينفعه هذا الإيمان في تلك الحالة ‹١› كما قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ‹٢›

وقال العلماء : الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه ، فبين الله تعالى كذبهم وأنه هو الذي يقتلهم ، أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض ، إذ ليس لمخلوق من تراب أن يموت في غيرها .

وقيل : إنه دعا الله لما رأى صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته أن يجعله منهم ، فاستجاب الله دعاءه ، وأبقاه حتى ينزل آخر الزمان مجدداً لأمر الإسلام ، فيوافق خروج الدجال ، فيقتله . قال ابن حجر : والأول أوجه ‹٣› .
وأخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعَلاَّت ، أمهاتهم شتَّى ، ودينهم واحد " ‹٤› .

---

١ ـ شرح النووى على صحيح مسلم ٢ / ١٩١ .

٢ ـ سورة النساء : ١٨ .

٣ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى ٦ / ٤٩٣ / كتاب احاديث الانبياء / باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام .

٤ ـ صحيح البخارى ، بشرح فتح البارى ٦ / ٤٧٨ / كتاب أحاديث الأنبياء / قول الله : " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها " (مريم : ١٦) .

وقوله : " أنا أولى الناس بابن مريم " أى أخصُّ الناس به ، وأقربهم إليه ، لأنه بَشَّر بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يأتى من بعده .

وأخرج الإمام أحمد بسنده : عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال " الأنبياء إخوة لعلات دينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، وأنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع <١> إلى الحمرة والبياض ، سَبْطٌ <٢> ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْن <٣> فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويعطل الملل حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها غير الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال وتقع الأَمَنَةُ على الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً ، والنمر مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات ، لا يضر بعضهم بعضاً ، فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه <٤> .

= وقوله : (الأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد) ، أى إن أصل دينهم واحد ، وهو التوحيد ، وإن اختلفت فروع الشرائع . وقيل : إن أزمنتهم مختلفة . والعلات ـ بفتح المهملة ـ الضرائر . وأصله أن من تزوج امرأة ، ثم تزوج أخرى كانه علَّ منها ، والعَلَل : الشرب بعد الشرب [فتح البارى ٦ / ٤٨٩] . والنهاية لابن الأثير (علل) .

١ ـ مربوع : أى بين الطويل والقصير ، يقال : رجل مربوع ورَبْعة [النهاية ـ ربع] .

٢ ـ سَبْط ـ بفتح فسكون ـ أى ممتد الأعضاء ، تام الخَلْق . وفلان سَبط اليدين : سخىّ سمح الكفين . [اللسان ـ سبط] ٧ / ٢٠٨ـ٢١٢ .

٣ ـ الممصَّرة من الثياب : التى فيها صفرة خفيفة [النهاية ـ مصر] .

٤ ـ مسند الإمام أحمد ٢ / ٤٣٧ .

وانظر : المسند / للإمام أحمد بن حنبل ١٨ / ٤٧ ، ٤٨ / شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر ، وأتمه وأكمله / الدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم أستاذ الحديث بكليه أصول الدين جامعة الأزهر . وقال " المحقق " : إسناده صحيح .

وكذلك رواه الحاكم فى المستدرك مختصرا ٢ / ٥٩٥ / وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

قال الطبرى رحمه الله : ومعلوم أنه لو كان الله عز وجل قد أمات عيسى عليه السلام لم يكن بالذي يميته ميتة أخرى ، فيجمع عليه ميتتين ، لأن الله عز وجل أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم .

فقال تعالى :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ‹١›

والآية من قوله :

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ‹٢›

فإن تفسيرها أى ياعيسى ، إنى قابضك من الأرض ورافعك إلىّ ، ومطهرك من الذين كفروا ، الذين حجدوا نبوتك ‹٣› .

---

١ ـ سورة الروم : ٤٠ .

٢ ـ سورة آل عمران : ٥٥ .

٣ ـ جامع البيان / للطبرى ٦ / ٤٦١ .

المجتمع الإسلامي كما يصوره الفصل الثالث

تبيَّن مما سبق في هذا الفصل أن من أسباب استقرار المجتمع الإسلامي أن يحذر المسلمون من أهل الكتاب ، وألا يركنوا إليهم في أمر من أمورهم ، وألا يوالوهم ، لأنهم يضمرون العداوة والبغضاء والحقد والحسد على المسلمين .

وتاريخهم حافل بالمنكرات والمعاصي ، والآثام ، فعقائدهم باطلة ، وأخلاقهم من أحط الأخلاق الإنسانية . وفي مقدمتها نقض المواثيق والعهود ، وقتل الأنبياء والعلماء ، والعداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ، ونقض كل عهد كان بينهم وبين المسلمين .

وقد دأبوا على إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل والقول وحاولوا قتله ، وسَمَّه ، وسحروه ، ولكن الله عز وجل عصمه من كل هذه المكائد ، ونجاه من أعمالهم الدنيئة ، هذا فضلاً عن أنهم أشعلوا نيران الفتنة بين قبيلتى الأوس والخزرج في المدينة ، فأطفأها الله تعالى .

ووصفهم بأنهم كانوا يأكلون السحت ، ويتعاملون بالربا ، وقد حرفوا التوراة حسب أهوائهم وشهواتهم ، حيث زعموا أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة . هذا عن اليهود .

وأما النصارى فلم يكونوا أقل من اليهود زيغاً في العقيدة ، وخبثاً ودناءة في الأخلاق .

وما قدَّمنا من أخلاق اليهود يمكن أن يقال عن النصارى من نقض المواثيق والكيد للإسلام والمسلمين .

فقد ادعوا زوراً وبهتاناً أن الله هو المسيح ابن مريم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وادعوا أن الله ثالث ثلاثة ، الآب ، والابن ، وروح القدس ، بلَ ألهُّوا المسيح وأمه عليهما السلام ، وحرفوا رسالة الله تعالى ، وشوهوها أبشع تشويه ، حتى صار

مفهوم الألوهية عندهم في غاية الزيغ والضلال ، مع أن المسيح عليه السلام أمرهم بالتوحيد ، وعبادة الله وحده دون سواه .

وهل هناك كفر وضلال أكبر من أن يُدَّعى أن لله تعالى ولداً وصاحبة ؟ !

إن هذا ينافى مقام الألوهية ، ولا يحق في عظمة الخالق العظيم ، الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ومن أجل هذا حَذَّرنا الله تعالى من ولايتهم سواء في ذلك اليهود والنصارى ، وكذلك حذرنا رسولنا صلى الله عليه وسلم منهم ، وإن سورة المائدة حافلة بالتحذير منهم ، ولا سيما اليهود ، ونأخذ من هذا التحذير أن هؤلاء كانوا ولم يزالوا خطراً عظيماً على الإسلام والمسلمين في كل عصر ، بل في كل مكان ، وأن على المسلمين أن يكونوا على يقظة دائمة من مكائدهم ، وألا يركنوا إليهم أو يسالموهم ، لأن ما فى فى نفوسهم من حقد وعداوة وبغضاء للمسلمين لا يمكن أن يتغير ، لأنهم ألدّ أعداء الإسلام والمسلمين ، ولو ركَنَّا إليهم أو واليناهم عدمنا الاستقرار والأمن . واعترى هذه المجتمعات الفسَادُ والانحلال ، وكيف تستقر أمة أو مجتمع يعيش بينها أعداؤها ، بل ألد أعدائها ؟ !

الباب الثالث

الحكم بما أنزل الله

وفيه : تمهيد ، وفصلان :ـ

والتمهيد :

١ ـ مصادر التشريع الإسلامي .

٢ ـ الفرق بين الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية .

والفصلان :

الفصل الأول : وجوب الحكم بما أنزل الله .

الفصل الثاني : الحكم بما أنزل الله مقرر في شريعتي موسى وعيسى عليهما السلام .

التمهيد

١ ـ مصادر التشريع الإسلامي .

٢ ـ الفرق بين الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية .

ا ـ مصادر التشريع الإسلامي

أصول التشريع الإسلامي ، التي تستمد منها الأحكام أربعة ، وهي :

١ ـ كتاب الله ـ القرآن الكريم ـ وهو الأصل الأول .

٢ ـ السنة المطهرة ـ سنة رسولنا صلى الله عليه وسلم ـ وهي الأصل الثاني .

٣ ـ الإجماع ، وهو في الدرجة الثالثة بعد كتاب الله وسنه رسوله صلى الله عليه وسلم .

٤ ـ القياس ، وهو في الدرجة الرابعة بعد الإجماع .

أولاً : القرآن هو التنزيل العزيز ، ويسمى كلامُ الله تعالى الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم كتاباً وقرآنا وفرقاناً .

وسمى قرآنا لأنه يجمع الآيات في السور فيضمها ‹١› .

والمعروف أن لفظ القرآن اسم للكتاب الكريم كاسم التوراة والإنجيل ، وبه جاء التنزيل ‹٢› في قوله تعالى :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ‹٣›

والقرآن في الاصطلاح : " الكلام المعجز المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته " ، وتلك هي الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم ‹٤› .

وعلماء الإسلام يطلقون لفظ " القرآن " على كل جزء منه كما يطلقونه على مجموع ما بين دفتي المصحف .

---

١ ـ اللسان (قرأ) ١ / ١٢٨ ـ ١٣٣ .

٢ ـ انظر : الإتقان في علوم القرآن ١ / ٥٠ ، ٥١ .

٣ ـ سورة الحجر : ٨٧ .

٤ ـ مناهل العرفان / للزرقاني ١ / ١٢ .

وعلماء الأصول ، بوجه خاص ، يبحثون فيه من حيث إنه دليل على الحكم ، وذلك لكل آية آية ، أو جزء من آية لا مجموع القرآن ‹١› .

وقـد امتاز القرآن الكريم بالبيان والخصائص والمميزات التى ليست فى غيره ، وفيه أصول الدين ، والكثير من فروعه ، وفيه من أوجه الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وروعة البيان ، ما يلفت الأنظار إلى ما فى الكون من عجائب قدرة الخالق ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ‹٢›

وقوله :

مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ‹٣›

فالقرآن العظيم كتاب شامل ، لما تضمن من أصول وقواعد ومبادىء ، تتسع للفروع ، واستنباط الأحكام ، فليس من أمر فى الدين إلا وقد دل عليه القرآن الكريم ، إما دلالة مبيّنة مشروحة ، وإما مجملة يكون بيانها من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو من الإجماع ، أو من القياس ‹٤› .

وقوله :

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ‹٥›

---

١ ـ المدخل للفقه الإسلامى / مدكور ٢٠٠ .

٢ ـ سورة النحل : ٨٩ .

٣ ـ سورة الأنعام : ٣٨ .

٤ ـ الجامع لأحكام القرآن / للقرطبى ٦ / ٤٢٠ .

٥ ـ سورة النحل : ٤٤ .

وقوله :

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ

ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ‹١›

قال القرطبي : " ثم جعل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملاً ، وتفسير ما كان منه مشكلاً ، وتحقيق ما كان منه محتملاً ، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ، ومنزلة التفويض إليه " ‹٢› .

وقد جاء القرآن الكريم بأحكام متعددة يمكن إجمالها فيما يلي :

١ ــ أحكام اعتقادية ، تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده في الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

٢ ــ أحكام خلقية ، تتعلق بما يجب على المكلف أن يتحلى به من الفضائل ، وما يتخلى عنه من الرذائل .

٣ ــ أحكام عملية ، تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال ، وأفعال ، وعقود ، وتصرفات .

والأحكام العملية في القرآن الكريم نوعان :

أ ــ أحكام العبادات من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، وحج ، ونذر ، ويمين ، ونحوها من العبادات التي يقصد بها حسن علاقة الإنسان بربه .

ب ــ أحكام المعاملات ، من عقود وتصرفات وعقوبات وجنايات وغيرها ، مما عدا العبادات ، ومما يقصد بها تنظيم علاقة المكلفين بعضهم ببعض ، سواء كانوا أفراداً أو جماعات .

---

١ ــ سورة النحل : ٦٤ .

٢ ــ الجامع لأحكام القرآن ١ / ٢ .

والأحكام فيما عدا العبادات تسمى فى الاصطلاح الشرعي " أحكام المعاملات " وأما فى اصطلاح العصر الحديث ، فقد تنوعت أحكام المعاملات بحسب ما تتعلق به وما يقصد بها إلى الأنواع الآتية :

١ ـ أحكـــام الأحوال الشخصية : وهى التي تتعلق بالأسرة من بدء تكوينها ، من حســـن العلاقة بين الزوجين ، وحسن العلاقة بين الأقارب ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ‹١›

وغير ذلك من الآيات فى القرآن الكريم .

٢ ـ الأحكام المدنية : وهى التى تتعلق بمعاملات الأفراد ومبادلاتهم ، من بيع وإجارة ، ورهن ، وكفالة ، وشركة ، ومداينة ، ووفاء بالالتزام ، ويقصد بها تنظيم علاقات الأفراد المالية ، وحفظ حق كل ذى حق .

قال عز وجل :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا

‹٢›

---

١ ـ سورة النساء : ١ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٨٢ .

وغير ذلك من الآيات .

٣ ـ الأحكام الجنائية : وهى التى تتعلق بما يصدر عن المكلف من جرائم وما يستحق عليها من عقوبة ، ويقصد بها الحفاظ على حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم .

ومن أمثلة ذلك إقامة الحدود فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ، فالعقوبـــات الدنيوية مثل إقامة الحدود لمن يتجاوز حدود الله كحد القتل ، أو السرقة ، أو الزنا ، أو القذف وغيرها .

وأما العقاب الأخروى ففى يوم الجزاء والحساب يوم القيامة فى نار جهنم <١> .

كما قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ <٢>

ويؤيد العذاب الأليم فى الآخرة لمن قتل النفس المؤمنة بغير حق قوله عز وجل : وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ <٣>

---

١ ـ انظر : التشريع الجنائى الإسلامى / لعبد القادر عودة ١ / ١٦٧ ـ ١٦٩ .

٢ ـ سورة البقرة : ١٧٨ .

٣ ـ سورة النساء : ٩٣ .

فهنا يتوعد الله سبحانه وتعالى الذى يتعدى حدوده بأن يكون مخلداً فى النار ، كما قال فى آية أخرى :

وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ
نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١﴾

وغير ذلك من الآيات .

٤ ـ أحكام المرافعات : وهى تتعلق بالقضاء ، والشهادة ، واليمين ، ويقصد بها تنظيم الإجراءات لتحقيق العدل بين الناس ، وذلك على وفق ما قضى الله به ورسوله امتثالاً لقوله عز وجل :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا
مُّبِينًا ﴿٢﴾

ومن أمثلة ذلك الوصية ، لما ذكره سبحانه وتعالى فى قوله :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ
بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ
فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ
وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ
أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ
مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ
أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٣﴾

---

١ ـ سورة النساء : ١٤ .

٢ ـ سورة الأحزاب : ٣٦ .

٣ ـ سورة المائدة : ١٠٦ ـ ١٠٨ .

وهذا النص الكريم يشتمل على شهادة غير المسلمين من اليهود والنصارى على الوصية في السفر للذى يموت وهو في سفره ولم يجد غيرهم .

وذهب إلى جوازها الإمام أحمد ، وقضى بها ابن مسعود وابو موسى الأشعر رضى الله عنهما . <١>

ولأن الكاف والميم في قوله (منكم) ضمير للمسلمين ، أى من أهل دينكم .

وقوله (أو آخران من غيركم) أى أو شهادة أخرين من غير أهل دينكم ، فعلى هذا شهادة غير المسلمين على المسلمين في السفر في الوصية جائزة بسياق الآية . <٢>

قال ابن كثير : « وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين :

١ ـ أن يكون في السفر .

٢ ـ وأن يكون في الوصية . <٣>

وفي سبب نزول الآية جاء في الصحيح : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى بن بداء فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم ، فلما قدما بتركته فَقدُ واجاماً من فضة مخوصاً من ذهب ، فأحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وجد الجام بمكة ، فقالوا ابتعناه من تميم وعدى ، فقام رجلان من أولياء السهمى فحلفا الشهادتنا أحق من شهادتهما ، وإن الجام لصاحبهم ، قال : ونزلت هذه الآية :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ . . .) <٤>

---

١ ـ المغنى لابن قدامه ٩ / ١٨٢ .

٢ ـ سورة المائدة : ١٠٦ ، وانظر الجامع لاحكام القرآن : ٦ / ٣٤٩ ـ ٤٥١ .

٣ ـ ابن كثير : ٢ / ٦٧١ .

٤ ـ صحيح البخارى بشرح فتح البارى : ٥ / ٤٠٩ ـ ٤١٠ / كتاب الوصايا / باب قول الله عز وجل (يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر احدكم الموت) الآية ، المائدة ١٠٦ ـ ١٠٨ .
ولمزيد من الإيضاح انظر : ٦٩٦ ـ ٧٠٧ .

وهذا نص في حكم الشهادة على الموصى إذا حضره الموت أن تكون شهادة عدلين فإن كان في السفر ، ولم يكن معه أحد من المؤمنين ، فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكتاب ، فإذا قدما وأديا الشهادة على الوصية حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولابد لا ، وأن ما شهدا به حق ، وحكم بشهادتهما ، فإن عثر بعد ذلك انهما كذبا أو خانا ونحو هذا مما هو إثم ، حلف رجلان من أولياء الموصى في السفر ، وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما . ‹١›

٥ ـ الأحكام الدستورية : وهى التى تتعلق بنظام الحكم وأصوله ، ويقصد بها تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم ، وتقرير ما للأفراد والجماعات من حقوق ، وما عليهم من واجبات .

٦ ـ الأحكام الدولية : وهى التى تتعلق بمعاملة الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول ، أو بمعاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية .

ويشمل ذلك علاقة الدولة الإسلامية بغيرهم من الدول فى السلم والحرب ، وتحديد علاقة المسلمين بغيرها فى سائر الدول الإسلامية . ومن أمثله ذلك قوله تعالى :

لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ‹٢›

---

١ ـ انظر : جامع البيان : ١١ / ١٥٤ ـ ٢٠٩ ، الجامع لأحكام القرآن : ٦ / ٣٤٩ ـ ٣٦٠ ، واحكام القرآن : ٢ / ٧٢٤ ـ ٧٢٩ « بتصرف » .

٢ ـ سورة الممتحنة : ٨ ، ٩ .

٧ ـ الأحكام المالية : وهـي التي تتعلق بحق السائل والمحروم في مال الغنى ، وتنظيم الموارد والمصارف ، ويقصد بها تنظيم العلاقات المالية بين الأغنياء والفقراء ، وبين الدولة والأفراد ‹١› وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ ‹٢›

ويقول عز وجل :

﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ ‹٣›

وقد نص القرآن الكريم على كثير من الأحكام والتكاليف الشرعية ، ولا سيما في الأمور الاعتقادية ، والتشريعات العملية التي لا تختلف باختلاف الأزمان والعصور ، كتوحيد الله وصفاته ، والأخلاق والآداب التي لا تتغير بتغير الزمان ، كالأمر بالعدل ، والصدق ، والنهي عن الظلم ، والكذب ، وأحكام بعض المعاملات ، وتحريم الخبائث ، كحل البيع وتحريم الربا ، وإباحة الرهن ، والدين ، والنكاح ، والطلاق ، وحرمة الخمر ، والميسر ، والسرقة ، والزنا ، وقطع الطريق ، والقذف ، وحرمة التعدي على الدماء كالقتل ، إلى غير ذلك من الأحكام التي نُصَّ عليها صراحة في القرآن ، أو جاءت غير مصرح بها ، إما لمجيئها ضمن غيرها ، أو لفهمها أو للإشارة إليها ‹٤› .

وهذه الأحكام سالفة الذكر مستمدة من القرآن العظيم .

---

١ ـ التشريع الجنائي الإسلامي ١ / ١٦٧ ـ ١٦٩ .

٢ ـ سورة التوبة : ٦٠ .

٣ ـ سورة المعارج : ٢٤ ، ٢٥ .

٤ ـ الحدود في الإسلام ومقارنتها بالقوانين الوضعية ٥١/ د . محمد بن محمد أبو شهبة .

وجميع نصوص القرآن قطعيـة الثبوت لأنها مبلغة عن أمين الوحى جبريل ـ عليه السلام ـ عن الله جل شأنه ـ إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى :

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ ‹١›

وقد تكفل الله تعالى بتثبيته فى قلب نبيه صلى الله عليه وسلم ، جمعاً وقراءة وبياناً ، قال عز وجل : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾

‹٢›

ثم بلغه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كما أنزله الله عليه من غير تحريف ، ولا تبديل ، ولا زيادة ، ولا نقصان ، كما أمره الله تعالى به فقال :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ‹٣›

وقد حفظه فى حياة النبى صلى الله عليـه وسلـم جماعـة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وكل قطعة منه كان يحفظها جماعة كثيرة ، أقلهم بالغون حد التواتر ، ثم نقل متواتراً كتابة ومشافهة من جيل إلى جيل ، فلا نشك فى قطعية ثبوته على مر العصور ‹٤› كما يشر إليه قوله تعالى :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ‹٥›

---

١ ـ سورة الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥ .

٢ ـ سورة القيامة : ١٦ ـ ١٩ .

٣ ـ سورة المائدة : ٦٧ .

٤ ـ انظر : البرهان فى علوم القرآن ١ / ٢٤١ .

٥ ـ سورة الحجر : ٩ .

وعلى ذلك كانت حجية القرآن العظيم واجبة الاتباع ، لكونه من عند الله تعالى ، ولا شتماله على جميع الأحكام ، والمتطلبات الصالحة لكل زمان ومكان ، كما يقول عز وجل :

وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ‹١›

وكما يقول عز من قائل :

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ‹٢›

ولهذا وجبت طاعة الله باتباع كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولاشتماله على الآيات البينات والأحكام القاطعة ، والدلائل الواضحة ، والبراهين الساطعة .

ثانياً : السنة المطهرة ـ سنة رسولنا صلى الله عليه وسلم ـ هى الأصل الثاني فى التشريع .

والسنة فى اللغة : الطريقة والسيرة ، حسنة أم سيئة ‹٣› .

وأما السنة فى الاصطلاح : فهى كل ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة خُلُقيه أو خَلْقيه ، أو سيرة ، سواء كان قبل البعثة أو بعدها ‹٤› .

فكل ما يصدر عن رسولنا صلي الله عليه وسلم من قول ، أو فعل ، أو تقرير يعتبر من السنة ‹٥› .

والسنة واجبة الاتباع لمكانتها من القرآن العظيم ببيانه وتوضيحه ، ولصدورها عن النبى صلى الله عليه وسلم الذى آتى بالتشريع ، وبلغ رسالة ربه .

---

١ ـ سورة فصلت : ٤١ ، ٤٢ .

٢ ـ سورة الأنعام : ١٥٥ .

٣ ـ اللسان (سنن) ١٣ / ٢٢٠ ـ ٢٢٩ .

٤ ـ السنة ومكانتها / للسباعى ٦٠ .

٥ ـ علم أصول الفقه / خلاف ٣٦ .

وقد ثبتت حجية السنة بالقرآن الكريم ، وعمل بها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال عز وجل :

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
<١>

وقال :
هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟
مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ <٢>

وكما قال سبحانه وتعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى
ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا
<٣>

فالله سبحانه وتعالى أمر عباده المؤمنين أن يردوا كل ما يختلفون فيه أو يتنازعون عليه من الأحكام وغيرها إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بسؤاله فى حياته ، أو بالنظر فى سنته بعد وفاته <٤> .

وقال عز من قائل : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟
فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا
<٥>

---

١ ـ سورة آل عمران : ١٦٤ .

٢ ـ سورة الجمعة : ٢ .

٣ ـ سورة النساء : ٥٩ .

٤ ـ انظر : أحكام القرآن / للقرطبى ٥ / ٢٦١ .

٥ ـ سورة النساء : ٦٥ .

وقد **أقسم الله بنفسه** فى الآيه الكريمة أنه لا يؤمن الإنسان حتى يُحكِّم الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له ظاهراً وباطناً <١> .

فهذه الآيات وغيرها تؤكد وتدل دلاله قاطعة على وجوب اتباع سنة رسولنا صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ظهور الإسلام له صفات عديدة كريمة ، من الصدق والأمانة والفطانة والحكمة ، وكان عليه الصلاة والسلام يستعمل عقله الصائب ، وحكمته البالغة ، فيما يعرض له من الأحكام والقضايا ، ومع ذلك كان لا يعرف أحكام التشريع على التفصيل الذى جاء بها القرآن الكريم ، ويؤيد ذلك قوله تعالى :

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ
وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ
وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ <٢>

ولقد عرفنا من كتب التاريخ والسيرة كيف حكم النبى صلى الله عليه وسلم حينما حصل النزاع بين قريش فى وضع الحجر الأسود ، وكل منهم كان يريد أن يضعه ، ويرى نفسه أحق بوضعه من غيره ، وقد اختلفوا حتى كاد أن يحصل بينهم قتال ، ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بني شيبة أن يكون هو الذى يضعه ، وقالوا : رضينا وسلمنا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولَ من دخل من الباب ، فلما رأوه قالوا : هذا

١ ـ انظر : ابن كثير ١ / ٥٢٠ .

٢ ـ سورة الشورى : ٥٢ .

الأمين ، رضينا بما يحكم به بيننا ، ثم أخبروه الخبر ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فبسطه على الأرض ، ثم وضع الركن فيه ، وقال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل ، ثم قال رسول الله صلى عليه وسلم : ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ، ثم رفعوه جميعاً ، ثم وضعه رسول الله صلي الله عليه وسلم بيده في موضعه (١) .

هذا قبل نزول الوحي عليه ، وفي رسالته حَكَم رسولنا صلى الله عليه وسلم بالقصاص ، كما ثبت في الصحيح من حديث أنس بن مالك قال : " عدا يهوديٌّ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جارية فأخذ أوضاحاً (٢) كانت عليها ، ورضخ (٣) رأسها ، فأتى بها أهلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي في آخر رمق وقد أصمتت ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ قتلك ؟ " فلان " ؟ لغير الذى قتلها ، فأشارت برأسها : أنْ لا ، قال : فقال لرجل آخر غير الذى قتلها ، فأشارت أن لا ، فقال : " فلان " لقاتلها فأشارت أن نعم ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضخ رأسه بين حجرين " (٤) وحكم رسولنا صلى الله عليه وسلم لغرماء بأخذ الدين من مال الرجل ، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدرى قال : " أصيب رجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار ابتاعها . فكثر دينه . فقال

---

١ ـ الطبقات الكبرى / لابن سعد ١ / ١٤٥ ، ١٤٦ ، بتصرف .

٢ ـ أوضاحا : الأوضاح : نوع من الحلى يعمل من الفضة سميت بها لبياضها .
واحدها : وضح ، ويجمع على أوضاح . (النهاية فى غريب الحديث ٥ / ١٩٦) .

٣ ـ رضخه بين حجرين ورضه بالحجارة ، ورجمه بالحجارة : قال النووى : هذه الألفاظ معناها واحد . لأنه إذا وضع رأسه على الحجر ، ورمى بحجر آخر ، فقد رجم ورض ، وقد رضخ / انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ١١ /١٥٨ .

٤ ـ صحيح البخارى ٧ / ٦٦/ كتاب الطلاق / باب الإشارة فى الطلاق والأمور ، وصحيح مسلم : ١٢٩٩/٣/ كتاب القسامة / باب ثبوت القصاص فى القتل بالحجر وغيره من المحدات والمثقلات ، وقتل الرجل بالمرأة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم " تصدقوا عليه " فتصدق الناس عليه . فلم يبلـــغ ذلك وفاء دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لغرمائه " خذوا ما وجدتم ، وليس لكم إلا ذلك " <١> .

وقد حكم رسولنا صلى الله عليه وسلم فى قضية الخلع <٢> كما ثبت فى صحيح البخارى فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : " جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس ، إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، ما أنقم على ثابت فى دين ولا خلق ، إلا أنى أخاف الكفر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فتردين عليه حديقته " ؟ فقالت : نعم : فردت عليه وأمره ففارقها <٣> وغير ذلك من الأحكام التى وردت فى السنة المطهرة وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : الإجماع ، وهو أحد المصادر المستندة إلى الكتاب والسنة .

وهو فى اللغة : أن تجمع الشىء المتفرِّق جميعاً ، فإذا جعلته جميعاً بقى جميعاً ولم يكد يتفرق <٤> .

قال تعالى :

فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ <٥>

وأما الإجماع فى الاصطلاح : فهو " اتفاق المجتهدين من المسلمين فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم على حكم شرعى فى واقعة " <٦> .

---

١ ـ صحيح مسلم ٣ / ١١٩١ / كتاب المساقاة / باب استحباب الوضع من الدين .

٢ ـ الخلع : بضم المعجمة وسكون اللام ، وهو فى اللغة : فراق الزوجة على مال ، مأخوذ من خلع الثوب ، لأن المرأة لباس الرجل . (فتح البارى ٩ / ٣٩٥) .

٣ ـ صحيح البخارى ٧ / ٦٠ ، ٦١ / كتاب الطلاق / باب الإشارة فى الطلاق والأمور .

٤ ـ اللسان (جمع) ٨ / ٥٣ ـ ٦٠ .

٥ ـ سورة يونس : ٧١ .

٦ ـ انظر : علم أصول الفقه / لخلاف ٤٥ / والمدخل للفقه الإسلامى / لمدكور ٢١٨ .

والإجماع يستند إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، مثل إجماع الفقهاء على حرمة التزويج من الجدة ، مستندين إلى قوله تعالى :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ (١)

وقالوا : المراد تحريم الأصول ، والجدة أصل الأم .

ويستند الإجماع إلى السنة ، مثل حكمهم للجدة في الميراث بالسدس ، وإذْ أعطاها عليه الصلاة والسلام السدس كما جاء في سنن الترمذي بسنده عن قبيصة بن ذؤيب قال : جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق فسألته ميراثها ، قال لها : مالك في كتاب الله شيء ، ومالك في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء ، فارجعي حتى أسأل الناس ، فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أعطاها السدس " ، فقال : هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن مسلمة فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة ، فأنفذه لها أبو بكر . قال : ثم جاءت الجدة الأخرى إلى عمر بن الخطاب فسألته ميراثها ، فقال : مالك في كتاب الله شيء ، ولكن هو ذلك السدس ، فإن اجتمعتما فيه فهو بينكما . وأيتكما خلت به فَهُو لَها (٢) .

---

١ ـ سورة النساء : ٢٣ .

٢ ـ جامع الترمذي ٣ / ٢٨٤ / أبواب الفرائض / باب ما جاء في ميراث الجدة ، وقال : حسن صحيح .
قال الحافظ في التلخيص الحبير بعد ذكر هذا الحديث : أخرجه مالك وأحمد وأصحاب السنن ، وابن حبان والحاكم من هذا الوجه ، وإسناده صحيح لثقة رجاله ، إلا أن صورته مرسل ، فإن قبيصة لا يصح له سماع من الصديق ، ولا يمكن شهوده للقصة ، قاله ابن عبد البر بمعناه . وقد اختلف في مولده والصحيح أنه ولد عام الفتح فيبعد شهوده القصة ، وقد أعله ابن حزم بالانقطاع . وقال الدارقطني في العلل بعد أن ذكر الاختلاف فيه عن الزهري : يشبه أن يكون الصواب قول مالك ومن تابعه ، وهو أصح من حديث ابن عيينة ، لأن مالكاً أتقن وأثبت من سفيان بن عيينة (انظر : تحفه الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦ / ٢٧٩) .

وأما الإجماع المستند إلى ماعدا ذلك ، كالمستند إلى القياس ، والاستحسان ، أو المصالح المرسلة ، فهو محل خلاف وتفصيله فى كتب أصول الفقه <١> .

رابعاً : القياس : **وهو تقدير الشىء بغيره كما جاء فى اللغة**

وفى الاصطلاح : هو انتقال الذهن من حكم معين إلى حكم معين لاشتراكهما فى ذلك المعنى الكلى <٢> .

وهو حجة شرعية يعمل به مع عدم الحكم بالنص أو الإجماع ، ودليل ذلك من الكتاب والسنة ، كقوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا <٣>

ووجه الاستدلال بالآية الكريمة أنه إذا وقع التنازع والاختلاف على شىء ليس فيه حكم صريح من الكتاب ، أو السنة ، أو الاجماع ، وجب رده إلى اللّه والرسول ، أى رده إلى كتابه العزيز ، ورده إلى رسوله صلى اللّه عليه وسلم بالسؤال فى حياته ، وبالنظر فى سنته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام <٤> .

---

١ ـ انظر : المدخل للفقة الإسلامى / لمدكور ٢٢٣ .

٢ ـ انظر : مجموع الفتاوى ٩ / ١١٩ ، ١٢٠ .

٣ ـ سورة النساء : ٥٩ .

٤ ـ انظر : الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٢٦١ .

ومن لم يَرُدَّ هذا اختل إيمانُه ، لقوله تعالى :

(إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ) الآية .

وقيل : المعنى : قولوا الله ورسوله أعلم ، فهذا هو الرد .

قال القرطبى :

والقول الأول أصح . ولو كان كما قال هذا القائل لبطل الاجتهاد الذى خُصّ به هذه الأمة ، والاستنباط الذى أعطيته ، ولكن تُضرب الأمثال ، ويطلب المِثال ، حتى يخرج الصواب ‹١› .

قال تعالى :

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ‹٢›

وهذا يدل على الاجتهاد إذا عدم النص والإجماع .

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٢٦١ ، ٢٦٢ .

٢ ـ سورة النساء : ٨٣ .

٢ ـ الفرق بين الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية

الفرق بين الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية :

أولاً : الأحكام الشرعية : هى الأحكام التى شرعها الله تعالى لعباده ، وأنزلها على أنبيائه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وتنقسم إلى قسمين :

١ ـ ما يتعلق بالعقائد وأصول التوحيد ، وهذا القسم لا يختلف فى جميع الشرائع السماوية .

قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

‹١›

وفى قوله : (أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ) الأمر بتوحيد الله تعالى ، وطاعته فيما يأمر ، واجتناب ما ينهى عنه ، والإيمان برسله عليهم الصلاة والسلام ، وكتبه ، واليوم الآخر ، والقيام بسائر الأعمال التى يكون بها الإنسان مسلماً ، ولم يرد فيها نص بالتحريم ، وفيها المصالح للأمم على حسب أحوالها ‹٢› .

---

١ ـ سورة الشورى : ١٣ .

٢ ـ انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١٠ بتصرف .

٢ ـ ما يتعلق بالعبادات والمعاملات وهذا يختلف باختلاف الشرائع حسب الأمم وأحوالها وسائر ظروفها .

قال عز وجل : وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

‹١›

ومعنى الآية : أنه جعل التوراة لأهلها ، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا فى الشرائع والعبادات ، والأصل التوحيد ، لا اختلاف فيه ‹٢› .

فمناهج التشريع إذن مختلفة فى الشرائع السماوية ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ، ولا شك أن لكل أمة ، بعث الله إليها رسولاً ، منهجاً تنهجه فى تنظيم حياتها وتدبير أمورها ، وإن كان القرآن الكريم لم يقص علينا تفاصيل تلك المناهج لعدم تعلقنا بها ، ولكن رسم لنا المنهج العظيم فى الشريعة الإسلامية الخالدة .

---

١ ـ سورة المائدة : ٤٨ .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ٦/٢١١ .

ويظهر مما سبق أن الشرائع السماوية فى عصور ما قبل الإسلام كانت تمتاز بالخصوصية والمحدودية للزمان والمكان والأقوام ، حتى ختم الله تلك الشرائع بالشريعة الإسلامية التى عمت بتشريعاتها كل زمان ومكان وأقوام ، فكان لها بذلك حق الخلد والختام إلى يوم القيامة .

ثانياً : القوانين الوضعية : وهى التى وضعها البشر أنفسهم بحسب أفكارهم وآرائهم ومعتقداتهم .

والقانون : " قواعد ملزمة تنظم سلوك الأشخاص فى المجتمع " ‹١› .

أما خصائصه : فهو يخاطب الأشخاص منظماً لوقائع معينة ، يجرى عليها سلوكهم فى المجتمع ، ولا يعبأ بغير سلوكهم الاجتماعي ، أي سلوك الشخص الذى يتصل بغيره من الأشخاص ، ويكون له أثر فى المجتمع ، وهو يقف فى ذلك عند السلوك الاجتماعي الظاهر غالباً ، ولا يتعرض للنوايا إلا نادراً .

وعلى من يخالف هذه القواعد جزاء مادى يكون له أثر فى الحياة الدنيا ، كما أن الجزاء يختلف باختلاف الزمان والمكان ، فإلقاء المتهم أمام أحد الوحوش لافتراسه كان عقوبة زمنا ما فى جماعات أخرى ‹٢› .

أما سبب وجود القوانين الوضعية فيرجع إلى الانحراف عن شرائع الله تعالى ، وعدم المعرفة الكاملة بالحقوق والواجبات ، والجهل بأصول الاجتماع .

---

١ ـ الوجيز فى تاريخ القانون / للعطار ٥ ، ٦ .

٢ ـ المصدر السابق ، باختصار .

ويظهر التفاوت والاختلاف بين أحكام الدين والقوانين الوضعية فيما يلي :

١ ـ الدين رسالة من عند الله سبحانه وتعالى ، لكن القوانين أحكام من وضع البشر ، فكلاهما يختلف عن الآخر ، من حيث المصدر .

٢ ـ نطاق الدين أوسع من نطاق القوانين الوضعية ، لأن الدين ينظم سلوك الإنسان مع ربه ، ونفسه ، وغيره من الناس .

والدين ينظر إلى النوايا ، كما يحاسب على السلوك الظاهرى ، لكن القوانين الوضعية غالباً تقتصر على السلوك الظاهرى ، ولا تتعرض للنوايا إلا نادراً .

٣ ـ أحكام الدين تتضمن جزاء أخروياً إلى جانب الجزاءات الدنيوية إن وجدت ، لكن القوانين لا تتضمن غير الجزاءات الدنيوية ، وجزاء الدين الثواب والعقاب من الله تعالى ، بينما يغلب على جزاء القوانين أن يكون زاجراً ولا ثواب عليه .

٤ ـ غاية الأحكام الدينية تتمثل فى تنظيم سلوك الأشخاص فى المجتمع ، فهى تحقق الخير والنظام ، والسمو بهذا السلوك نحو الأمثل والأكمل ، ولكن غاية القوانين الوضعية أنها تنظم سلوك الأشخاص فى المجتمع ، وتحقق المصالح التى يراها واضعو القانون جديرة بالحماية ومحققه للأمن والاستقرار(١) .

ويضاف إلى ذلك أن التشريع السماوى هو من الله سبحانه وتعالى ، وهو محيط بكل صغيرة وكبيرة من شئون عباده ، فيكون دائماً وأبداً عادلاً مستوفياً لوجوه مصالحهم .

---

١ ـ انظر : الوجيز فى تاريخ القانون ٧٢ ، ٧٣ / بتصرف .

أما نظرة واضع القانون فهى قاصرة ، وإن علم شيئاً غابت عنه أشياء . لأنه يتأثر فى تكوينه وفى عمله بالعوامل الاجتماعية ، كالعرف ، والعادة ، والبيئة ، وبالعوامل الطبيعية ، كالزمان والمكان . لذلك نرى القوانين الوضعية ناقصة وفى حاجة إلى التكميل ، فضلاً عن كون القوانين الوضعية تبيح ما تحرمه الشرائع السماوية ، كالتجارة فى الخمور ، وفتح دور اللهو ، والتعامل بالربا ، كما أنها تمنع من أشياء مباحة أو واجبة فى التشريع السماوى ، كمنع الناس عن الزواج إلا فى سن محدودة ، وكأن ترى أن قطع يد السارق ، أو جلد شارب الخمر ، ورجم الزانى والزانية يتنافى مع الرحمة ، ومـــن هذا يتضح أن للأهواء والرغبات والعوامل المتقلبة ووجهة نظر الواضـــع ومقـــدار ثقافته وعلمه ، لكل ذلك أثر كبير فى التشريع الوضعى ‹١› .

---

١ ـ انظر: تاريخ التشريع / للسايس ١٢ ، ١٣ / بتصرف .

الفصل الأول

وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى

الحكم بما أنزل الله تعالى هو الطريق المستقيم لإقامة العدل ، وأما الحكم بغير ما أنزل الله فهو الكفر والظلم والفسوق .

قال تعالى آمراً بالحكم بما أنزله :

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٤٤) وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

(١)

في هاتين الآيتين الكريمتين فيهما تعظيم للتوراة وتفخيم لشأنها حيث فيها الهدى والنور الذى يرشد الناس إلى الحق ، وفيها الضياء الذى يكشف به ما تشابه عليهم وأظلم ، وفيها بيان الشرائع والتبشير بمحمد صلي الله عليه وسلم ووجوب اتباعه .

وكان انبياء بنى اسرائيل يحكمون بما في التوراة من حكم الله تعالى ولكن بعض اليهود غير واو بدلوا وحرفوا حكم الله تعالى الذي أنزله في التوراة ، وفيها بيان ما سألـــك عنـــه هؤلاء اليهود يا محمـــد من حكم الزانيين المحصنين حينما

---

١ ــ سورة المائدة : ٤٤ ، ٤٥ .

استفتوه فيهما فحكم بما في التوراة من الحكم عليهما بالرجم ، الذى بدلوه من التحميم والجلد . ‹١›

وفيها ما التبس عليهم في التسوية بين القتلى في القصاص ، والدية الكاملة في العامة .

وبالنصف في الأشراف ، وقد سوى الله بينهم جميعاً .

فاحكم يا محمد بينهم بالحق ولا تخشاهم .

وقد حكم بالتوراة وأحكامها التى أنزلها الله ، العلماء بالذى استحفظوه من العلم من جهة انبيائهم من غير تغيير ولا تبديل ولا تحريف .

وكانوا شهداء للنبى محمد صلي الله عليه وسلم وبما قال ، وأنه حق ، وما جاء به من عند الله صدق .

ثم يقول سبحانه وتعالى لعلمائهم وأحبارهم لا تخافوا الناس في تنفيذ حكمى الذى حكمت به على عبادى بما أمرتكم به ، ونهيتكم عنه ، فإنهم لا يستطيعون ان يجلبوا لكم ضر ، ولا نفع إلا بإذنى وارادتى ، ولكن أخشو الله دون أحد من خلقى وخافوا عقابى في كتمانكم ما استحفظتم عليه من كتابى ، ونهاهم سبحانه وتعالى عن أخذ رشوة عوضاً عن ترك حكم الله تعالى ، واستبداله أو كتمانه ثم قال (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**) أى من كتم حكم الله الذى أنزله في كتابه ، وجعله حكماً بين عباده فأخفاه وحكم بغيره ، فهؤلاء الذين سرد الحق الذي كان عليهم بيانه وكشفه واظهروا لهم غيره وقضوا به عليهم « هم الكافرون » . ‹٢›

والحق سبحانه وتعالى يخبر نبيه صلى الله عليه وسلم إنه فرض على هؤلاء اليهود الذين يحكمونك يا محمد ، وعندهم التوراة فيها حكم الله ، أنه إذا قتلت نفساً بغير حق ، إن تقتل النفس القاتله بالمقتولـــه ، وأن تفقأ العين مثلها من نفس

---

١ ـ سبق ذكر ذلك : ٣٢١ ـ ٣٢٢ من الرسالة .

٢ ـ انظر : جامع البيان : ١٠ / ٣٢٨ ـ ٣٤٦ باختصار .

أخرى بالعين المفقوعة ، وان يجدع الأنف بالانف ، وتقطع الاذن بالأذن ، وتقلع السن بالسن ، ويقتص من الجارح غيره ظلماً للمجروح .

ثم بين له انه من عفا عما كان له فهو له كفارة تمحوا عنه الذنوب واخبره بقوله (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**) أى من جار فهو ظالم لنفسه ولغيره . ‹١›

وقال عز من قائل : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ‹٢›

في الآية الكريمة أمر من الله سبحانة وتعالى لأهل الانجيل ـ النصارى ـ بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الأمور التى من جملتها دلائل رسالته صلى الله عليه وسلم ، وما قررته شريعته من الأحكام .

أما الأحكام المنسوخة ، فليس الحكم بها واجباً ، لأنها نسخت وانتهى وقت العمل بها .

ثم قال (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**) أى من لم يحكم بما أنزل الله فهم المتمردون الخارجون عن طاعة ربهم المائلون عن طريق الحق إلى الباطل . ‹٣›

---

١ ـ انظر : جامع البيان : ١٠ / ٣٣٨ ـ ٣٤٦ باختصار .

٢ ـ سورة المائدة : ٤٧ .

٣ ـ انظر : ابن كثير : ٢ / ٥٨٥ ، وروح المعانى : ٦ / ١٥٠ ، ١٥١ « بتصرف » .

وذلك لأن الأحكام البشرية التى هى من وضع البشر تكون صادرة عن دائرة ضيقة ، فيها الأهواء والأغراض ، وتكون محدودة بالزمان والمكان والأشخاص ، وممزوجة بالعواطف والغرائز المركبة فى النفوس البشرية ، لذا فإنها غير صالحة لإقامة العدل .

أما أحكام الله سبحانه وتعالى فهى صادرة ممن يتعالى عن الأهواء والأغراض ، والزمان والمكان ، وقد أحاط جل شأنه بالماضى والحاضر والمستقبل ، وبخصائص النفوس البشرية ، لأنه هو خالقها من العدم إلى الوجود ، وعالم بما يصلحها ويصلح لها ، قال عز وجل :

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

<١>

شرع سبحانه وتعالى في ذكر القرآن العظيم الذى أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

---

١ ـ سورة المائدة : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

فقال : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق) الخطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه أنزل إليه القرآن بالصدق الذى لا ريب فيه ، وأنه حقيق من عند الله تعالى .

(مصدقاً لما بين يديه من الكتاب) أى مصدقاً للكتب السماوية المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه أنزله على خاتم الانبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم وكان نزوله كما أخبرت به الكتب السابقة ، مما زادها إلا صدقاً عند حامليها من ذوى البصائر الذين انقادو والأمر الله ، واتبعوا شرائعه ، وصدقوا رسله .

(ومهيمناً عليه) أى حاكماً على ما قبله من الكتب السماوية .

قال ابن كثير : « جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها ، وأعظمها ، واكملها حيث فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً ، وحاكماً عليها وتكفل بحفظه » . (١)

ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (**فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل منكم شرعة ومنهاجا**)

أى احكم يامحمد بين المحتكمين إليك من أهل الكتاب ، وسائر أهل الملل بكتابه الذى أنزله إليك ، وفيه جميع الأحكام من الحدود ، والجروح ، وقود النفس ، وغيرها ، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود الذين قالوا : إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ، وذلك في جلد الزانى المحصن دون الرجم ، وقتل الوضيع بالشريف إذا قتله ، وترك قتل الشريف بالوضيع إذا قتله .

---

١ ــ ابن كثير : ٢ / ٥٨٧ .

وقد خير الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحكم عليهم ، أو لا يحكم لهم ، ولا يتبع أهواءهم ، ويؤثرها على الحق الذى أنزله إليه في كتابه .

ومعنى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يسلكه ، ويعمل به .

قال قتادة : « سبيلاً وسنة ، والسنن مختلفة للتوراة شريعة ، وللإنجيل شريعة ، وللقرآن شريعة ، يحل فيها ما يشاء الله ، ويحرّم ما شاء الله ، ليعلم من يطيع الله ، ممن يعصية » ، ولكن الدين واحد لا يقبل غيره ، وهو التوحيد والاخلاص لله تعالى ، وهو الذى جاءت به الرسل .

(لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أى لو شاء الله لجعل شرائعكم واحدة ، ولم يجعل لكل أمة شريعة ومنهاجاً وقد جعل هذه المخالفة بين الشرائع ، ليختبركم فيعرف المطيع من العاص ، فبادروا إلى الصالحات من الأعمال ، والقرب إلى ربكم ، لان مصيركم إليه ومآلكم بين يديه يوم القيامة فتعرفون المحق حيئذٍ من المبطل .

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما أنزل الله (**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم**) تأكيد للأمر بذلك والنهى عن خلافه وقوله : (**واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك**) .

أى احذر يا محمد من اليهود الذين جاءوا محتكمين إليك في الزانيين المحصنين <١> أن يصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من حكم كتابه ، فيحملوك على ترك العمل به ، واتباع اهوائهم ، أو أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور فلا تغتر بهم لأنهم مكابرون كافرون .

---

١ ـ انظر من الرسالة : ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

وقـوله : (**فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون**) أى إن اعرضوا عما حكمت به بينكم بالحق الذي عندك ، وخالفوا شرع الله ، فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التى أقضت إلى إضلالهم ونكالهم .

وقوله : (**وإن كثيراً من الناس لفاسقون**) أى لخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق تاركوا العمل به .

وقوله : (**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**) .

ينكر الحق سبحانه وتعالى على هؤلاء الخارجين عن حكم الله واتباع شرعه الشامل كل خير الناهى عن كل شر ، العادل في كل شيء إلى ما سواه من الاحكام الوضعية والأهواء والآراء الفاسدة المضلة عن حكم الله تعالى أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ، العالم بكل شيء والقادر على كل شيء . (١)

فهذه الآيات من كتاب الله تؤكد وتوجب الالتزام بالحكم بما أنزل الله ، وتذم وتنعى على الذين لا يحكمون بما أنزل الله ، وتصفهم بأشنع الأوصاف ، وتحذر المؤمنين من اتباع الأهواء والأحكام المتحرفة ، والمفسدة للعقول ، والمضلة عن الطريق المستقيم .

ويجب العلم أن الحكم بما أنزل الله إما أن يكون بنص من الكتاب أو من السنة ، وإما أن يكون بالاجتهاد الذى يرتضيه التشريع الإلهى .

---

١ ـ جامع البيان : ١٠ / ٣٩٢ ـ ٣٩٤ باختصار ، وابن كثير : ٢ / ٥٨٩ ـ ٥٩٠ باختصار .

فهذه مصادر الأحكام إجمالاً ، وهى التى أقرها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كما جاء فى الترمذى بسنده عن شعبة عن أبى عون : عن الحارث بن عمرو ، عن رجل من أصحاب معاذ . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بَعث معاذاً إلى اليمن فقال : " كيف تقضى " ؟ فقال : أقضي بما فى كتاب الله . فقال : " فإن لم يكن فى كتاب الله " ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : " فإن لم يكن فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم " ؟ قال : أجتهد رأيي . قال : " الحمدُ لله الذى وفق رَسُولَ رَسُولِ الله ‹١› .

---

١ ـ جامع الترمذى ٢ / ٣٩٤/ أبواب الأحكام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم / باب ما جاء فى القاضى كيف يقضى ./ وتحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ٤ / ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، وسنن أبى داود ٣ / ٣٠٢/ كتاب القضية / اجتهاد الرأى فى القضاء .

ولهذا الحديث شواهد موقوفة : عن عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس ، وقد أخرجها البيهقى فى سننه عقب تخريجه لهذا الحديث .

انظر:عون المعبود شرح سنن أبى داود ٩ / ٥١٠ ، ٥١١ ، والسنن الكبرى للبيهقى ١٠/١١٤ ، ١١٥.

قال ابن القيم رحمه الله تعقيباً على هذا الحديث : وإن كان غير مسمين فهم أصحاب معاذ ، فلا يضره ذلك . لأنه يدل على شهرة الحديث ، وأن الذى حدث به الحارث بن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ ، لا واحد منهم ، وهذا أبلغ فى الشهرة من أن يكون عن واحد منهم لو سُمِّى ، وكيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذى لا يخفى ، ولا يعرف فى أصحابه متهم ، ولا كذاب ، ولا مجروح ، بل أصحاب من أفاضل المسلمين وخيارهم ، ولا يشك أهل العلم بالنقل فى ذلك ، كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث ، وقد قال بعض أئمة الحديث : إذا رأيت شعبة فى إسناد حديث فاشدد يديك به .

قال أبو بكر الخطيب : " وقد قيل : إن عبادة بن نسي رواه عن عبد الرحمن بن غَنْم عن معاذ ، وهذا إسناده متصل ، ورجاله معروفون بالثقة ، على أن أهل العلم قد نقلوه واحتجوا به ، فوقفنا بذلك على صحته عندهم . (إعلام الموقعين ١ / ٢٢١) .

وقطعت نصوص القرآن الكريم بتحريم كل ما يخالف نصوص الشريعة الإسلامية صراحة أو ضمناً ، وكذلك كل ما يخالف مبادئها العامة أو روح التشريع الإلهى ، ونهت نهياً جازماً عن العمل بغير شريعة الله ، واعتبرت العامل بغيرها متبعاً هواه ، منقاداً إلى الضلال والخسران و مضلاً لغيره ، ظالماً نفسه ولغيره ، كافراً بما أنزل الله تعالى ‹١› .

وقد وصف الله عز وجل الذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى بثلاث صفات مذكورة فى الآيات من قوله عز وجل :

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ‹٢›

وقوله

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ‹٣›

وقوله

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ‹٤›

أما عن أسباب نزولها ، وعن المراد من كل من : الكافرين ، والظالمين ، والفاسقين ، فيحسن أن يعرف أولاً كلا من الكفر ، والظلم والفسق لغوياً وشرعياً .

أما الكفر فى اللغة : فهو التغطية ، يقال : كفرت الشىء ، أكفره بالكسر ، أى أستره ، ويسمى " الزارع " كافراً لستره البذور بالتراب .

---

١ ــ انظر : الإسلام وأوضاعنا القانونية / لعبد القادر عودة ٥٥ ، ٥٦ .

٢ ــ سورة المائدة : ٤٤ .

٣ ــ سورة المائدة : ٤٥ .

٤ ــ سورة المائدة : ٤٧ .

ويسمى الليل المظلم الكافر ، لأنه يستتر بظلمته كا شيء ومن ذلك سمى الكافر كافراً لأنـــه قـــد ستر نعـــم الله تعالى بترك أداء شكرها <١> .

وأما في الشرع : فهو نقيض الإيمان ، وهو على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية ، أو النبوة ، أو الشريعة ، أو ثلاثتها <٢> .

وأما الظلم في اللغة : فهو وضع الشيء في غير موضعه ، يقال : ظُلمـــت الناقة : أي نحرت عن غير علة ، وكل ما أعجلته عن أوانه فقد ظلمته . والظلم : الميل عن القصد ، والعرب تقول : الزم هذا الصَّوْب لا تَظْلِم عنه ، أي لا تجر عنه . ويقال : تظلَّم فلان من فلان ، إذا شكا من ظلمه ، وتظلَّمَني فلان ، أي ظلمني مالي ، وتظلَّم فلان إلى الحاكم من فلان ، فظلَّمه تظليماً ، أي أنصفه من ظالـــمه وأعانه عليه ، والظلم : المنع ، يقال : ما ظَلَمك عن هذا ؟ أي ما منعك ؟ والظَّلَمة : جمع ظالم ، أي المانعون أهل الحقوق حقوقهم . والظُّلامة ــ بالضم ــ والمَظْلمه ــ بزنة مَفْعله ــ أي ما أخذ منك . وتظالم القوم : ظلم بعضهم بعضا . ويقال : ظُلم فلان : بالبناء للمجهول ، فاظَّلم بتضعيف الظاء ، إذا احتمل الظلم بطيب نفسه وهو قادر على الامتناع منه <٣> .

والظلـــم هـــو وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة ، وإما بعدول عن وقته أو مكانه .

ويقال في مجاوزة الحق ، ويقال فيما يكثر ويقل من التجاوز ، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير والصغير <٤> .

---

١ ــ اللسان (كفر) ٥ / ١٤٤ ــ ١٥٤ .
٢ ــ مفردات الراغب (كفر) ٤٥١ .
٣ ــ اللسان (ظلم) ١٢ / ٣٧٣ ــ ٣٨٠ .
٤ ــ مفردات الراغب (ظلم) ٣٣٦ .

وأما معنـــــاه فى الشرع : فهو عبارة عن التعدى من الحق إلى الباطل ، وهو الجور .

أو التصرف فى ملك الغير ومجاوزة الحد <١> .

وقد قسم بعض العلماء الظلم إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى ، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق ، ولهذا قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ <٢>

٢ ـ ظلم بين الإنسان وبين الناس ، وإياه قصد القرآن بقوله :

﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ <٣>

وقوله :

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ <٤>

٣ ـ ظلم بين الإنسان وبين نفسه ، وإياه قصد القرآن بقوله :

﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ <٥>

وقوله :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ <٦>

---

١ ـ التعريفات / للجرجانى ١٤٤ .

٢ ـ سورة لقمان : ١٣ .

٣ ـ سورة الإسراء : ٣٣ .

٤ ـ سورة الشوري : ٤٢ .

٥ ـ سورة فاطر : ٣٢ .

٦ ـ سورة البقرة : ٢٣١ ، وانظر : مفردات الراغب (ظلم) ٣٣٦ .

وأما الفسْق ـ بكسر فسكون ـ فى اللغة : فمعناه الخروج مطلقا ، يقال : فَسَقت الرُّطَبة من قشرها ، إذا خرجت عنه ـ وتسمى الفأرة : فُوَيْسِقَة ، لخروجها من جُحْرها على الناس .

وفسق عن أمر ربه : خرج من طاعة ربه . وفَسقَ ـ بفتحتين ـ يَفْسُق ـ بالفتح والضم ـ فِسْقا وفُسوقا ، أى فَجرَ ، ورجل فاسق ، وفِسِّيق ـ بكسر الفاء وتشديد السين مكسورة ، وفُسَق ـ بضم ففتح : دائم الفِسْق ، ويسمى العاصى فاسقا لخروجه عن الاستقامة ‹١› .

والفِسْق فى الشرع : هو الخروج عن الشرع ، وهو أعم من الكفر ، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن تُعُورِف فيما كان كثيراً ، وأكثر ما يقال : (الفاسق) لمن التزم حكم الشرع وأقرَّ به ، ثم أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضها ، ويقال : فسق فلان ، إذا أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة ، فالفاسق أعَمُّ من الكافر ، والظالم أعَمُّ من الفاسق ‹٢› .

والآية الأولى من سورة المائدة ‹٣› قد ذُيِّلت بقوله :

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ‹٤›

ويقول **الطبرى رحمه الله** فى تفسيرها : " من كتم حكم الله الذى أنزله فى كتابه ، وجعله حكَما بين عباده فأخفاه ، وحكم بغيره ، كحكم اليهود فى الزنيين المحصنيين بالتجبية والتحميم ، وكتمانهم الرجم ، وكقضائهم فى بعض قتلاهم بدية كاملـــة ، وفى بعضهم بنصف الدية ، وفى الأشراف بالقصاص ، وفى الأدنياء بالدية ، وقد سوَّى الله بينهم جميعاً فى الحكم عليهم فى التوراة .

---

١ ـ اللسان (فسق) ١٠ / ٢٠٨ .

٢ ـ انظر : مفردات الراغب (فسق) ٣٩٤ .

٣ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

٤ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

(فأولئك هم الكافرون) أى فهؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله فى كتابه ، ولكن بدّلوا وغيروا حكمه ، وكتموا الحق الذى أنزله فى كتابه"هم الكافرون" أى الذين ستروا الحق الذى كان عليهم كشفهُ وتبيينهُ ، ولكنهم غطوه على الناس ، وأظهروا لهم غيره ، وقضوا به لسُحْت أخذوه منهم عليه ‹١› .

ثم ذكر **الطبرى** الاختلاف فى المراد بالكافرين فى هذه الآية ‹٢› .

فنقل عن بعضهم أنه قال : هم اليهود خاصة ، وقال آخرون ، هم أهل الكتاب عامة ، الذين حرفوا كتاب الله تعالى ، وبدلوا حكمه على النحو الآتى :

أخرج **مسلم** بسنده ، عن البراء بن عازب ، قال : مُرّ على النبى صلى الله عليه وسلم بيهودى مُحَمَّماً ‹٣› مجلودا . فدعاهم صلى الله عليه وسلم فقال : " هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ " قالوا نعم . فدعا رجلاً من علمائهم . فقال : " أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ! أهكذا تجدون حَدَّ الزانى فى كتابكم ؟ " قال : لا . ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك . نجد الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا . فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذ الضعيف ، أقمنا عليه الحدَّ . قلنا : تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع . فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم ! إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه " ، فأمر به فرُجم ، فأنزل الله عز وجل :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ

إلى قوله : إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ ‹٤›

---

١ ـ جامع البيان ١٠ / ٣٤٥ ، ٣٤٦ (المحقق) .

٢ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

٣ ـ قوله : (بيهودى مُحَمَّماً) أى مسود الوجه من الحمُمة ، وهى الفحمة .

٤ ـ سورة المائدة : ٤١ .

يقول : ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم . فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، فأنزل الله تعالى :

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ‹١›

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ‹٢›

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ‹٣›

فى الكفار كلها ‹٤› .

وقال **الطبرى** : ليس فى أهل الإسلام منها شىء ، هى فى الكفار ‹٥› .

وأخرج الامام أحمد بسنده ، عن ابن عباس قال : إن الله عز وجل أنزل :

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ)

و (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) و (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) قال : قال ابن عباس : أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود ، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية ، حتى ارتضوا أو اصطلحوا على أن كل قتيل قتله العزيزة من الذليلة فَدِيَتُهُ خمسون وَسْقاً ‹٦› ، وكل قتيل قتله الذليلةُ من العزيزة فديتُه مائة وَسْق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، فذلّت الطائفتان

---

١ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

٢ ـ سورة المائدة : ٤٥ .

٣ ـ سورة المائدة : ٤٧ .

٤ ـ صحيح مسلم ٣ / ١٢٣٧ / كتاب الحدود / باب رجم اليهود ، أهل الذمة فى الزنى .
وأخرجه أبو داود ٤ / ١٥٤ / كتاب الحدود / باب رجم اليهوديين .

٥ ـ انظر : جامع البيان ١٠ / ٣٤٦ ، ٣٤٧ " المحقق " .

٦ ـ الوَسْق ـ بفتح فسكون ـ حمل بعير ، وهو ستون صاعا بصاع النبى صلى الله عليه وسلم ، وجمعه : أوْسُق . وقيل : الوسق ستون صاعا وهو ثلاثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز ، وأربعمائة وثمانون رطلا عند أهل العراق ، على اختلافهم فى مقدار الصاع والمد [اللسان ـ وسق] ١٠ / ٣٧٨ ـ ٣٨١ .

كلتاهما لمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويومئذ لم يَظْهَرْ<١>ولم يوطئْهما <٢> عليه وهو فى الصلح ، فقتلت الذليلة من العزيزه قتيلاً ، فأرسلت العزيزةإلى الذليلة : أن ابعثوا إلينا بمائة وَسْقٍ ، فقالت الذليلة : وهل كان فى حَيَّين قطُّ دينهما واحد ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد ، ديةُ بعضهم نصفُ دية بعض ؟ إنا إنما أعطيناكم هذا ضَيْماً <٣> منكم لنا وفَرَقاً منكم ، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك ، فكادت الحرب تَهيج بينهما ، ثم ارتضَوْا على أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم ، ثم ذَكَرتِ العزيزة ، فقالت : واللهِ ما محمد بمعطيكم منهم ضعفَ ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضيماً مناً وقهراً لهم ، فَدُسُّوا إلى محمد من يَخْبرُ لكم رأيه ، إن أعطاكم ما تريدون حكَّمتموه ، وإن لم يُعْطكم حَذِرتُمْ فلم تُحكِّموه ، فدَسُّوا إلى رسول الله صلى عليه وسلم ناساً من المنافقين ليَخْبرُوا لهم رأىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبر اللهُ رسولَه بأمرهم كلّه وما أرادوا ، فأنزل الله عز وجل : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ... إلى قوله :

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ <٤>

ثم قال : فيهما واللهِ نزلتْ وإياهما عَنى الله عز وجل <٥> .

---

١ ـ أى لم يظهر من إحدى الطائفتين تعد على الأخرى (الفتح الربانى ١٨ / ١٣٠) .

٢ ـ أى لم يوافقهما النبى صلى الله عليه وسلم على ما اصطلحا عليه من أمر الدية (الفتح الربانى بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ، لأحمد بن عبد الرحمن البنا ١٨ / ١٣٠ ، ١٣١) .

٣ ـ ضيما : أى ظلما مثالكم (الفتح الربانى ١٨ / ١٣١) .

٤ ـ سورة المائدة : ٤١ ـ ٤٧ .

٥ ـ مسند الإمام أحمد ١ / ٢٤٦ ، ومسند الإمام أحمد بتحقيق أحمد محمد شاكر ٤ / ٤٤ ، ٤٥ .

قال المحقق : إسناده صحيح . ونسبه السيوطى فى الدر المنثور (٢ / ٢٨١) أيضاً لأبى داود وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبى الشيخ وابن مردويه .

ورجح **ابن كثير** أن هذه الآيات نزلت فى اليهوديين اللذين زنيا ، وتحاكم اليهود فيهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تقدمت الأحاديث بذلك ، وقد يكون اجتمع هذان السببان فى وقت واحد ، فنزلت الآيات فى ذلك <١> .

قال **المحقق أحمد شاكر** : وهذا هو الصحيح المتعين ، وليس يجب أن يكون نزول الآيات لحادث واحد ، وقد يصح وقوع الاثنين ، وكثيراً ما تقع حوادث عدة ، ثم يأتى القرآن فيصلاً فى حكمها ، فيحكى بعض الصحابة رضوان الله عليهم بعض السبب ، ويحكى غيره غير هذا السبب ، وكل صحيح <٢> .

ثم ذكر **ابن كثير** أقوالا عديدة منها : أنها نزلت فى أهل الكتاب ، وزاد **الحسن البصرى** أنها واجبة علينا ، وقال السدى :

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ <٣>

أى ومن لم يحكم بما أنزل الله فتركه عمداً فهو من الكافرين .

وقال **ابن عباس** : من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقرَّ به فهو ظالم فاسق <٤> .

وقال **الفخر الرازى** : المقصود من هذا الكلام تهديد اليهود فى إقدامهم على تحريف حكم الله تعالى فى حدّ الزانى المحصن ، يعنى أنهم لما أنكروا حكم الله المنصوص عليه فى التوراة ، وقالوا : إنه غير واجب ، فهم كافرون على الإطلاق ، ولا يستحقون اسم الإيمان ، لا بموسى عليه السلام ، والتوراة ، ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن <٥> .

---

١ ـ ابن كثير ٢ / ٦١ .

٢ ـ انظر : مسند الإمام أحمد ٤ / ٤٤ . ٤٥ / بتحقيق أحمد محمد شاكر فى الهامش .

٣ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

٤ ـ ابن كثير ٢ / ٦١ .

٥ ـ التفسير الكبير ١٢ / ٥ .

وهنا قـول أخـر : أن المراد بالكافـرين أهل الإسـلام ، وبالظالمين اليـهـود، وبالفاسـقين النصـارى . ثم سـاق ـ الطبرى رحمـه الله ـ على هذا المعنى عدة آثار عن الشعبى <١> . وقولٌ : أنه يراد به كفر دون كفر ، وظلم دون ظـلـم ، وفسق دون فسق <٢> .

كمـا أخرج **الحاكم** بسنده : عن طاوس قال : قـال ابن عـبـاس رضـى الله عنهما : " إنه ليس بالكفر الذى يذهبون إليه ، إنه ليس كفرا ينقل عن الملة .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ <٣>

كفرٌ دون كفر . <٤>

ورجح **الطبرى** أنها نزلت فى كفار أهل الكتاب لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات نزلت فيهم ، وهم المعنيون بها .

ثم قال رحمه الله : " فإن قال قائل : فإن الله تعالى قد عم بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله ، فكيف جعلته خاصاً ؟ .

قيل : إن الله تعالى عَمَّ بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذى حكم به فى كتابه جاحدين ، فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم ، على سبيل ما تركوه هم كافرون .

وكذلك القول فى كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به ، هو بالله كافر ، لأنه بجحوده حُكْمَ الله بعد علمه أنه أنزله فى كتابه ، نظير جحوده نبوة نبيّه بعد علمه أنه نبى <٥> .

---

١ ـ انظر : جامع البيان ١٠ / ٣٥٢ ـ ٣٥٥ .

٢ ـ المرجع السابق ١ / ٣٥٥ ، وابن كثير ٢ / ٦١ .

٣ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

٤ ـ المستدرك على الصحيحين ٢ / ٣١٣ ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

٥ ـ جامع البيان ١٠ / ٣٥٨ .

أما **الألوسى** : فيرى أن الآيات نزلت خاصة فى اليهود ، ثم يقول : " لعل وصفهم بالأوصاف الثلاثة باعتبارات مختلفة ، فلإنكارهم ذلك ، وصفوا بالكافرين ، ولوضعهم الحكم فى غير موضعه وصفوا بالظالمين ، ولخروجهم عن الحق وصفوا بالفاسقين .

أو أنهم وصفوا بها باعتبار أطوارهم وأحوالهم المتضمنة الامتناع عن الحكم ، فتارة كانوا على حال تقتضى الكفر ، وأخرى تقتضى الظلم والفسق" ‹١› .

أما قوله تعالى :

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ‹٢›

فيراد به : ومَن لم يحكم بما أنزل اللّه فى كتبه من قَوَد النفس القاتلة قصاصاً ممن أمره اللّه به بذلك فى كتابه ، ولكن أقاد من بعض ولم يُقدِ من بعض ، أو قتل فى بعضٍ اثنين بواحد ، فإن من يفعل ذلك من الظالمين ، أى ممن جار عن حكم اللّه وحاد عنه ، ووضع فعله فى غير موضعه الذى جعله اللّه له موضعا .

فيجب أن تقتل النفس القاتله بالمقتولة ، والعين التى فقأ صاحبها مثلها من نفس أخرَى بالعين المفقوءة ، ويُجدع الأنف بالأنف ، وتقطع الأذن بالأذن ، وتقلع السنّ بالسنّ ، ويُقْتَص من الجارِح غيرَه ظلما للمجروح ‹٣› .

وقال **الفخر الرازى** : فى الآية من قوله تعالى :

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ‹٤›

سؤال ، وهو أنه تعالى قال أولاً : فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ‹٥›

---

١ ـ روح المعانى ٦ / ١٤٦ .

٢ ـ سورة المائدة : ٤٥ .

٣ ـ جامع البيان ١٠ / ٣٥٨ ، ٣٥٩ " المحقق " .

٤ ـ سورة المائدة : ٤٥ .

٥ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

وثانياً : ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ‹١› ، والكفر أعظم من الظلم ، فلما ذكر أعظم التهديدات أولا ، فأى فائدة فى ذكر الأخف بعده ؟ وجوابه : أن الكفر من حيث إنه إنكار لنعمة المولى وجحود لها فهو كفر ، ومن حيث إنه يقتضى إبقاء النفس فى العقاب الدائم الشديد فهو ظلم على النفس ، ففى الآية الأولى ذكر الله ما يتعلق بتقصيره فى حق الخالق سبحانه ، وفى هذه الآية ذكر ما يتعلق بالتقصير فى حق نفسه ‹٢› .

وأما قوله تعالى :

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ‹٣›

أى الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحق ‹٤› .

وكان **ابن زيد** يقول : " الفاسقون " ، فى هذا الموضع وفى غيره ، هم الكاذبون . وكل شىء فى القرآن إلا قليلاً " فاسق " فهو كاذب وقرأقول الله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا
أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ ‹٥›

فقال " الفاسق " ههنا ، كاذب ‹٦› .

وذكر **الفخر الرازى** اختلاف المفسرين فى جعل هذه الصفات الثلاثة: الكافرون ، الظالمون ، الفاسقون ، صفات لموصوف واحد ، وأورد ما قاله القفال‹٧› ، وهو : وليس فى إفراد كل واحد من هذه الثلاثة بلفظ ما يوجب القدح

---

١ ـ سورة المائدة : ٤٥ .
٢ ـ التفسير الكبير ١٢ / ٨ .
٣ ـ سورة المائدة : ٤٧ .
٤ ـ ابن كثير ٢ / ٦٥ .
٥ ـ سورة الحجرات : ٦ .
٦ ـ جامع البيان ١٠ / ٢٧٦ .
٧ ـ التفسير الكبير ١٢ / ١٠ .

فى المعنى ، بل هو كما يقال : من أطاع الله فهو مؤمن ، ومن أطاع الله فهـو البَر ، ومن أطاع الله فهو المتقى ، لأن كل ذلك صفات مختلفة حاصلة لموصوف واحد .

وقال آخرون : الأول فى الجاحد ، والثانى والثالث فى المقر التارك .

وقال **الأصم** : الأول والثانى فى اليهود ، والثالث فى النصارى .

وقال **رشيد رضا** : " إن قول من قال : إن هذه الآيات ‹١› أو خواتم الآيات نزلت على بنى إسرائيل ، يراد به أنها نزلت فى شأنهم لا أنها من كتابهم ، إذ لا شىء يدل على أنها محكية ، وإلا فهو خطأ . والأوليان منها فى سياق الكلام على اليهود ، والثالثة فى سياق الكلام على النصارى ، لا يجوز فيها غير ذلك ، وعبارتها عامة لا دليل فيها على الخصوصية ، ولا مانع يمنع من إرادة الكفر الأكبر فى الأولى ، وكذا الأخريان ، إذا كان الإعراض عن الحكم بما أنزل الله ناشئاً عن استقباحه وعدم الإذعان له ، وتفضيل غيره عليه . وهذا هو المتبادر من السياق فى الأولى بمعونة سبب النزول .

وإذا تأملنا الآيات أدنى تأمل يظهر لنا نكتة التعبير بوصف الكفر فى الآية الأولى ، وبوصف الظلم فى الثانية ، وبوصف الفسوق فى الثالثة ، فالألفاظ وردت بمعانيها فى أصل اللغة موافقة لاصطلاح العلماء .

ففى الآية الأولى كان الكلام فى التشريع وإنزال الكتاب مشتملاً على الهدى والنور ، والتزام الأنبياء وحكماء العلماء العملَ والحكم به والوصية بحفظه ، وختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له ، ورغبة عن هدايته ونوره مؤثراً لغيره ، فهو كافر به .

---

١ ــ سورة المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ .

وأما الآية الثانية فلم يكن فيها فى أصل الكتاب الذى هو ركن الإيمان ، وترجمان الدين ، بل فى عقاب المعتدين على الأنفس أو الأعضاء بالعدل والمساواة ، فمن لم يحكم بذلك فهو ظالم فى حكمه كما هوَ الظاهر .

وأما الآية الثالثة فهى فى بيان هداية الإنجيل ، وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب فى إقامة الشريعة على الوجه الذى يطابق مراد الشارع وحكمته ، لا بحسب ظواهر الألفاظ فقط ، فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا بها فهم الفاسقون بالمعصية ، والخروج من محيط تأديب الشريعة (١) .

---

١ ـ تفسير المنار ٦ / ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

المجتمع الإسلامي كما يصوره الفصل الأول

قــد تبين لنا مما سبق أن الله تعالى فرض على عباده ، فى كل زمان ومكان ، أن يحكموا بما أنزله فى كتبه السماوية من الأحكام ، وأن يطبقوها فى كل شئون حياتهم ، من عقائد وعبادات وأخلاق وسلوك ، وعلاقات بين الأفراد والجماعات ، من أجل تنظيم حياتهم ، واستقرار مجتمعهم ، وإقامتهم على الصراط المستقيم .

ولأن فـى الحكم بما أنزل الله تعالى صلاح الدنيا والآخرة ، والسعادة فيهما ، وفيه الأمن والاستقرار ، سواء للفرد أو المجتمع ، فيأمن الأفراد والجماعات على دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، لأنها هى الحرمات التى لا يسعد الفرد بدون توفير الحماية والصيانه لها ، وإذا أمن هو وغيره نتيجة الحكم بما أنزل الله تعالى تتحقق له السعادة والاستقرار .

فالدين الإسلامى منذ أقدم العصور قد نظم العلاقات الاجتماعيه تنظيماً ، وسَــنَّ لها من الشرائع والأحكام ما يحقق لها العدل والمساواة ، والتكافل الاجتماعى ، والاستقرار والقوة والازدهار .

ثم شرع الله تعالى لعباده كل ما ينبغى أن يلتزمه الناس من الأحكام والشرائع فى الزواج ، والطلاق ، والعدة ، والبيوع ، والإجارات ، وغير ذلك ، وبين أحكام المواريث ، وشروط الإرث والتوارث ، وغيرها من المعاملات التى لا يتسغنى عنها الناس فى حياتهم ، وسَنَّ لهم الحدود ، وبين لهم العقوبات الزاجرة فى حالة ارتكاب الجرائم ، مثل القصاص فى القتل ، والرجم فى الزنى ، والقطع فى السرقة وغير ذلك ليستتب لهم الأمن .

فلم يترك سبحانه وتعالى شيئاً من الأشياء إلا وشرع لهم حكماً فيه لتنظيم حياة الفرد والجماعة بما فيه صلاحهم وهدايتهم ، ومن ثَمَّ فواجب على الجميع ألاَّ يحكمُّوا فى حياتهم إلا ما أنزل الله تعالى ، لأن فيه استقرار مجتمعهم .

ولا غرابة فى ذلك ، فالله جل شأنه هو الخالق المتصرف ، الذى يعلم ما ينفعهم وما يضرهم ، وهو الذى يعلم كل ما فطر عليه الإنسان من غرائز وطبائع .

ومن ثم فإن كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه إنما ذلك لحكمة شرعية تعود عليهم بالنفع والخير ، وعلى مجتمعهم الذى يعيشون فيه بالأمن والاستقرار .

ولكن قد استحدث بعضهم الأحكام والقوانين الوضعية ، وتركوا الحكم بما أنزل الله فى كتابه العزيز .

والذين يتركون ما أنزل الله فى كتابه من الأحكام ، من غير تأويل يعتقدون صحته ، فإنه يصدق عليهم ما قاله الله تعالى فى الآيات من سورة المائدة :

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ‹١›

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ‹٢›

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ‹٣›

فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة ، أو القذف ، أو الزنا ، غير مذعن له ، أو مستقبحا إياه ، وفضل غيره من القوانين البشرية لأن فيهاالعطف والرحمة ، فهو كافر قطعاً ، وكذلك من لم يحكم به لعلة أخرى فهو ظالم نفسه ، لأن فى ذلك إضاعة للحق ، وتركاً للعدل ، وظلما لغيره ونفسه ، وهو فاسق لأنه خرج عن حكم الله الذى ارتضاه لعباده إذ لفظ " الفسق " أعم هذه الألفاظ ، فكل كافر ظالم وكل ظالم فاسقٌ ، ولا عكس .

---

١ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

٢ ـ سورة المائدة : ٤٥ .

٣ ـ سورة المائدة : ٤٧ .

وحكم الله تعالى الشامل لما ورد فيه النص ولغيره مما يُعلم بالاجتهاد ، هو العدل ، فحيثما وُجد العدل فهناك حكم الله تعالى ، ولكن متى وُجد النص القطعى الثبوت والدلالة لا يجوز العدول عنه إلى غيره ، إلا إذا عارضه نص آخر اقتضى ترجيحه عليه ، كنص رفع الحرج فى باب الضرورات <١> .

وبهذا ثبت أن كل معرض عن الحكم بما أنزل الله تعالى لعدم الإذعان له ، ورغبة عن وهدايته ونوره ، مؤثراً لغيره ، فهو كافر ، ظالم ، فاسق ، لأن الإسلام دين استقرار .

لذا يجب الالتزام بالحكم بما أنزل الله تعالى ، لأنه هو الطريق الوحيد لإقامة العدل والنظام بين الخلق ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى تكفل بسعادة البشرية وصلاح أحوالهم فى الدين والدنيا والآخرة ، ولأن الأحكام البشرية الوضعية تصدر عن دائرة ضيقة ، تشيع فيها الأهواء والأغراض ، ثم إنها محدودة بالزمان ، والمكان ، والأشخاص ، وممزوجة بالعواطف ، والغرائز المتركزة فى النفوس البشرية .

ولهذا كانت غير صالحة لإقامة العدل بين الناس ، وإشاعة الأمن والاستقرار فى المجتمعات البشرية .

وأحكام الله عز وجل صادرة عمن يتعالى شأنه عن الأهواء والأغراض ، وممنّ أحاط بكل شىء علماً ، وأحاط بالماضى والحاضر والمستقبل ، وبخصائص النفوس البشرية ، فهو خالقها ، ويعلم ما يصلحها ويصلح لها .

فالقرآن الكريم هو الأصل الأول فى التشريع ، لأنه شامل لكل شئون الحياة البشرية ، لما يتضمن من أصول وقواعد ومبادىء ، تتسع للفروع واستنباط الأحكام ، فليس من أمر من الدين أو الدنيا إلا وقد دَلّ عليه ، إما دلالة مبيّنة واضحة مشروحة ، وإما دلالة مجملة تولى بيانها رسولنا صلى الله عليه وسلم ، أو يكون بيانها من الإجماع أو القياس .

---

١ ـ انظر : تفسير المنار ٦ / ٤٠٤ ، ٤٠٥ بتصرف .

ولهذا فإن الحكم بما أنزل الله تعالى واجب الاتباع ، لأنه أمر ضرورى من أجل تنظيم حياة الأفراد والجماعات وإقامتها على النهج السوى ، ولأجل أن يشيع الأمن والاستقرار ، ويأمن الناس على دمائهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، وهى الحرمات التى لا تسعد البشرية ، بدون توفير الحماية لها .

وإن الدين الإسلامى منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم قد نظم العلاقات الاجتماعية تنظيماً دقيقاً ، وسَنَّ لها من الشرائع والأحكام ما يحقق لها العدل والمساواة والتكافل الاجتماعى والاستقرار والازدهار ، ولهذا كانت هذه الأحكام الإلهية كفيلة بهداية الناس وإرشادهم وإصلاحهم واستقرار مجتمعهم الإسلامى ، وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

أما الذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى فقد وصفهم عَزَّ وجل بالأوصاف التالية فقال تعالى :

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (١)

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢)

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٣)

فهذه الأوصاف تدل على أنهم خارجون عن الدين الإسلامى ، ظالمون لأنفسهم ولمجتمعهم ، خارجون عن طاعة الله تعالى ، لا يأتمرون بما أمرهم الله به ، ولهذا تنحل عرى استقرار مجتمعهم ويعمها الفساد والهلاك .

---

١ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

٢ ـ سورة المائدة : ٤٥ .

٣ ـ سورة المائدة ٤٧ .

الفصل الثاني

الحكم بما أنزل الله مقرر في شريعتي موسى وعيسى عليهما السلام

الحكم بما أنزل الله مقرر فى شريعتى موسى وعيسى عليهما السلام ، نقرأ فى كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن الله تعالى لم يترك أمةً إلا وأرسل لها رسولاً ، ورسم لها طريقاً صحيحاً ، لأمر دينها ودنياها وآخرتها ، فهو المنهج الذى تسير عليه الأمم ، ويبعث من أجله رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وذلك لترسيخ العقيدة والالتزام بشرع الله عز وجل ، فمنهم من قبل الشرع وسار على منهجه ، ومنهم من رفض الشرع ولم يأخذ بما أمر الله تعالى به كما قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا (١)

ومهمة رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وحاجات الناس إليهم ، تتلخص فى أمرين :

١ ـ ترسيخ العقيدة .

٢ ـ توضيح المنهج السليم الذى يسيرون على هداه .

كما أشار إليه قوله عز وجل : كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢)

فالله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب ليكون حكماً بينهم فيما اختلفوا فيه ، والذين اختلفوا فيه هم بعض أهل الكتاب : اليهود والنصارى .

---

١ ـ سورة النساء : ٦٠ .

٢ ـ سورة البقرة : ٢١٣ .

أما اليهود :

فهم قوم موسى عليه السلام ، وسموا بالإسرائيليين ، نسبه إلى إسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

وكـان يعقــوب يدعى " إسرائيل " بمعنى عبد الله وصفوتـه مـن خلقـه ، « إسرا » هو العبد ، وئيل هــو الله . ‹١› وفي معــنى آخــر : إسرا « قوه » ئيل « الله » . ‹٢›

واليهود يقسمون تاريخهم إلى ثلاث مراحل :

١ ـ عصر الأنبياء أو الآباء ـ إبراهيم واسحاق ـ في القرن ١٩ ق . م .

٢ ـ عصر موسى ومن بعده من الأنبياء يبدأ في القرن ١٢ ق . م .

٣ ـ عصر بنى إسرائيل أو اليهود في عهد التدوين في القرن ٤ ق . م .

وان يعقـوب وأسرتـــه سكنـــوا مصـــر سنـــه ١٧٢٠ ق . م (أوائل القرن ١٨) ق . م . ‹٣›

وسموا باليهود ، لأنهم حينما طلب منهم موسى عليه السلام أن يتوبوا إلى الله فتابوا وأنابوا ، كما أشار إليه قوله تعالى :

وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ‹٤›

وهو مأخوذ من قولهم : هاد يَهُودُ : أى تاب ورجع إلى الحق ، وهاد فلانٌ : تحرّى طريقة اليهود فى الدين ‹٥› .

---

١ ـ جامع البيان ١ / ٥٥٣ .

٢ ـ دائرة معارف البستانى مجلد ١٢ / ٣٢٦ تحت مادة(إسرائيل) .

٣ ـ (دائرة المعارف اليهودية) أو (العرب واليهود في التاريخ) للأستاذ أحمد سوسة ١٢ / ٣٢٦ .

٤ ـ سورة الأعراف : ١٥٦ .

٥ ـ انظر : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٥ / ٣٥١ ، ومفردات الراغب (هود) ٥٤٤ ، وجامع البيان ٢ / ١٤٣ .

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ‹١›

وسموا بالعبرانين لأنهم انتقلوا من العراق إلى فلسطين ، وعبروا من الجهة التى انتقلوا منها إلى العراق ، ثم إلى فلسطين ، وقد عبروا نهر الفرات ‹٢› .

وبدأت حياتهم فى فلسطين ثم انتقلوا إلي مصر فى عهد سيدنا يوسف عليه السلام ، ومرت بهم سنون طويلة حتى نموا وكثروا ، وقد استمروا فى مصر حتى عهد سيدنا موسى عليه السلام ، ثم انتقل بهم موسى عليه السلام إلى سيناء بعد أن أرسل إليهم بالشريعة مدونة فى التوراة ‹٣› .

كما قال تعالى :

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ
هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ
ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ
وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ‹٤›

وقال عز من قائل :

قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ
دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ‹٥›

---

١ ـ الآيات من سورة البقرة : ٦٢ ، وسورة المائدة : ٦٩ ، وسورة الحج : ١٧ .

٢ ـ معجم البلدان ٤ / ٧٨ .

٣ ـ معجم البلدان ٥ / ١٣٧ .

٤ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

٥ ـ سورة الأعراف : ١٤٤ ، ١٤٥ .

فاليهود انقسموا إلى فريقين ، فريق منهم قبل الشريعة وسار على منهجها ، وفريق آخر لم يلتزم بها .

أما الفريق الأول فهم الذين قال الله فيهم :

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ <١>

وأما الفريق الثانى فهم الذين قال الله فيهم :

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ <٢>

وقال :

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ <٣>

وكتاب اليهود هو التوراة ، وهو أول كتاب أنزل من السماء ، وقبله كانت تنزل صحف .

وقد اشتملت التوراة على أسفار ، فمبتدأ الخلق فى السفر الأول ، ثم يذكر الأحكام والحدود ، والأحوال ، والقصص ، والمواعظ ، والأذكار ، ثم أنزل على موسى عليه السلام الألواح ، وهى شبه مختصر ما فى التوراة <٤> .

كما قال تعالى :

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ <٥>

---

١ ـ سورة الأعراف : ١٥٩ .

٢ ـ سورة المائدة : ٤٤ .

٣ ـ سورة المائدة : ٤٥ .

٤ ـ الملل والنحل / للشهرستانى ١ / ٢١٠ ، ٢١١ / تحقيق محمد سعيد كيلانى . دار المعرفة / بيروت ـ لبنان .

٥ ـ سورة الأعراف : ١٤٥ .

واليهود كانت تدعى أن الشريعة لا تكون إلا واحدة ، ابتدأت بموسى عليه السلام وتمت به ، فلم تكن قبله شريعة إلا أمور عقلية ، وأحكام مصلحية ، وهم لم يجيزوا النسخ أصلاً ، لأن النسخ فى الأوامر بَدَاءٌ <١> ، ولا يجوز البداء على الله تعالى ، فلا يكون بعد موسى عليه السلام شريعة أصلاً ، والعهد القديم والجديد قد اشتملا على دلالات تدل على كون شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حقاً ، وهو صادق ، ومن ذلك ما جاء فى البشارة الثالثة <٢> ، وفيها :

" جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار " .

"وسيناء" إشارة إلى توراة موسى عليه السلام ، "وساعيرا" إشارة إلى إنجيل عيسى عليه السلام ، " وفاران" إشارة إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن " فاران " جبل من جبال مكة المكرمة ، كما صُرح بذلك فى سفر التكوين فى الباب الحادى والعشرين عند الكلام عن إسماعيل عليه السلام ، وفيه " وكان الله معه ونما وسكن فى البرية وصار شاباً يرمى بالسهام ، وسكن برية فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر ، وهذا حال إسماعيل فى أرض مكة المكرمة <٣>. وساعير : جبال بيت المقدس فى البلد التى كان بها عيسى عليه السلام ، والشواهد على نبوتة صلى الله عليه وسلم عند أهل الكتاب كثيرة جداً <٤> . والتوراة قد

---

١ ـ يقال : بَدَالى بَداءٌ ، أى ظهر لى رأى آخر والبَداء :استصواب شىء عُلم بعد أن لم يكن معلوما ، وذلك غير جائز على الله تعالى [اللسان ـ بدا] وقال السيوطى رحمه الله : " والنسخ مما خصت به هذه الأمة لِحكَم منها التيسير ، وقد أجمع المسلمون على جوازه ، وأنكره اليهود ظنا منهم أنه بَدَاء كالذى يرى الرأى ، ثم يبدو له وهو باطل ، لأنه بيان لمدة الحكم . كالإحياء بعد الإماتة وعكسه ... وذلك لا يكون بداء ، فكذلك الأمر والنهى " [الإتقان فى علوم القرآن وعلى هامشه إعجاز القرآن للباقلانى ٢/٢١] .

٢ ـ انظر : الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء (الطبعة العربية سنة ١٨٤٤) .

٣ ـ إظهار الحق ٢ / ٢٠٩ .

٤ ـ انظر : النهاية / لابن كثير ٦ / ١٨٧ (طبعة بيروت الرابعة ١٤٠٨هـ) تحت عنوان " اعتراف اليهود بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

اشتملت على دلالات وآيات تدل على كون شريعه نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام حقاً ، وكون صاحب الشريعة صادقاً ، بل ما حرفوه وغيروه وبدلوه ، إما تحريفاً من حيث الكتابة والصور ، وإما تحريفاً من حيث التأويل والتفسير .

وأظهرها ذكر إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليهما السلام ودعاؤه فى حقه ، وفى حق ذريته . وإجابة الرب تعالى إياه : إنى باركت علَىّ اسماعيل وأولاده ، وجعلت فيهم الخير كله ، وسأظهرهم على الأمم كلها ، وسيبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتى .

واليهود معترفون بهذه القضية إلا أنهم يقولون : إجابة بالملك دون النبوة والرسالة (١) وسبب اختلافهم ، وتفريقهم ، وتحريفهم ، وتبديلهم ، وكتمانهم ، وإخفائهم الكتاب الذى بين أيديهم أنهم لم يلتزموا بما جاء فيه ، ومما جاء فيه ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن الله هدى فريقاً منهم إلى الحق فاتبعوا الرسول النبى الأمى . كما أشار اليه قوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟
ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (٢)

---

١ ـ الملل والنحل ١ / ٢١٢ .

٢ ـ سورة الأعراف : ١٥٧ .

وقوله :

لَٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا

‹١›

ولكن الفريق الآخر من بنى إسرائيل قد عطلوا وحرفوا بعض ما فى التوراة والإنجيل ، ولم يعملوا بهما كما قال تعالى عنهم :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن
فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ

‹٢›

---

١ ـ سورة النساء : ١٦٢ .

٢ ـ سورة المائدة : ٦٥ ـ ٦٨ .

قال **ابن كثير** : والمعنى : قل يامحمد لأهل الكتاب : إنهم ليسوا على شىء من الدين حتى يؤمنوا بجميع ما فى أيديهم من الكتب المنزلة من اللّٰه تعالى على الأنبياء ، ويعملوا بما فيها ، ومن جملتها القرآن الكريم ، والإيمان بمحمد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، والأمر باتباعه والسير على هديه ، والإيمان بمبعثه ، والاقتداء بشريعته والعمل بها ، ولكن لم يزد كثيراً منهم ما أنزل اللّٰه على نبينا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم إلا كفراً وعناداً وطغياناً وجحوداً ‹١› كما فى قوله تعالى :

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ ‹٢›

أى كل ما آتاك اللّٰه يامحمد من نعمة نقمةٌ فى حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكلما يزداد المؤمنون تصديقاً ، وعملاً صالحاً ، وعلماً نافعاً ، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك (طغياناً) وهو المبالغة والمجاوزة للحد فى الأشياء (وكفراً) أى تكذيباً ‹٣› .

ثم بين سبحانه وتعالى جحود هؤلاء وإنكارهم لكتبه المنزلة على رسله بقوله عز وجل :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

‹٤›

---

١ ـ ابن كثير ٢ / ٨٠ / بتصرف .

٢ ـ سورة المائدة : ٦٤ ،

٣ ـ انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٧٦ .

٤ ـ سورة الأنعام : ٩١ .

ويصف الله تعالى حال اليهود والنصارى فى إخفائهم ما فى التوراة وعدم إظهار الحق فيقول عز وجل :

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً
يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ
تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ
فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا
كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ
قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ

<١>

ومما أخفوه حكم الله تعالى فى الرجم ، وقد فصلت الكلام على ذلك فى الفصل الأول من هذا الباب ، والذى عنوانه : " وجوب الحكم بما أنزل الله " <٢> .

ويصور لنا القرآن الكريم حال بعض قوم موسى عليه السلام الذين صدقوا به ويما جاء به من عند ربه فيقول عز من قائل :

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ <٣>

وكل رسول جاء بعد موسى عليه السلام إنما جاء بإثبات التوراة ، والأمر بلزومها ، إلى أن جاء عيسى ابن مريم عليهما السلام بالإنجيل <٤> .

---

١ ـ سورة المائدة : ١٣ ـ ١٥ .

٢ ـ انظر ص ٤٢١ من هذه الرسالة .

٣ ـ سورة الأعراف : ١٥٩ .

٤ ـ الجامع لأحكام القرآن / للقرطبى ١ / ٤١٧ .

ومن ذلك يتبين لنا أن شرع الله تعالى واحد فى الأمر بوجوب الحكم بما أنزل الله تعالى ، والحفاظ عليه ، وأن من يتبع القرآن وآياته فى شأن بنى إسرائيل يجد الفئة القليلة التى تقوم بشرع الله ، وتؤديه كما أمرت به ، وتجتنب كل ما نهيت عنه كالربانيين ‹١› والأحبار ‹٢› ، كما شهد لهم قوله عز وجل :

إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا
هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ
هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ
ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ
وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ
فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ
بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ
قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن
لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ

‹٣›

هذا عن اليهود .

---

١ ـ الربانيون : جمع ربّانى ، وهو منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة . والربانى : العالم الراسخ فى العلم والدين ، أو الذى يطلب بعلمه وجه الله تعالى . وقيل : هو العالم العامل المعلم [النهاية لابن الأثير ـ ربب ـ ٢ / ١٨١] .

٢ ـ والأحبار : جمع حَبْر وحِبْر ـ بالفتح والكسر ـ وهو العالم ، وكان يقال لابن عباس رضى الله عنه : الحَبْر والبحر لعلمه وسعته . [النهاية ـ حبر ـ ١ / ٣٢٨] .

٣ ـ سورة المائدة : ٤٤ ، ٤٥ .

وأما عن النصارى :

فهم قوم عيسى عليه السلام ، وسموا بهذه التسمية نسبة إلى الناصرة ، وهى القرية التى ولد فيها عيسى عليه السلام بالشام <١> .

وقد أرسل الله تعالى عيسى بعد موسى عليهما السلام ، وهو آخر نبى لبنى إسرائيل ، وقد بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما أشار إليه قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ <٢>

وقيل : سمى النصارى بذلك لقوله تعالى :

﴿ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴾ <٣>

وقد أنزل الله تعالى الإنجيل على عيسى عليه السلام ، ويسمى بالعهد الجديد ، وهو امتداد للتوراة ، حيث إن المسيح عليه السلام قال فى الإنجيل : " ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها " <٤> .

---

١ ـ معجم البلدان ٥ /٢٥١ ، وبصائر ذوى التمييز ٥/٧٠، ومفردات الراغب (نصر) واللسان (نصر) .

٢ ـ سورة الصف : ٦ .

٣ ـ سورة الصف : ١٤ ، والحواريون : أنصار عيسى ، قيل : كانوا قصّارين ، والقصار من يبيّض الثياب ، وصنعته القصارة . وقيل : كانوا صيّادين ، وقال بعضهم : سموا بذلك لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس من الأدناس بإفادتهم العلم والدين . / انظر : بصائر ذوى التمييز ٢ / ٥٠٦ .

٤ ـ انظر : روح المعانى ٣ / ١٧٢ عند قوله : (ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) آيه : ٥٠ آل عمران ، والملل والنحل ١ / ٢١٣ .

إلا أن الإنجيل يزيد على التوراة فى تفصيل بعض الأحكام حسب الظروف والأحوال التى وجدت فى عهد عيسى عليه السلام ، مصداقاً لقوله تعالى :

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ 〈١〉

وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يصدق بعضهم بعضا ، ويؤيد بعضهم بعضا ، وكل واحد منهم يصدق الذى قبله ، ويصدق بما أنزله الله تعالى عليه من الكتب والشرائع والأحكام ، لهذا قال عيسى عليه السلام كما أخبر القرآن الكريم :

(وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) الآية .

وقال تعالى : (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) الآية .

ثم ذكر **الطبرى رحمه الله** الأثر عن وهب بن منبه :

قال : " إن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام وكان يُسْبِت ، ويستقبل بيت المقدس ، وقال لبنى إسرائيل : إنى لم أدعكم إلى خلاف حرف مما فى التوراة ، إلا لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وأضع عنكم الآصار" 〈٢〉 .

والآصار : جمع إصر : بكسر فسكون ، وهو العهد وكل ما عقد من عقد ثقيل عليهم ، مثل قتل أنفسهم ، وما أشبه ذلك من قرض الجلد إذا أصابته النجاسة ، وغير ذلك من الأحكام المشددة 〈٣〉 .

---

١ ـ سورة آل عمران : ٥٠ .

٢ ـ جامع البيان / للطبرى ٦ / ٤٣٨ (المحقق) .

٣ ـ المصدر السابق ٦ / ٤٣٨ .

قال **ابن كثير رحمه الله** : فى قوله تعالى "وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ" الآية . فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح .

ومن العلماء من قال : لم يَنْسخ منها شيئا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه من خطأ ، وكشف لهم عن الغطاء فى ذلك ‹١› كما قال تعالى :

وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ‹٢›

قال **الخازن رحمه الله** : " إن الله تعالى قد حرم على اليهود بعض الأشياء عقوبة لهم على بعض ما صدر منهم من الخيانات كما قال تعالى :

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ‹٣›

فبقى ذلك التحريم مستمرا عليهم إلى أن جاء عيسى عليه السلام ، فرفع عنهم تلك التشديدات التى كانت عليهم ‹٤› .

وكان الذى جاء به عيسى عليه السلام ألين من الذى جاء به موسى عليه السلام ، وكان قد حُرِّم عليهم ، فيما جاء به موسى عليه السلام ، لحومُ الابل ، والشحومُ وأشياءُ من الطير والحيتان ‹٥› .

---

١ ـ تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٥ .

٢ ـ سورة الزخرف : ٦٣ .

٣ ـ سورة النساء : ١٦٠ .

٤ ـ الخازن وبهامشه البغوى ١ / ٣٥١ .

٥ ـ جامع البيان ٦ / ٤٣٩ " المحقق " .

وزاد بعضهم : " إن عيسى عليه السلام رفع كثيراً من أحكام التوراة ، ورفع السبت ووضع الأحد ، وكان ذلك كله بأمر الله تعالى ، فكان ذلك ناسخاً لتلك الأحكام والشرائع ، والناسخ والمنسوخ حق وصدق " ‹١› .

قال **القرطبي** : إنما أحل لهم عيسى عليه السلام ما حُرِّم عليهم بذنوبهم ، ولم يك في التوراة ، نحو أكل الشحوم ، وكل ذي ظفر ؛ وغيرهما ، ولم يحل لهم القتل ولا السرقة ، ولا الفاحشة .

والدليل على هذا قول قتادة : " جاءهم عيسى عليه السلام بألْيَنَ مما جاء به موسى عليه السلام ، لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياءَ من الشحوم ، فجاءهم عيسي عليه السلام بتحليل بعضها" ‹٢› .

وأما قوله تعالى : (وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ) الآية .

فإن المـــراد بتصديقـــه عليه السلام للتوراة الإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصواب ‹٣› .

وكانت لسيدنا عيسى عليه السلام آيات ظاهرة ، وبينات واضحة ، ودلائل باهرة ، مثل تكلمه في المهد ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله كما أشار إليه قوله تعالى :

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ‹٤›

---

١ ـ الخازن وبهامشه البغوى ١ / ٣٥١ ، ٣٥٢ .
٢ ـ الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ٤ / ٩٦ .
٣ ـ روح المعاني ٣ / ١٧١ .
٤ ـ سورة آل عمران : ٤٨ ، ٤٩ .

وممن اتبع عيسى عليه السلام الحواريون الذين أخلصوا الدين لله ، واستجابوا لعيسى عليه السلام ، ومن بنى إسرائيل من كفر بعيسى عليه السلام ، وفى هؤلاء وأولئك قال عز وجل : ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ‹١›

وقد سبق هذه الآية قوله تعالى :

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ‹٢›

وقوله عز وجل :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾

‹٣›

وتبين الآيه أن فريقاً من بنى إسرائيل آمن بالإنجيل ، وعمل به ، وتمسك بالشريعة التى جاء بها عيسى عليه السلام مثل الحواريين .

والفريق الآخر جحد وخالف الأحكام التى جاء بها عيسى عليه السلام .

---

١ ـ سورة آل عمران : ٥٢ ، ٥٣ .

٢ ـ سورة آل عمران : ٤٩ .

٣ ـ سورة الصف : ١٤ .

وبهذا يتبين أن الحكم بما أنزل الله واجب الاتباع ، وهو مقرر فى شريعتى موسى وعيسى عليهما السلام ، كما هو موضح فى القرآن الكريم .

ولذا يجب الالتزام به ، والانقياد له ، والسير على هداه .

كما يحث على ذلك قوله سبحانه وتعالى :

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا
عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ
عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ
ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ
بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

(١)

وقد بين الإسلام أن هؤلاء ـ اليهود والنصارى ـ قد بدلوا وغيروا وحرفوا ، وإلا فعيسى عليه السلام كان مقرراً لما جاء به موسى عليه السلام ، وكلاهما مبشران بمقدم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد بنى أسلافهم الحصون والقلاع بقرب المدينة لنصرة الرسول المبعوث آخر الزمان ، والموجود عندهم فى التوراة

---

١ ـ سورة المائدة : ٤٨ ـ ٥٠ .

والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وقد أمروا قومهم بمهاجرة أوطانهم بالشام إلى تلك القلاع والحصون بالمدينة ، ولكن حينما ظهر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تركوا نصرته ، والإيمان به ، كما قال عز وجل :

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١﴾

وقد كان يحدث خلاف بين اليهود والنصارى فى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما كان يرتفع إلا بحكمه ، إذ كانت اليهود تقول كما حكى القرآن عنهم :

لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴿٢﴾

وكانت النصارى تقول كما حكى القرآن عنهم أيضا :

لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ ﴿٣﴾

وكان عليه الصلاة والسلام يقول لهم كما حكى القرآن لنا : قُلْ يَـٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤﴾

---

١ ـ سورة البقرة : ٨٩ .

٢ ـ سورة البقرة : ١١٣ .

٣ ـ سورة البقرة : ١١٣ .

٤ ـ سورة المائدة : ٦٨ .

وما كان يمكنهم إقامة التوراة والإنجيل إلا بالإيمان بالقرآن الكريم ، وبحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم رفضوا ذلك ، وكفروا بآيات الله ‹١› .

قال تعالى :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ‹٢›

فهنا يخبر سبحانه وتعالى أنه جعل عليهم الذل والهوان والفقر والخزى الذى لازمهم مع أنهم كانوا أغنياء ، ثم رجعوا بغضب من الله بسبب كفرهم وجحودهم بالمعجزات التى جاء بها موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم .

وبتعدِّيهم وبقتلهم الأنبياء بالظلم والجور ، منكرين رسالتهم ، جاحدين نبوتهم ‹٣› .

وخير لهم أن يهتدوا بهدى شريعة الإسلام التى جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام ، والله يقول : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ ‹٤›

فهو سبحانه وتعالى أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض ، وبالآيات والدلائل الواضحة ، التى تبين الحق من الباطل ، وتنير الطريق ، ولكن بنى إسرائيل بَدَّلوا ، وحَرَّفوا ، وأوَّلوا ، وغَيَّروا ،

---

١ ـ انظر : الملل والنحل ١ / ٢٠٩ ، ٢١٠ .

٢ ـ سورة البقرة : ٦١ .

٣ ـ انظر : جامع البيان ٢ / ١٣٦ ـ ١٤٢ ، وحاشية الجمل على الجلالين ١ / ٣٤ ، باختصار .

٤ ـ سورة المائدة : ١٥ .

واقتروا على الله بغير حق ، وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يبين لهم الكثير مما أخفوه . ومما أخفوه الرجم <١> .

ومن ينكر حكماً من أحكام الإسلام فقد كفر ، ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم بسنده ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب ، قوله عز وجل : يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ، فكان الرجم مما أخفوه " <٢> .

فالقرآن العظيم الذى أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم هو طريق الهداية والنجاة ، وسبيل السلامة والفلاح ، والمنهج المستقيم الذى ينجى المؤمنين من العذاب الأليم يوم القيامة ، وقد أنار الله للعباد معالم الطريق المستقيم بإرساله عليه الصلاة والسلام على فترة من إرسال الرسل كما يشير إليه قوله عز وجل :

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ
رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا
مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ <٣>

يقول **الطبرى رحمه الله** : الخطاب لأهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ الذين كانوا بين ظهرانَىْ مُهاجَر <٤> رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم نزلت هذه الآية <٥> .

---

١ ـ انظر : فيما سبق من الفصل الأول : الحكم بما أنزل الله : ص ٤٢١ .

٢ ـ المستدرك على الصحيحين ٤ / ٣٥٩ ، وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

٣ ـ سورة المائدة : ١٩ .

٤ ـ المهاجَر بالفتح : موضوع المهاجرة ، ويراد بها المدينة المنورة . النهاية لابن الأثير ٥ / ٢٤٤ .

٥ ـ سورة المائدة : ١٩ .

وذلك أنهــــم لما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان به وبما جاء به من عنـــــد الله ، قالوا : ما بعثَ الله من نبيّ بعد موسى ، ولا أنزل بعد التوراة كتاباً ! " ‹١› .

فقـــد جاءهم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، خاتم الأنبياء ، والمرسلين ، ولا نبى بعده ، بل هو المعَقّب لهم ، لأنه عليه الصلاة والسلام أتى على مدة متطاولة من إرسال عيسى عليه السلام ، فهو سبحانه وتعالى قطع العذر عن هؤلاء ، وأقـــام عليهـــم الحجة بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ، لئلا يدعى الذين بدلوا دينهم ، وحرفوا وغيروا أحكامـــه ، أنهم لم يأت رسول يبشر بالخير وينذر بالشر ‹٢› .

---

١ ـ جامع البيان ١٠ / ١٥٥ ، بتحقيق : محمود محمد شاكر ، وأحمد محمد شاكر .

٢ ـ انظر : المصدر السابق ١ / ١٥٥ ـ ١٥٨ ، وابن كثير ٢ / ٣٥ ، ٣٦ ، بتصرف .

المجتمع الإسلامي كما يصوره الفصل الثاني

تبين لنـــا أن الحكـــم بمـــا أنزل الله تعالى كان مقرراً فى شريعتى موسى وعيسى عليهما السلام ، كما هو مقرر فى شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن دين الله واحد ، وهو الإسلام ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، ولذا يجب الالتزام به ، والانقياد لتعاليمه ، والسير على هداه ، لأنه هو الأساس فى استقرار المجتمع الإسلامى .

كمـــا تبين لنـــا أن اليهـــود والنصارى قد بدلوا وغيروا وحرفوا كلام الله تعالى ، وإلا فعيسى عليه السلام كان مقرراً لما جاء به موسى عليه السلام ، وكلاهما كانا قد بشرا بمقدم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد بنى أسلافهم الحصون والقلاع قرب المدينة ، لنصرة الرسول المبعوث آخر الزمان ، الموجود عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، وقد أمروا قومهم بمهاجرة أوطانهم بالشام إلى تلك القلاع والحصون التى بنوها فى المدينة ، ولكن حينما ظهر محمد صلى الله عليه وسلم تركوا نصرته ، بل لم يؤمنوا به ، وجحدوا نبوته ورسالته .